ما قدمهم المسلمين من الشدة وشاوروهم في الاقامة بالقدس لأنه يجب
ظاهرها وأصرّ الجميع على أنه لا مصلحة في اقامته بنفسه فانها مخ
وذكروا أنهم يقصدونهم ويخرج هو رحمه الله بطائفة من العسكر يكون
كما أن الحال بمكا ويكون هو ومن معه بصدد منع ميرتهم والتضييق عليهم
هم بصدد حفظ البلد والدفع عنه وانفصل مجلس المشورة على ذلك وهو مصر
يقيم بنفسه علماً منه أنه لم يقم لم يقم أحد فلما انصرف الامراء الي بيوتهم جاء من
من أخبر أنهم لا يقيمون الا ان يقيم أخوه الملك العادل أو أحد أولاده حتى
هو الحاكم عليهم والذي يأتمرون بأمره فعلم ان هذه اشارة منهم الى عدم الاقامة
وضاق صدره وتقسم فكره واشتدت فكرته * ولقد جلست في خدمته في تلك الليلة
وكانت ليلة الجمعة من أول الليل الى أن قارب الصبح وكان الزمان شتاء وليس معنا
ثالث الا الله تعالى ونحن نقسم اقساماً ونرتب على كل قسم بمقتضاه حتى اخذ ني
الاشفاق عليه والخوف على مزاجه فانه كان يغلب عليه اليبس فشفعت اليه حتى
يأخذ مضجعه لعله ينام ساعة فقال رحمه الله لعلك جاءك النوم ثم نهض فما وصلت الى
بيتي وأخذت لبعض شأني الا وأذن المؤذن وطلع الصبح وكنت أصلي معه الصبح
في معظم الاوقات فدخلت عليه وهو يمر الماء على اطرافه فقال ما أخذني اليوم أصلا
فقلت قد علمت فقال من أين فقلت لاني ما نمت وما بقي وقت للنوم ثم اشتغلنا
بالصلاة وجلسنا على ما كنا عليه فقلت له قد وقع لي واقع وأظنه مفيداً ان شاء
الله تعالى فقال وما هو فقلت له الاخلاد الى الله تعالى والانابة اليه . والاعتماد في
كشف هذه الغمة عليه. فقال وكيف نصنع فقلت اليوم الجمعة يغتسل المولى عند
الرواح ويصلي على العادة بالاقصى موضع مسرى النبي صلى الله عليه وسلم ويقدم
المولى التصدق بشيء خفية على يد من يثق به ويصلي المولى ركعتين بين الاذان
والاقامة ويدعو الله في سجوده فقد ورد فيه حديث صحيح وتقول في باطنك «إلهي
قد انقطعت اسبابي الارضية في نصرة دينك ولم يبق الا الاخلاد اليك والاعتصام
بحبلك والاعتماد على فضلك أنت حسبي ونعم الوكيل». فان الله أكرم من أن يخيب

ـ كله وصليت الى جانبه على العادة وصلى الركعتين بين الاذان
ـيته ساجداً ودموعه تتقاطر على شيبته ثم على سجادته ولا أسمع ما
ـفض ذلك اليوم حتى وصلت رقعة من عز الدين جرديك وكان على
ـر فيها أن الافرنج مختبطون وقد ركب اليوم عسكرهم بأسره الى الصحراء
ـى قائم الظهيرة ثم عادوا الى خيامهم وفي بكرة السبت جاءت رقعة ثانية تخبر
ـم بمثل ذلك . ووصل في أثناء النهار جاسوس أخبر أنهم اختلفوا فذهبت
ـرنسيسة الى أنهم لا بدّ لهم من محاصرة القدس وذهب الانكتار وأتباعه الى أنه
لا يخاطر بدين النصرانية ويرميهم في الجبل مع عدم المياه فان السلطان كان قد
أفسد جميع ما حول القدس من المياه وأنهم خرجوا للمشورة ومن عادتهم أنهم
يتشاورون للحرب على ظهور الخيل وأنهم قد نصوا على عشرة أنفس منهم وحكموهم فأي
شيء أشاروا به لا يخالفونهم . ولما كانت بكرة الاثنين جاء المبشر يخبر أنهم رحلوا
عائدين الى جهة الرملة فهذا ما شاهدته من آثار استنباطه واخلاده الى الله تعالى
رحمه الله

ذكر عدله رحمه الله تعالى

(روى) أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الوالي العادل ظل الله في أرضه فمن نصحه في نفسه أو عباده أظله الله تحت عرشه يوم لا ظل الا ظله ومن خانه في نفسه او في عباد الله خذله الله يوم القيامه يرفع للوالي العادل في كل يوم عمل ستين صديقاً كلهم عابد مجتهد لنفسه

ولقد كان رحمه الله عادلاً رؤفاً رحيماً ناصراً للضعيف على القوي . وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل اليه كل احد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً . على انه كان في جميع زمانه قابلاً لجميع ما يعرض عليه من القصص في كل يوم ويفتح باب العدل ولم يرد قاصدا للحوادث والحكومات .

وكان يجلس مع الكاتب ساعة اما في الليل أو في النهار ويوقع على كل قصة بما يجريه الله على قلبه ولم يردّ قاصداً أبداً ولا منتحلا ولا طالب حاجة وهو مع ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة رحمة الله عليه . ولقد كان رؤفاً بالرعية ناصراً للدين مواظباً على تلاوة القرآن العزيز عالماً بما فيه عاملاً به لا يعدوه أبداً رحمة الله عليه *
وما استغاث اليه أحد الا وقف وسمع قضيته وكشف ظلامته واعتني بقصته . ولقد رأيته واستغاث اليه انسان من اهل دمشق يقال له ابن زهير على تقيّ الدين ابن أخيه فانفذ اليه ليحضر الى مجلس الحكم وكان تقي الدين من أعز الناس عليه واعظمهم عنده ولكنه لم يحابه في الحق

وأعظم من هذه الحكاية مما يدل على عدله قضية جرت له مع انسان تاجر يدعي عمر الخلاطي وذلك اني كنت يوماً في مجلس الحكم بالقدس الشريف اذ دخل عليّ شيخ حسن تاجر معروف يسمى عمر الخلاطي معه كتاب حكمي يسأل فتحه فسألته من خصمك قال خصمي السلطان وهذا بساط العدل وقد سمعنا انك لا تحابي قلت وفي أي قضية هو خصمك فقال ان سنقر الخلاطي كان مملوكي ولم يزل على ملكي الى أن مات وكان في يده اموال عظيمة كلها لي ومات عنها واستولى عليها السلطان وانا مطالبه بها فقلت له يا شيخ وما أقعدك الى هذه الغاية فقال الحقوق لا تبطل بالتأخير وهذا الكتاب الحكمي ينطق بأنه لم يزل في ملكي الى أن مات فأخذت الكتاب منه وتصفحت مضمونه فوجدته يتضمن حلية سنقر الخلاطي وأنه قد اشتراه من فلان التاجر بأرجيش اليوم الفلانيّ من كذا من سنة كذا وأنه لم يزل في ملكه الى أن شذ عن يده في سنة كذا وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجه ما وتم الشرط الى آخره فتعجبت من هذه القضية وقلت للرجل لا ينبغي سماع هذا بلا وجود الخصم وانا أعرّفه وأعرّفك ما عنده فرضي الرجل بذلك واندفع فلما اتفق المثول بين يديه في بقية ذلك اليوم عرفته القضية فاستبعد ذلك استبعاداً عظيما وقال كنت نظرت في الكتاب فقلت نظرت فيه ورأيته متصل الورود والقبول الى دمشق وقد كتب عليه كتاب حكمي من دمشق وشهد به على يد قاضي دمشق

شهود معروفون فقال مبارك نحن نحضر الرجل ونحكمه ونعمل في القضية ما يقتضيه الشرع * ثم اتفق بعد ذلك جلوسه معي خلوة فقلت له هذا الخصم يتردد ولا بد أن تسمع دعواه فقال أقم عني وكيلا يسمع الدعوى ثم يقيم الشهود شهادتهم وأخر فتح الكتاب الى حين حضور الرجل هاهنا ففعلت ذلك ثم أحضر الرجل واستدناه حتى جلس بين يديه وكنت الى جانبه ثم نزل من طراحته حتى ساواه وقال ان كان لك دعوى فاذكرها فحرّر الرجل الدعوى على معنى ما شرح أوّلا فأجابه السلطان أن سنقر هذا كان مملوكي ولم يزل على ملكي حتى أعتقته وتوفى وخلف ما خلفه لورثته فقال الرجل لي بينة تشهد بما ادعيته ثم سأل فتح كتابه ففتحته فوجدته كما شرحه فلما سمع السلطان التاريخ قال عندي من يشهد أن سنقر هذا في التاريخ كان في ملكي وفي يدي بمصر واني اشتريته مع ثمانية أنفس في تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة وأنه لم يزل في يدي وملكي الى أن أعتقته ثم استحضر جماعة من أعيان الامراء والمجاهدين فشهدوا بذلك وذكروا القصة كما ذكرها والتاريخ كما ادعاه فأبلس الرجل فقلت له يامولاي هذا الرجل ما فعل ذلك الا طلباً لمراحم السلطان وقد حضر بين يدي المولى ولا يحسن أن يرجع خائباً للقصد فقال هذا باب آخر وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة قد شذعني مقدارها . فانظر الى ما في طيّ هذه القضية من المعاني الغريبة العجيبة والتواضع والانقياد الى الحق وارغام النفس والكرم في موضع المؤاخذة مع القدرة التامة رحمه الله تعالى رحمة واسعة

﴿ ذكر طرف من كرمه رحمه الله ﴾

قال صلى الله عليه وسلم اذا عثر الكريم فان الله آخذ بيده وفي الكرم أحاديث * وكرمه قدّس الله روحه كان أظهر من أن يسطر * وأشهر من أن يذكر لكن نبهت عليه جملة * وذلك أنه ملك ما ملك ومات ولم يوجد في خزانته من الفضة الا سبعة وأربعون درهما ناصريه ومن الذهب الاجرم واحد صوري ما علمت وزنه وكان رحمه الله يهب الاقاليم وفتح آمد وطلبها منه ابن قره ارسلان فأعطاه اياه

بحبه

ورأيته قد اجتمع عنده جمع من الوفود بالقدس الشريف وكان قد عزم على التوجه الى دمشق ولم يكن في الخزانة ما يعطى الوفود فلم أزل أخاطبه في معناهم حتى باع اشياء من بيت المال وفضضنا ثمنها عليهم ولم يفضل منه درهم واحد

وكان رحمه الله يعطي في وقت الضيق كما يعطي في حال السعة * وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيأ من المال حذراً أن يفاجئهم مهم لعلمهم بأنه متى علم به أخرجه * وسمعته يقول في معرض حديث جرى يمكن أن يكون في الناس من ينظر الى المال كما ينظر الى التراب فكأنه أراد بذلك نفسه رحمه الله تعالى

وكان يعطي فوق ما يؤمل الطالب فما سمعته قط يقول اعطينا لفلان . وكان يعطي الكثير و يبسط وجهه للعطاء بسطه لمن لم يعطه شيأ . وكان رحمه الله يعطي ويكرم اكثر مما يعطي وكان قد عرفه الناس فكانوا يستزيدونه في كل وقت وما سمعته قط يقول قد زدت مرارًا فكم أزيد

واكثر الرسائل كانت تكون في ذلك على لساني و يدي وكنت أخجل من كثرة ما يطلبون ولا أخجل منه من كثرة ما أطلبه لهم لعلمي بعدم مؤاخذته ذلك وما خدمه أحد الا وأغناه عن سؤال غيره

(وأما تعداد عطاياه وتعداد صنوفها) فلا تطمع فيها حقيقة أصلا وقد سمعت من صاحب ديوانه يقول لي قد تجارينا عطاياه فحصرنا عدد ما وهب من الخيل بمرج عكا فكان عشرة آلاف فرس . ومن شاهد مواهبه يستقل هذا القدر * اللهم انك الهمته الكرم وأنت أكرم منه فتكرم عليه برحمتك ورضوانك يا أرحم الراحمين

ذكر شجاعته قدس الله روحه

(روي) عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله يحب الشجاعة ولو على قتل حية * ولقد كان رحمه الله تعالى من عظماء الشجعان قوي النفس شديد البأس عظيم الثبات لا يهوله أمر ولقد رأيته يعطي دستوراً في أوائل الشتاء و يبقى في شرذمة يسيرة في مقابلة عددهم الكثير وقد سألت باليان بن بارزان وهو من كبار ملوك

الساحل وهو جالس بين يديه رحمه الله يوم انعقاد الصلح عن عدتهم فقال الترجمان عنه انه يقول كنت أنا وصاحب صيدا وكان ايضاً من ملوكهم وعقلائهم قاصدين عسكرنا من صور فلما أشرفنا عليه تحازرناه فحزرهم هو خمسمائة الف وحزرتهم أنا بستمائة الف أو قال عكس ذلك قلت فكم هلك منهم فقال أما بالقتل فقريب من مائة الف وأما بالموت والغرق فلا نعلم وما رجع من هذا العالم الا الأقل

وكان لا بد له من أن يطوف حول العدوّ في كل يوم مرة أو مرتين اذا كنا قريباً منهم . ولقد وصل في ليلة واحدة منهم نيف وسبعون مركبا على عكا وأنا أعدها من بعد صلاة العصر الى غروب الشمس وهو لا يزداد الا قوة نفس

وكان رحمه الله تعالى اذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد على يده جنيب ويخرق العساكر من الميمنة الى الميسرة ويرتب الاطلاب ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها . وكان يشارف العدو ويجاوره رحمه الله . ولقد قرئ عليه جزآن من الحديث بين الصفين وذلك اني قلت له قد سمع الحديث في جميع المواطن الشريفة ولم ينقل أنه سمع بين الصفين فان رأى المولى أن يؤثر عنه ذلك كان حسناً فأذن في ذلك فاحضر جزءه كما احضر من له به سماع فقرأ عليه ونحن على ظهور الدواب بين الصفين نمشي تارة ونقف أخرى

وما رأيته استكثر العدو أصلا ولا استعظم أمرهم قط وكان مع ذلك في حال الفكر والتدبير تذكر بين يديه الاقسام كلها ويرتب على كل قسم بمقتضاه من غير حدة ولا غضب يعتريه . ولقد انهزم المسلمون في يوم المصاف الاكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله ووقع الكؤس والعلم وهو رضي الله عنه ثابت القدم في نفر يسير حتى انحاز الى الجبل يجمع الناس ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا ولم يزل كذلك حتى نصر عسكر المسلمين على العدو في ذلك اليوم وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس ولم يزل رحمه الله مصابراً لهم وهم في العدة الوافرة الى أن ظهر له ضعف المسلمين فصالح وهو مسئول من جانبهم فان الضعف والهلاك كان فيهم أكثر ولكنهم كانوا يتوقعون النجدة ونحن لا نتوقعها وكانت المصلحة في الصلح وظهر ذلك

لما أبدت الاقضية الالهية والاقدار ما في مكنونها . وكان رحمه الله يمرض ويصح ويعتريه أحوال مهولة وهو مصابر مرابط ونتراءى النار ان ونسمع منهم صوت الناقوس ويسمعون منا صوت الاذان الى ان انقطعت الوقعة على أحسن حال وايسره قدس الله روحه ونور ضريحه

﴿ ذكر اهتمامه بأمر الجهاد ﴾

قال الله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وأن الله لمع المحسنين ونصوص الجهاد كثيرة . ولقد كان رحمه الله شديد المواظبة عليه عظيم الاهتمام به ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه الى الجهاد دينارًا ولا درهما الا في الجهاد أو في لارفاد لصدق وبر في يمينه . ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه أستيلاء عظيما بحيث ما كان له حديث الا فيه ولا نظر الا في آلته ولا كان له اهتمام الا برجاله ولا ميل الا الى من يذكره ويحث عليه . ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة . ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريحية على مرج عكا فلو لم يكن في البرج لقتلته ولا يزيده ذلك الا رغبة ومصابرة واهتماما . وكان الرجل اذا أراد أن يتقرب اليه يحثه على الجهاد وأنا ممن جمع له فيه كتابا جمعت فيه آدابه وكل آية وردت فيه وكل حديث روي في فضله وشرحت غريبها . وكان رحمه الله كثيرًا ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الملك الافضل عز نصره * ولاحكين عنه ما سمعت منه وذلك انه كان قد أخذ كوكب في ذي القعدة سنة أربع وثمانين وخمسمائة وأعطي العسكر دستورًا وأخذ عسكر مصر في العود الى مصر وكان مقدمها أخاه الملك العادل عز نصره فسار معه ليودعه ويحظى بصلاة العيد في القدس الشريف حرسه الله تعالى وسرنا في خدمته . ولما صلي العيد في القدس وقع له أن يمضي الى عسقلان ويودعهم بعسقلان ثم يعود على طريق الساحل يتفقد البلاد الساحلية الى عكا ويرتب أحوالها فأشاروا عليه أن لا يفعل فان العساكر

اذا فارقتنا نبقى في عدة يسيرة والفرنج كلهم بصور وهذه مخاطرة عظيمة فلم يلتفت رحمه الله وودع أخاه والعسكر بعسقلان ثم سرنا في خدمته الى الساحل طالبين عكا. وكان الزمان شتاء والبحر هائجا شديدا وموجه كالجبال كما قال تعالى وكنت حديث عهد بروئية البحر هائجا شديدا وموجها كالجبال كما قال تعالى وكنت حديث عهد بروئية البحر فعظم أمر البحر عندي حتى خيل لي أني لو قال لي ان جزت في البحر ميلاً واحداً ملكتك الدنيا لما كنت أفعل واستخفت رأي من ركب البحر رجاء دينار أو درهم واستحسنت رأى من لا يقبل شهادة راكب بحر هذا كله خطر لي لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر فبينا أنا في ذلك اذ التفت الي رحمه الله . وقال أما أحكي لك شيأ في نفسي انه متى ما يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر الى جزائره واتبعتهم فيها حتى لا أبقى على وجه الارض من يكفر بالله أو أموت فعظم وقع هذا الكلام عندي حيث ناقض ما كان خطر لي وقلت له ليس في الارض أشجع نفساً من المولى ولا أقوى منه نية في نصرة دين الله تعالى فقال فكيف فقلت أما الشجاعة فلأن . مولانا مايهوله أمر هذا البحر وهوله . وأما نصرة دين الله فهو ان المولى ما يقنع بقلع اعداء الله من موضع مخصوص فى الارض حتى يطهر جميع الارض منهم واستأذنت أن أحكى له ما كان خطر لي فحكيت له ثم قلت ما هذه الانية جميلة ولكن المولى يسير في البحر العساكر وهو سور الاسلام ومنعته فلا ينبغي له أن يخاطر بنفسه فقال أنا أستفتيك ما أشرف الميتتين فقلت الموت في سبيل الله فقال غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتتين فانظر الى هذه الطوية ما أطهرها . والى هذه النفس ما أشجعها وأجرأها رحمة الله عليه اللهم انك تعلم انه بذل جهده في نصرة دينك وجاهد رجاء رحمتك فارحمه

﴿ صبره واحتسابه رحمة الله عليه ﴾

قال الله سبحانه وتعالى ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم .
ولقد رأيته رحمه الله بمرج عكا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماميل

كانت ظهرت عليه من وسطه الى ركبتيه بحيث لا يستطيع الجلوس وانما يكون متكئاً على جانبه ان كان بالخيمة وامتنع من مد الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس وكان يأمر أن يفرق على الناس وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريباً من العدو وقد رتب الناس ميمنة وميسرة وقلبا تعبية القتال وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار الى صلاة المغرب يطوف على الاطلاب صابراً على شدة الالم وقوة ضربان الدمامل وأنا أتعجب من ذلك فيقول اذا ركبت يزول عني ألمها حتى أنزل وهذه عناية ربانية *

ولقد مرض رحمه الله ونحن على الخروبة وكان قد تأخر عن تل الحجل بسبب مرضه فبلغ الافرنج فخرجوا طمعاً في أن ينالوا شيأ من المسلمين وهي نوبة النهر فخرجوا في مرحلة الآبار التي تحت التل فامر رحمة الله بالثقل حتى يتجهز بالرحيل والتأخر عن جهة الناصرة . وكان عماد الدين صاحب سنجار متمرضاً أيضاً فأذن له أن يتأخر مع الثقل وأقام هو ثم رحل العدو في اليوم الثاني يطلبنا فركب على مضض ورتب العسكر للقاء القوم تعبية الحرب وجعل طرف الميمنة الملك العادل وطرف الميسرة تقي الدين وجعل ولده الملك الظاهر والملك الافضل عن نصرهما في القلب ونزل هو وراء القوم يطلبهم وأول ما نزل من التل أحضر بين يديه أفرنجي قد أسر من القوم فأمر بضرب عنقه بين يديه بعد عرض الاسلام عليه وإبائه عنه وكلما سار العدو يطلب رأس النهر سار هو مستدبر الى ورائهم حتى يقطع بينهم وبين خيامهم وهو يسير ساعة ثم ينزل يستريح ويتظلل بمنديل على رأسه من شدة وقع الشمس ولا ينصب له خيمة حتي لا يرى العدو ضعفاً ولم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النهر ونزل هو قبالتهم على تل مطل عليهم الى أن دخل الليل ثم أمر العساكر المنصورة أن عادت الى محل المصابرة وان يبيتوا تحت السلاح وتأخر هو ونحن في خدمته الى قمة الجبل فضربت له خيمة لطيفة وبتنا تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرضه ونشاغله وهو ينام تارة ويستيقظ أخرى حتى لاح الصباح ثم ضرب البوق وركب وركبت العساكر وأحدقت بالعدو ورحل العدو عائداً الي خيامهم من الجانب الغربي من النهر وضايقهم المسلمون

في ذلك اليوم مضايقة شنيعة وفي ذلك اليوم قدم أولاده بين يديه احتسابا وجميع من حضر منهم ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده الا أنا والطبيب وعارض الجيش والغلمان بايديهم الاعلام والبيارق لاغير فيظن الرائي لها عن بعد ان تحتها خلقا عظيما ولم يزل العدو سائر والقتل يعمل فيهم وكلما قتل منهم شخص دفنوه وكلما جرح منهم رجل حملوه حتى لا يبقى بعدهم من يعلم قتله وجرحه وهم سائرون ونحن نشاهدهم حتى اشتد بهم الامر ونزلوا عند الجسر وكان الافرنج متى نزلوا الى الارض أيس المسلمون من بلوغ غرض منهم لانهم يجتمعون في حالة النزول جماعة عظيمة وبقي رحمه الله في موضعه والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدو الى آخر النهار ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ما باتوا عليه بارحتهم وعدنا الى منزلنا في الليلة الماضية وعاد العسكر في الصباح الى ما كان عليه بالامس من مضايقة العدو ورحل العدو وسار على ما مضى من القتل والقتال حتى دنا الى خيامه وخرج اليه منها من أنجده حتى وصلوا الى خيامهم *

فانظر الى هذا الصبر والاحتساب والى أي غاية بلغ هذا الرجل . اللهم انك ألهمته الصبر والاحتساب ووفقته له فلا تحرمه ثوابه يا أرحم الراحمين *

ولقد رأيته رحمه الله تعالى وقد جاءه خبر وفاة ولد له بالغ يسمى اسماعيل فوقف على الكتاب ولم يعرّف أحدًا ولم نعرف حتى سمعناه من غيره ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوى أنه لما قرأ الكتاب دمعت عينيه *

ولقد رأيته ليلة على صفد وهو يحاصرها وقد قال لا ننام الليلة حتى تنصب لنا خمس مناجيق ورتب لكل منجنيق قومًا يتولون نصبه وكنا طول الليل في خدمته قدس الله روحه في ألذ مفاكهة وأرغد عيش والرسل تتواصل تخبره بان قد نصب من المنجنيق الفلاني كذا ومن المنجنيق الفلاني حتى أتى الصباح وقد فرغ منها ولم يبق الا تركيب خنازيرها عليها وكانت من أطول الليالي وأشدها بردًا ومطرًا

ورأيته وقد وصل اليه خبر وفاة تقي الدين ابن أخيه ونحن في مقابلة الافرنج جريدة على الرملة و بيننا و بينهم شوط فرس لا غير فاحضر الملك العادل وعلم الدين

سليمان وسابق الدين وعز الدين وأمر بالناس فطردوا من قريب الخيمة بحيث لم يبق حولها أحد زيادة عن غلوة سهم ثم أظهر الكتاب ووقف عليه وبكي بكاء شديداً حتى أبكانا من غير أن نعلم السبب ثم قال رحمه الله والعبرة تخنقه توفي تقي الدين فاشتد بكاؤه وبكاء الجماعة ثم عدت الى نفسي فقلت استغفروا الله تعالى من هذه الحالة وانظروا أين وفيم أنتم وأعرضوا عما سواه فقال رحمه الله نعم استغفر الله وأخذ يكررها ثم قال لا يعلم أحد واستدعى بشيء من الماورد فغسل عينيه ثم أشخص الطعام وحضر الناس ولم يعلم بذلك أحد حتى عاد العدو الى يافا وعدنا نحن الى النطرون وهو مقر ثقلنا *

وكان رحمه الله شديد الشغف والشفقة بأولاده الصغار وهو صابر على مفارقتهم راض ببعدهم عنه وكان صابرًا على مر العيش وخشونته مع القدرة التامة على غير ذلك احتساباً لله تعالى اللهم انه ترك ذلك كله ابتغاء مرضاتك فارض عنه وارحمه *

﴿ ذكر نبذ من حلمه وعفوه رحمه الله ﴾

قال الله سبحانه وتعالى والعافين عن الناس والله يحب المحسنين . لقد كان متجاوزًا قليل الغضب ولقد كنت في خدمته برج عيون قبل خروج الافرنج الى عكا يسر الله فتحها وكان من عادته أن يركب في وقت الركوب ثم ينزل فيمد الطعام ويأكل مع الناس ثم ينهض الى خيمة خاصة له ينام فيها ثم يستيقظ من منامه ويصلي ويجلس خلوة وأنا في خدمته نقرأ شيئاً من الحديث أوشيئاً من الفقه * ولقد قرأ عليّ كتاباً مختصرًا تصنيف الرازي يشتمل على الارباع الاربعة من الفقه ونزل يوماً على عادته ومد الطعام بين يديه ثم عزم على النهوض فقيل له ان وقت الصلاة قد قرب فعاد الى الجلوس وقال نصلي وننام ثم جلس يتحدث حديث متضجر وقد أخلا المكان الا ممن لزم فتقدم اليه مملوك كبير محترم عنده وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين فقال له أنا الآن ضجران أخرها ساعة فلم يفعل وقدم القصة الى قريب من وجهه الكريم بيده وفتحها بحيث يقرأها فوقف على الاسم المكتوب في رأسها فعرفه

فقال رجل مستحق فقال يوقع المولى له فقال ليست الدواة حاضرة الآن وكان رحمه الله جالساً في باب الخركاه بحيث لا يستطيع أحد الدخول اليها والدواة في صدرها والخركاه كبيرة فقال له المخاطب هذه الدواة في صدر الخركاه وليس لهذا معنى الا أمره اياه باحضار الدواة لا غير فالتفت رحمه الله فرأى الدواة فقال والله لقد صدق ثم امتد على يده اليسرى ومد يده اليمنى فأحضرها ووقع له فقلت قال الله تعالى فى حق نبيه صلى الله عليه وسلم وانك لعلى خلق عظيم وما أرى المولى الا قد شاركه في هذا الخلق فقال ما ضرنا شيئاً قضينا حاجته وحصل الثواب ولو وقعت هذه الواقعة لآحاد الناس وافرادهم لقام وقعد ومن الذي يقدر أن يخاطب أحدا هو تحت حكمه بمثل ذلك وهذا غاية الاحسان والحلم والله لا يضيع أجر المحسنين *

ولقد كانت طراحته تداس عند التزاحم عليه لعرض القصص وهو لا يتأثر لذلك ولقد نفرت يوماً بغلتي من الجمال وأنا راكب في خدمته فزحمت وركه حتى ألمته وهو يتبسم رحمه الله . ولقد دخلت بين يديه في يوم ريح مطير الى القدس الشريف وهو كثير الوحل فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أتلفت جميع ما كان عليه وهو يتبسم وأردت التأخر عنه بسبب ذلك فما تركني *

ولقد كان يسمع من المستغيثين والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع ويلقى ذلك بالبشر والقبول * وهذه حكاية يندر أن يسطر مثلها . وذلك انه كان قد اتجه اخو ملك الافرنج خذلهم الله الى يافا فان العسكر كان قد رحل عنهم و بعد وتراجع الى النطرون وهو [illegible] بينه وبين يافا [illegible] العسكر [illegible] وذلك [illegible] وجمع رحمه الله العسكر ومضى الى قيسارية يلتقي نجدتهم عساه يبلغ منها غرضاً وعلم الافرنج الذين كانوا بيافا ذلك وكان بها الانكتار ومعه جماعة فجهز معظم من كان عنده في المراكب الى قيسارية خشية على النجدة أن يتم عليها أمر وبقي الانكتار فى نفر يسير لعلمهم ببعده رحمه الله عنهم و بعد العسكر * ولما وصل رحمه الله الى قيسارية ورأى النجدة قد وصلت الى البلد واحتمت به وعلم انه لا ينال منهم غرضه سرى من ليلته في أول الليل الى آخره حتى أتى يافا صباحاً والانكتار في سبعة عشر فارساً وثلثمائة راجل

نازلاً خارج البلد في خيمة له فصبحه العسكر صباحاً فركب المأمون وكان شجاعاً باسلا صاحب رأي في الحرب وثبت بين يدي العسكر ولم يدخل البلد فاستدار العسكر الاسلامي بهم الا من جهة البحر وتعبى العسكر تعبية القتال وأمر السلطان العسكر بالحملة انتهازا للفرصة فأجابه بعض الاكراد بكلام فيه خشونة تعتب لعدم التوفير في اقطاعه فعطف رحمه الله عنان فرسه كالمغضب لعلمه أنهم لا يعملون في ذلك اليوم شيئاً وتركهم وانصرف راجعاً وأمر بخيمته التي كانت منصوبة أن قلعت وانفضوا متيقنين ان السلطان في ذلك اليوم ربما صلب جماعة * ولقد حكى لي ولده الملك الظاهر أعز الله أنصاره أنه خاف منه في ذلك اليوم حتى أنه لم يتجاسر أن يقع في عينيه مع أنه حمل في ذلك اليوم وأوغل ولم يزل سائرا حتى نزل بسازور وما من الامراء الا من يرعد خيفة ومن يعتقد انه مأخوذ مسخوط عليه قال ولم تحدثني نفسي بالدخول عليه خيفة حتى استدعاني قال فدخلت عليه وقد وصله من دمشق المحروسة فاكهة كثيرة فقال اطلبوا الامراء حتى يأكلوا شيئاً قال فسرّى عني ما كنت أجده وطلبت الامراء فحضروا وهم خائفون فوجدوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الطمأنينة والامن والسرور وانصرفوا على عزم الرحيل كأن لم يجر شيء أصلا فانظر الى هذا الحلم الذي لا يتأتى في مثل هذا الزمان ولا يحكي عمن تقدم من أمثاله رحمة الله عليه *

﴿ ذكر محافظته على أسباب المروءة ﴾

قال النبي صلى الله عليه وسلم بعثت لأتمم مكارم الاخلاق وكان صلى الله عليه وسلم اذا صافحه الرجل لا يترك يده حتى يكون الرجل هو التارك الذي يبدأ بذلك. ولقد كان السلطان كثير المروءة ندي اليد كثير الحياء مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف لا يرى أن يفارقه الضيف حتى يطعم عنده ولا يخاطبه بشيء الا وينجزه وكان يكرم الوافد عليه وان كان كافرا . ولقد وفد عليه البرنس صاحب انطاكية فما أحس به الا وهو واقف على باب خيمته بعد وقوع الصلح في شهر شؤال سنة ثمان

وثمانين وخمس مائة عند منصرفه من القدس الى دمشق عرض له في الطريق وطلب منه شيئاً فأعطاه العمق وهي بلاد كان أخذها منه عام فتح الساحل وهو سنة أربع وثمانين *

ولقد رأيته وقد دخل عليه صاحب صيدا بالناصرة فاحترمه وأكرمه وأكل معه الطعام ومع ذلك عرض عليه الاسلام فذكر له طرفاً من محاسنه وحثه عليه *

وكان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الاقدار وكان يوصينا بان لا نغفل عمن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى يحضرهم عنده وينالهم من احسانه . ولقد مر بنا سنة أربع وثمانين وخمس مائة رجل جمع بين العلم والتصوف وكان من ذوي الاقدار وأبوه صاحب توريز فأعرض هو عن فن أبيه وأشتغل بالعلم والعمل وحج ووصل زائراً لبيت الله المقدس ولما قضى لبانته منه ورآى آثار السلطان رحمه الله فيه وقع له زيارته فوصل الينا الى المعسكر المنصور فما أحسست به الا وقد دخل عليّ في الخيمة فلقيته ورحبت به وسألته عن سبب ذلك ووصوله فأخبرني بذلك وأنه يؤثر زيارة السلطان لما رأى له من الآثار الحميدة الجميلة فعرفت السلطان بذلك في ليلة وصول هـذا الرجل فأستحضره وروي عنه حديثاً ثم انصرفنا وبات عندي في الخيمة فلما صليت الصبح أخذ يودعني فقبحت له المسير بدون وداع السلطان فلم يلتفت ولم يلو على ذلك وقال قد قضيت حاجتي منه ولا غرض لي فيما عدا رؤيته وزيارته وانصرف من ساعته ومضى على ذلك ليال فسأل السلطان عنه فأخبرته بفعله فظهر عليه آثار الغضب كيف لم أخبره برواحه وقال كيف يطرقنا مثل هذا الرجل وينصرف عنا من غير احسان يمسه منا وشدد النكير عليّ في ذلك فما وجدت بدا من أن أكتب كتاباً الى محيي الدين قاضي دمشق كلفته فيه السؤال عن حال الرجل وايصال رقعة كتبتها اليه طيّ كتابي أخبره فيها بانكار السلطان رواحه من غير اجتماعه به وحسنت له فيها العود وكان بيني وبينه صداقة تقتضي مثل ذلك فما أحسست به الا وقد عاد اليّ فرحب به السلطان وانبسط معه وأمسكه أياماً ثم خلع عليه خلعة حسنة وأعطاه مركباً لائقاً وثياباً كثيرة

يحملها الى بنيه وأتباعه وجيرانه وأنصرف عنه وهو أشكر الناس وأخلصهم دعاء لأيامه *

ولقد رأيته وقد مثل بين يديه أسير افرنجي قد أصابه كرب بحيث أنه ظهرت عليه أمارات الخوف والجزع فقال للترجمان من أي شيء يخاف فأجرى الله على لسانه أن قال كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه أيقنت أني ما أرى الآ الخير فرق له ومنّ عليه وأطلقه ولقد كنت راكباً في خدمته في بعض الأيام قبالة الافرنج وقد وصل بعض اليزكية ومعه امرأة شديدة التخوف كثيرة البكاء متواترة الدق على صدرها فقال اليزكي أن هذه خرجت من عند الافرنج فسألت الحضور بين يديك وقد أتينا بها فأمر الترجمان أن يسألها عن قصتها فقالت اللصوص المسلمون دخلوا البارحة الى خيمتي وسرقوا ابنتي وبت البارحة استغيث الى بكرة النهار فقال لي الملوك السلطان هو أرحم ونحن نخرجك اليه تطلبين ابنتك منه فأخرجوني اليك وما أعرف ابنتي الآ منك فرق لها ودمعت عينه وحركته مروءته وأمر من ذهب الى سوق العسكر يسأل عن الصغيرة من اشتراها ويدفع لهُ ثمنها ويحضرها وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه فما كان الا أن وقع نظرها عليها فخرت الى الارض تعفر وجهها في التراب والناس يبكون على ما نالها وهي ترفع طرفها الى السماء ولا نعلم ما تقول فسلمت ابنتها اليها وحملت حتى أعيدت الى عسكرهم *

وكان لا يرى الاساءة الى من صحبه وان أفرط في الخيانة ولقد أبدل في خزائنه كيسان من الذهب المصري بكيسين من الفلوس فما عمل بالنواب شيئاً سوى أن صرفهم من عملهم لا غير *

ولقد دخل البرنس أرناط صاحب الكرك مع ملك الافرنج بالساحل لما أسرهما في واقعة حطين في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة والواقعة مشهورة تجيء مشروحة في موضعها ان شاء الله تعالى وكان قد أمر باحضارهما وكان أرناط هذا اللعين كافراً عظيماً جباراً شديداً وكانت قد اجتازت به قافلة من مصر حين كان بين

المسلمين و بينهم هدنة فغدرها وأخذها ونكل بهم وعذبهم وأسكنهم المطامير والحبوس الحرجة وذكروا له حديث الهدنة فقال قولوا لمحمدكم يخلصكم فلما بلغه رحمه الله ذلك عنه نذر أنه متى أظفره الله به قتله بنفسه فلما أمكنه الله منه في ذلك اليوم قوي عزمه على قتله وفاء بنذره فأحضره مع الملك فشكا الملك العطش فأحضر له قدحاً من شراب فشرب منه ثم ناوله أرناط فقال السلطان للترجمان قل للملك أنت الذي سقيته وأما أنا فما أسقيته من شرابي ولا أطعمه من طعامي فقصد رحمه الله أن من أكل من طعامي فالمروءة تقتضي أن لا أوذيه ثم ضرب عنقه بيده وفاء بنذره وأخذ عكا وأخرج الأسرى كلهم من ضيق الأسر وكانوا زهاء أربعة آلاف أسير وأعطى كل واحد منهم نفقة يصل بها الى بلده وأهله . هكذا بلغني على ألسنة جماعة لأني لم أحضر هذه الواقعة *

وكان حسن العشرة لطيف الاخلاق طيب الفكاهة حافظا لأنساب العرب ووقائعهم عارفاً بسيرهم وأحوالهم حافظاً لانساب خيلهم عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها بحيث كان يستفيد محاضره منه مالا يسمع من غيره *

وكان حسن الخلق يسأل الواحد منا عن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه وتقلبات أحواله *

وكان طاهر المجلس لا يذكر بين يديه أحد الا بخير السمع فلا يحب أن يسمع عن أحد الا الخير وطاهر اللسان فما رأيته ولع بشتم قط * وكان حسن العهد والوفاء فما أحضر بين يديه يتيم الا وترحم على مخلفيه وجبر قلبه وأعطاه وجبر مصابه وان كان له من أهله كبير يعتمد عليه سلمه اليه والا أبقى له من الخير ما يكف حاجته وسلمه الى من يعتني بتربيته ويكفلها .

وكان لا يرى شيخاً الا ويرق له ويعطيه ويحسن اليه ولم يزل على هذه الاخلاق الى ان توفاه الله الى مقر رحمته ومكان رضوانه

فهذه نبذ من محاسن أخلاقه ومكارم شيمه اقتصرت عليها خوف الاطالة والسآمة وما سطرت الا ما شاهدته أو أخبرني الثقة به وحققته وهذا بعض ما أطلعت

عليه في زمان خدمتي له وهو يسير فيما أطلع عليه غيري ممن طالت صحبته وتقدمت خدمته ولكن هذا القدر يكفي الاديب في الاستدلال على طهارة تلك الاخلاق والخلال * وحيث نجز هذا القسم فنشرع الآن في القسم الثاني من الكتاب في بيان تقلبات أحواله ووقائعه وفتوحاته في تواريخها قدس الله روحه . ونور بنور رحمته ضريحه *

﴿ القسم الثاني في بيان تقلبات أحواله وفتوحاته في تواريخها ﴾

ذكر حركته الى مصر في الدفعة الاولى صحبة عمه أسد الدين * سبب ذلك أن شاور وزير المصريين كان قد خرج عليه انسان يقال له الضرغام وكان يروم منصبه ومكانه فجمع له جموعاً كثيرة لم يكن له بها قبل وغلب عليه وأخرجه من القاهرة وقتل ولده واستولى على المكان وولي الوزارة . وكانت عادة المصريين أنه اذا غلب شخص صاحب المنصب وعجز من دفعه وعرفوا عجزه وقعوا للقاهر منهم ورتبوه ومكنوه فان قوتهم انما كانت بعسكر وزيرهم وهو الملقب عندهم بالسلطان وما كان يرون المكاشفة وقواعدهم مستقرة من أول زمانهم على هذا المثال فلما قهر شاور وأخرج من القاهرة اشتد في طلب الشام قاصداً خدمة نور الدين ابن زنكي مستصرخاً به مستنصراً على أعدائه بعسكره فتقدم نور الدين الى أسد الدين شيركوه بالخروج الى مصر المحروسة قضاء الحق الوافد المستصرخ وحفظاً للبلاد وتطلعاً الى أحوالها وذلك في شهور سنة ثمان وخمسين وخمسمائة فتأهب أسد الدين شيركوه وسار الى مصر فاستصحبه معه رحمه الله عن كراهية منه لمكان افتقاره اليه وجعله مقدم عسكره وصاحب رأيه وساروا حتى وصلوا الى مصر وشاور معهم في الثاني من جمادي الآخرة سنة ثمان المذكورة . وكان لوصولهم الى مصر وقع عظيم وخافه أهل مصر ونصر شاور على خصمه وأعاده الى منصبه ومرتبته وقرر قواعده واستقر أمره وشاهد البلاد وعرف أحوالها وعاد منها وقد غرس في قلبه الطمع في البلاد وعرف أنها بلاد بغير رجال * تمشي الامور فيها بمجرد الايهام والمحال * وكان ابتداء رحلته عنها متوجها الى الشام في

السابع من ذي الحجة سنة ثمان المذكورة . وكان لا يفصل أمرًا ولا يقرر حالا الا بمشورته ورأيه لما لاح له من آثار الاقبال والسعادة والفكرة الصحيحة واقتران النصر بحركاته وسكناته فأقام بالشام مدبرًا لامره مفكرًا في كيفية رجوعه الى البلاد المصرية محدثا بذلك نفسه مقررًا قواعد ذلك مع الملك العادل نور الدين زنكي الى سنة اثنتين وستين وخمسمائة

﴿ ذكر عودته الى مصر في الوقعة الثانية وهي معروفة بوقعة البابين ﴾

ولم يزل أسد الدين يتحدث بذلك بين الناس حتى بلغ شاور فداخله الخوف على البلاد من الاتراك وعلم ان أسد الدين قد طمع في البلاد وأنه لا بد له من قصدها فكاتب الافرنج وقرر معهم أنهم يجيئون البلاد ويمكنهم تمكينًا كلياً و يعينونه على استئصال أعدائه بحيث يستقر قلبه فيها و بلغ ذلك أسد الدين والملك العادل نور الدين فاشتد خوفهم على مصر ان ملكها الكفار واستولوا على البلاد كلها فتجهز أسد الدين وأنفذ نور الدين معه العساكر وألزم السلطان رحمه الله المسير معه على كراهية منه لذلك . وكان توجههم في اثنى عشر ربيع الاول سنة اثنتين وستين وخمسمائة وكان وصولهم الى البلاد المصرية مقارنا لوصول الافرنج اليها واتفق شاور مع الافرنج على أسد الدين والمصريون بأسرهم وجرت بينهم حروب كثيرة ووقعات شديدة وانفصل الافرنج عن الديار المصرية وانفصل أسد الدين . وكان سبب عود الافرنج أن نور الدين جرد العساكر الى بلاد الافرنج وأخذ المنيطرة وعلم الافرنج بذلك فخافوا على بلادهم وعادوا . وكان سبب عود أسد الدين ضعف عسكره بسبب موافقة الافرنج والمصريين وما عانوه من الشدائد وعاينوه من الاهوال . وما عاد حتى صالح الافرنج على أن ينصرفوا كلهم من مصر وعاد الى الشام في بقية السنة وقد انضم الى قوة الطمع في البلاد شدة الخوف عليها من الافرنج لعلمه أنهم قد كشفوها كما كشفها وعرفوها من الوجه الذى عرفها فأقام على مضض وقلبه مقلقل والقضاء يجره الى شيء قد قدر لغيره وهو لا يشعر بذلك

﴿ ذكر عوده الى مصر في الدفعة الثالثة وهي التي ملكوها ﴾
﴿ فيها وجري ماجري في شهور سنة أربع وستين وخمسمائة ﴾

ملك نور الدين قلعة المنيظرة بعد سير أسد الدين في رجب وخرب قلعة اكاف بالبرية . وفي رمضان منها اجتمع نور الدين وأخواه قطب الدين وزين الدين بحماه للغزاة وساروا الى بلاد الافرنج فخربوا هونين في شوال منها . وفي ذي القعدة كان عود أسد الدين من مصر . وكان سبب ذلك ان الافرنج خذلهم الله جمعوا راجلهم وفارسهم وخرجوا يريدون الديار المصرية ناكثين لجميع ما استقر مع المصريين وأسد الدين مع الصلح والقواعد طمعا في البلاد فلما بلغ ذلك نور الدين وأسد الدين لم يسعهما الصبر دون ان سارعا الى قصد البلاد * أما نور الدين فبالمال والرجال ولم يسر بنفسه خوفاً على البلاد من الافرنج ولانه قد حدث نظره الى جانب الموصل بسبب وفاة زين الدين ابن بكتكين فانه توفي في ذي الحجة سنة ثلاث وستين وخمسمائة وتسلم ما كان في يده من الحصون الى قطب الدين ما عدا أربل فانها كلها كانت له من أتابك زنكي رحمه الله فحدث لنور الدين الى ذلك الجانب الطمع بهذا السبب فسير العسكر . وأما أسد الدين فبسيفه وملكه وأهله ورجاله ولقد قال لي السلطان قدس الله روحه كنت اكره الناس للخروج في هذه الواقعة وما خرجت مع عمي باختياري وهذا معنى قوله تعالى وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم . وكان شاور لما أحس بخروج الافرنج الى مصر على تلك القاعدة أنفذ الى أسد الدين يستصرخه ويستنجده فخرج مسرعاً . وكان وصولهم الى مصر في اثناء ربيع الاول سنة اربع وستين وخمسمائة * ولما علم الافرنج وصول اسد الدين الى مصر عن اتفاق بينه وبين أهلها رحلوا راجعين وعلى أعقابهم ناكصين . وأقام أسد الدين بها يتردد اليه شاور في الاحيان . وكان وعدهم بمال مقابلة ما خسروه من النفقة فلم يوصل اليهم شيئاً وعلقت مخاليب أسد الدين في البلاد وعلم ان الافرنج متى وجدوا فرصة أخذوا البلاد وترددهم اليها في كل وقت لا يفيد وان شاور يلعب بهم تارة وبالافرنج تارة أخرى وعلموا انه لا سبيل الى

الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور فاجمعوا أمرهم على قبضه ان خرج اليهم وكانوا هم يترددون الى خدمته دون اسد الدين وهو يخرج في بعض الاحيان الى أسد الدين يجتمع به . وكان يركب على قاعدة وزرائهم الطبل والبوق والعلم فلم يتجاسر على قبضه من الجماعة الا السلطان بنفسه . وذلك انه لما سار اليهم تلقاه راكبا وسار الى جانبه وأخذ بتلابيبه وأمر العسكر ان أخذوا على اصحابه ففروا ونهبهم العسكر وقبض على شاور وأنزل الى خيمة مفردة وفي الحال جاء التوقيع من المصر يين على يد خادم خاص لا بدّ من رأسه جريا على عادتهم في وزرائهم في تقرير قاعدة فيمن قوى منهم على صاحبه فحزت رقبته وانفذ رأسه اليهم وانفذ الى اسد الدين خلعة الوزارة فلبسها وسار ودخل القصر ورتب وزيرًا وذلك في سابع عشر ربيع الاخر سنة أربع وستين وخمسمائة ودام آمرًا ناهيًا والسلطان رحمه الله مباشر الامور مقرر لها وزمام الامر والنهي مفوض اليه لمكان كفايته ودرايته وحسن رأيه وسياسته الى الثاني والعشرين من جمادي الاخرة من السنة المذكورة

﴿ ذكر وفاة أسد الدين ومصير الامر الى السلطان ﴾

وذلك ان أسد الدين كان كثير الاكل شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة وتتواتر عليه التخم والخوانيق وينجوا منها بعد مقاساة شدة عظيمة فأخذه مرض شديد واعتراه خانوق عظيم فقتله في الثاني والعشرين من جمادي الاخرة وفوّض الامر بعده الى السلطان واستقرت القواعد واستتبت الاحوال على احسن نظام وبذل المال . وملك الرجال وهانت عنده الدنيا فملكها وشكر نعمة الله عليه فتاب من الخمر وأعرض عن أسباب اللهو وتقمص بلباس الجد والاجتهاد وما عاد عنه ولا ازداد الا جدًا الى ان توفاه الله الى رحمته * ولقد سمعت منه يقول لما يسر الله لي الديار المصرية علمت انه اراد فتح الساحل لانه أوقع ذلك في نفسي * ومن حين استتب له الأمر ما زال يشن الغارات على الافرنج الى الكرك والشوبك وبلادها وغشي الناس من سحائب الافضال والنعم ما لم يؤرخ عن غير تلك الايام هذا كله وهو وزير

متابع القوم ولكنه مقو لمذهب السنة غارس في أهل البلاد العلم والفقه والتصوف والدين والناس يهرعون اليه من كل صوب ويفدون عليه من كل جانب وهو لا يخيب قاصدًا . ولا يعدم وافدًا * ولما عرف نور الدين استقرار السلطان بمصر أخذ حمص من نواب أسد الدين وذلك في رجب من سنة أربع وستين *

﴿ ذكر قصد الافرنج دمياط حرسها الله تعالى ﴾

ولما علم الافرنج ماجرى من المسلمين وعساكرهم وما تم للسلطان من استقامة الامر في الديار المصرية خافوا أن يملك بلادهم ويخرّب ديارهم ويقلع آثارهم لما حدث له من القوة والملك فاجتمع الافرنج والروم جميعًا وحدثوا أنفسهم بقصد الديار المصرية والاستيلاء عليها وملكها ورأوا قصد دمياط لتمكن القاصد لها من البر والبحر ولعلمهم أنها ان حصلت لهم حصل لهم مغرس قدم فاستصحبوا المجنيقات والدبابات والجروخ وآلات الحصار وغير ذلك ولما سمع إفرنج الشام بذلك اشتد أمرهم فسرقوا حصن عكا من المسلمين وأسروا صاحبها وكان مملوكاً لنور الدين يسمى خلطخ العلم دار وذلك في ربيع الآخر منها . ولما رأى نور الدين ظهور أمر الافرنج و بلغه نزولهم على دمياط قصد شغل قلوبهم فنزل على الكرك محاصرًا لها في شعبان من هذه السنة فقصده افرنج الساحل فرحل عنها وقصد لقاءهم فلم يقف لهم على أثر ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الداية بحلب وكانت وفاته في شهر رمضان سنة خمس وستين فاشتغل قلبه لانه كان صاحب أمره فعاد يطلب الشام فبلغه خبر الزلزلة بحلب التي أخربت كثيرًا من البلاد المذكورة فسار يطلب حلب فبلغه موت قطب الدين أخيه بالموصل وكانت وفاته في الثاني والعشرين من ذي الحجة من السنة المذكورة و بلغه الخبر وهو بتل باشر فسار من ليلته طالباً بلاد الموصل ولما علم السلطان شدة قصد العدوّ دمياط أنفذ الى البلد وأودعه من الرجال وأبطال الفرسان والميرة وآلات السلاح ما أمن معه عليه ووعد المقيمين فيه بامدادهم بالعساكر والآلات وابعاد العدو عنهم ان نزل عليهم ثم نزل الافرنج في التاريخ المذكور واشتد زحفهم عليها وقتالهم لها وهو يشن الغارة عليهم

من خارج والعساكر تقاتلهم من داخل ونصر الله المسلمين وأيدهم وحسن قصدهم في نصر دين الله وأسعدهم وأنجدهم حتى بان للافرنج الخسران . وظهر على الكفر الايمان . ورأوا أنهم ينجون برؤسهم . ويسلمون بنفوسهم . فرحلوا خائبين خاسرين خرّقت مناجيقهم ونهبت وقتل منهم خلق كثير وسلم البلد بحمد الله ومنه عن قصدهم وظهر بتوفيق الله فلّ حدهم * واستقرت قواعد السلطان *

﴿ ذكر طلبه والده ﴾

ثم أنفذ في طلب والده ليكمل السرور به ويتم الحبور وتجرى القصة مشاكلة لما جرى للنبي يوسف صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الانبياء . فوصل والده نجم الدين اليه في اثناء جمادى الاخرى من سنة خمسة وستين وسلك معه من الادب ما كان عادته وألبسه الامر كله فأبى أن يلبسه وقال ياولدي ما اختارك الله لهذا الامر الا وأنت كفوء له . ولا ينبغي أن يغير موقع السعادة فحكمه في الخزائن بأسرها ولم يزل السلطان وزيرًا محكمًا حتى مات العاضد أبو محمد عبد الله وبه ختم أمر المصريين

وأما نور الدين فانه أخذ الرقة فى المحرم سنة ست وستين وسار منها الى نصيبين فأخذها في بقية الشهر وأخذ سنجار في بيع الآخر منها ثم قصد الموصل وقصد أن لا يقاتلها فعبر بعسكره من مخاضة بلد وسار حتى خيم قبالة الموصل على تل يقال له الحصن وراسل ابن أخيه عز الدين غازي صاحب الموصل وعرفه صحة قصده فصالحه ودخل الموصل في ثالث عشر جمادى الاولى وقرر صاحبها فيها وزوجه ابنته وأعطى عماد الدين ابن أخيه سنجار وخرج من الموصل قاصدًا نحو الشام فدخل حلب في شعبان من هذه السنة

﴿ ذكر موت العاضد ﴾

وكان موته في يوم الاثنين العاشر من المحرم سنة سبع وستين واستقر الملك للسلطان

وكان خطب لبني العباس في أواخر أمر العاضد وهو حي وكانت الخطبـة ابتداؤها للمستضيء بأمر الله واستمرت القواعد على الاستقامة وهو كلما استولى على خزانة من المال وهبها وكلما فتح له خزائن ملك أنهبها ولا يبقى لنفسه شيئاً وشرع السلطان في التأهب للغزاة وقصد بلاد العدو وتعبية الامر لذلك وتقرير قواعده * وأما نور الدين فانه عزم على الغزاة واستدعى صاحب الموصل ابن أخيه فوصل بالعساكر الى خدمته وكانت غزاة عرقا وأخذها في المحرم سنة سبع وستين

﴿ ذكر اول غزوة غزاها من الديار المصرية ﴾

ولم يزل على قدم بسط العدل ونشر الاحسان واقامة الاحسان على الناس الى سنة ثمان وستين فعند ذلك خرج بالعساكر يريد بلاد الكرك والشوبك وانما بدأ بها لانها كانت أقرب اليـه وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية وكان لايمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدو فأراد توسيع الطريق وتسهيله لتتصل البلاد بعضها ببعض وتسهل على السابلة فخرج قاصداً لها فحاصرها وجرى بينـه وبين الافرنج وقعات وعاد عنها ولم يظفر منها بشيء في تلك الوقعة وحصل ثواب القصد * وأما نور الدين فانه فتح مرعش في ذي القعدة من هذه السنة وأخذ بهسنا في ذي الحجة منها

﴿ ذكر وفاة والده نجم الدين ﴾

ولما عاد السلطان من غزاته بلغه قبل وصوله الى مصر وفاة أبيه نجم الدين فشق عليه ذلك حيث لم يحضر وفاته. وكان سبب وفاته وقوعه عن الفرس وكان رحمه الله شديد الركض ولعاً بلعب الكرة بحيث من رآه يلعب بها يقول مايموت الا من وقوعه عن ظهر الفرس وكانت وفاته في شهور سنة تسع وستين ورأى السلطان قوة عسكره وكثرة عدد اخوته وقوة بأسهم وكان بلغه أن باليمن انساناً استولى عليها وملك حصونها وهو يخطب لنفسه يسمي بعبد النبي بن مهدي ويزعم أن ينتشر ملكه في الارض كلها

و يستتب الامر له فرأى أن يسير اليها أخاه الاكبر شمس الدولة الملك المعظم تورانشاه وكان كريماً أريحياً حسن الاخلاق سمعت منه رحمه الله الثناء على كرمه وحسن أخلاقه وترجيحه على نفسه . وكان توجهه اليها في أثناء رجب سنة تسع وستين فمضى اليها وفتح الله على يديه وقتل الخارجي الذي كان بها واستولى على معظمها وأعطى وأغنى خلقاً كثيراً .

﴿ ذكر وفاة نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله ﴾

وكانت وفاته بسبب خوانيق اعترته ايضاً عجز الاطباء عن علاجها وتوفي يوم الاربعاء في الحادي والعشرين من شوال سنة تسع وستين وذلك في قلعة دمشق وأقام مقامه ولده الملك الصالح اسماعيل * ولقد حكي لي السلطان قال كان بلغنا عن نور الدين أنه قصدنا بالديار المصرية وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف نرده اذا تحقق قصده وكنت وحدي أخالفهم وأقول لايجوز أن يقال شيء من ذلك ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته .

ذكر منافقة الكنز بأسوان وذلك في شهور سنة تسع وستين

والكنز انسان مقدم من المصريين كان قد نزح الى أسوان فأقام بها ولم يزل يدبر أمره ويجمع السودان عليه ويخيل لهم أنه يملك البلاد ويعيد الدوله مصرية وكان في قلوب القوم من مهاواة المصريين ماتستصغر هذه الافعال عنده فاجتمع عليه خلق كثير وجمع وافر وقصدوا قوص واعمالها وانتهى خبره الى السلطان فجرد له عسكراً عظيما شاكي السلاح من الذين ذاقوا حلاوة المصرية وخافوا على فوت ذلك منهم وقدم عليهم أخاه الملك العادل سيف الدين وسار بهم حتى أتى القوم فلقيهم بمصاف فكسرهم وقتل منهم خلقاً عظيماً واستأصل شأفتهم وأخمد ثائرتهم وذلك في السابع من صفر سنة سبعين واستقرت قواعد الملك واستوت أموره ولله الحمد والمنة *

﴿ ذكر قصد الافرنج ثغر الاسكندرية حرسها الله تعالى ﴾

وذلك أن الافرنج لمــا علموا تغيرات الاحوال بالديار المصرية وتقلبات الدول بها داخلهم الطمع في البلاد وجردوا عساكرهم في البحر وكانوا في ستمائة قطعة مابين شاني وطرادة و بطسة وغير ذلك * وكانوا في ثلاثين ألفا على ماذكر ونازلوا الثغر وذلك في أثناء صفر في السابع منه من هذه الســنة وهي سنة سبعين فأمده السلطان بالعساكر المنصورة وتحرك وأدخل الله في قلوبهم من الخوف والرعب مالم يمكنهم الصبر معه وعادوا خائبين خاسرين بعد أن ضايقوا الثغر وزحفوا عليه ثلاثة أيام وقاتلو قتالا شديدًا وعصمه الله منهم * ولما أحسوا بحركة السلطان نحوهم مالبثوا أن خلفوا مناجيقهم وراءهم وآلتهم فخرج أهل البلد الى نهبها واحراقها وكان أمرًا عظيماً ومن أعظم النعم على المسلمين وأمارة كل سعادة *

﴿ ذكر خروج السلطان الى الشام وأخذه دمشق ﴾

وأما نور الدين فانه خلف ولده الملك الصالح اسماعيل وكان بدمشق وكان بقلعة حلب ابن الداية شمس الدين على وشاذ بخت . وكان قد حدث نفسه بأمور فسار الملك الصالح من دمشق الى حلب فوصل ظاهرها ثاني المحرم ومعه سابق الدين فخرج بدر الدين للقائه فقبض على سابق الدين . ولما دخل الملك الصالح القلعة قبض على شمس الدين وأخيه حسن وأودع الثلاثة السجن . وفي ذلك اليوم قتل ابن الخشاب أبو الفضل لفتنة جرت بحلب ذكروا أنه قتل قبل إمساك أولاد الداية بيوم لانهم تولوا ذلك . ولما تحقق السلطان وفاة نور الدين وكان ولده طفلا لا ينهض بأعباء الملك ولا يستقل بدفع عدوّ الله عن البلاد تجهز للخروج الى الشام اذ هو أصل بلاد الاســلام فتجهز بجمع كثير من العساكر وخلف في الديار المصرية من يستقل بحفظها وحراستهــا ونظم أمورها وسياستها وخرج هو سائرًا مع جمع من أهله وأقاربه وهو يكاتب أهل البلاد وأمراءها واختلفت كلمة أصحاب الملك الصالح واختلت تدابيرهم وخاف بعضهم

من بعض وقبض على جماعة منهم وكان ذلك سبب خوف الباقين من فعل ذلك وسبباً لتغير قلوب الناس عن الضبي فافتقر الحال أن كاتب شمس الدين بن المقدم السلطان ووصل البلاد مطالباً بالملك الصالح ليكون هو الذي يتولى أمره و يرب حاله فيقوّم له ما أعوجّ من أمره فوصل دمشق ولم يشق عليه عصا ودخلها بالتسليم في يوم الثلاثاء سلخ ربيع الآخر سنة سبعين وتسلم قلعتها . وكان أوّل دخوله الى دار أبيه واجتمع الناس اليه وفي جوابه وأنفق في ذلك اليوم في الناس مالاً طويلاً وأظهر الفرح والسرور بالدمشقيين وأظهروا الفرح به وصعد القلعة وأستقر قدمه في ملكها فلم يلبث أن طلب حلب فنازل حمص فأخذ مدينتها في جمادي الأول سنة سبعين ولم يشتغل بقلعتها وسار حتى أتي حلب ونازلها في يوم الجمعة سلخ الشهر المذكور وهي الوقعة الاولى

﴿ ذكر تسيير سيف الدين أخاه عز الدين الى لقائه ﴾

ولما أحس سيف الدين صاحب الموصل بما جرى علم أن الرجل قد استفحل أمره وعظم شأنه وعلت كلمته وخاف أنه ان غفل عنه استحوذ على البلاد واستقرقدمه في الملك وتعدي الامر اليه فجهز عسكرًا وافرًا وجيشاً عظيماً وقدم عليه أخاه عز الدين مسعودًا وساروا يريدون لقاء السلطان وضرب المصاف معه وردّه عن البلاد . ولما بلغ السلطان ذلك رحل عن حلب مستهل رجب من السنة المذكورة عائدًا الى حماه وسار الى حمص فاشتغل بأخذ قلعتها فأخذها ثم وصل عز الدين الى حلب وانضمّ اليه من كان بها من العسكر وخرجوا بجمع عظيم . ولما عرف هو بسيرهم سار حتى وافاهم في قرون حماه وراسلهم وراسلوه وأجتهد أن يصالحوه فما صالحوه ورأوا أن المصاف ربما نالوا به الغرض الاكبر. والمقصود الأوفر والقضاء يجر الى أمورهم بها لا يشعرون . وقام المصاف بين العسكرين بقضاء الله فانكسروا بين يديه وأسر جماعة منهم ومنّ عليهم وأطلقهم وذلك في تاسع عشر رمضان سنة سبعين أيضاً . ثم سار عقيب انكسارهم ونزل على حلب وهي الدفعة الثانية وصالحوه على أن أخذ

المعرة وكفر طاب وأخذ بار بن وذلك في أواخر هذه السنة

﴿ ذكر مسير سيف الدين بنفسه ﴾

ولما وقعت هذه الواقعة كان سيف الدين على سنجار يحاصر اخاه عماد الدين بقصد أخذها منه ودخوله في طاعته وكان قد أظهر أخوه الانتماء الى السلطان واعتصم بذلك واشتد سيف الدين في حصار المكان وضر به بالمنجنيق حتى انهدم من سوره ثلم كثيرة وأشرف على الأخذ فبلغه وقوع هذه الوقعة فخاف أن يبلغ ذلك أخاه فيشتد أمره فراسله الى الصلح فصالحه ثم سار من وقته الى نصيبين واهتم بجمع العساكر والانفاق فيها وسار حتى أتي الفرات وعبر بالبيرة وخيم على جانب الفرات الشامي وراسل كمشتكين والملك الصالح حتى تستقر قاعدة يصل عليها اليهم ووصل كمشتكين اليه وجرت مراجعات كثيرة وعزم فيها الى العود مرارًا حتى استقر اجتماعه بالملك الصالح وسمحوا به وسار ووصل حلب وخرج الملك الصالح الى لقائه بنفسه فالتقاه قريب القلعة واعتنقه وضمه اليه وبكى ثم أمره بالعود الى القلعة فعاد اليها وسار هو حتى نزل بعين المباركة وأقام بها مدة وعسكر حلب يخرج الى خدمته في كل يوم وصعد القلعة جريدة وأكل فيها خبزًا ونزل وسار راحلا الى تل السلطان ومعه الديار البكرية وجمع كثير والسلطان قد أنفذ في طلب العساكر من مصر وهو يترقب وصولها وهؤلاء يتأخرون في أمورهم وتدابيرهم وهم لا يشعرون أن في التأخير تدبيرا حتى وصل عسكر مصر فسار رحمه الله حتى أتي قرون حماه فبلغهم انه قارب عسكره فأخرجوا اليزك وجهزوا من يكشف الاخبار فوجدوه قد وصل جريدة الي جناب التركمان وتفرق عسكره يسقى فلو أراد الله نصرتهم لقصدوه في تلك الساعة ولكن ليقضي الله أمرًا كان مفعولا فصبروا عليه حتى سقي خيله هو وعسكره واجتمعوا وتعبوا تعبية القتال وأصبح القوم على مصاف وذلك في بكرة الخميس العاشر من شوال سنة احدى وسبعين فالتقى العسكران وتصادما وجري قتال عظيم وانكسرت ميسرة السلطان بابن زين الدين مظفر الدين فانه كان في ميمنة سيف الدين وحمل السلطان

عليه بنفسه فانكسر القوم وأسر منهم جمعاً عظيما من كبار الامراء منهم فخر الدين عبد المسيح فمن عليهم وأطلقهم وعاد سيف الدين الى حلب المحروسة فأخذ منها خزانة وسار حتى عبر الفرات وعاد الى بلاده وأمسك هو رحمه الله عن تتبع العسكر ونزل في بقية ذلك اليوم في خيام القوم فانهم كانوا قد أبقوا الثقل على ما كان عليه والمطابخ قد عملت ففرق الاصطبلات ووهب الخزائن وأعطى خيمة سيف الدين لعز الدين فخروشاه وسار الى منبج وتسلمها في بقية الشهر المذكور . وسار حتى نزل على قلعة اعزاز يحاصرها وذلك في رابع ذي القعدة سنة احدى وسبعين وعليها وثب الاسماعيلية عليه فنجاه الله من كيدهم وظفر بهم ولم يفل ذلك عزمه وأقام عليها حتى أخذها وذلك في رابع عشر ذى الحجة من السنة وسار حتى نزل على حلب في سادس عشر منه فأقام مدة ثم سار عنها فأخرجوا اليه ابنة لنور الدين صغيرة وسألت منه اعزاز فوهبها اياها * وفي بقية الشهر أيضاً وصل شمس الدولة أخوه من اليمن الى دمشق وأقام بها مدة ثم عاد الى الديار المصرية وتوفي باسكندرية مستهل صفر سنة ست وسبعين * ثم ان السلطان عاد الى الديار المصرية ليتفقد أحوالها ويقرر قواعدها وكان مسيره اليها في ربيع الاول من شهور سنة اثنتين وسبعين واستخلف أخاه شمس الدولة بدمشق فأقام رحمه الله بها يقرر قواعدها ويسد خللها وأراح العسكر ثم تأهب للغزاة وخرج يطلب الساحل حتى وافى الافرنج على الرملة وذلك في أوائل جمادي الاولى سنة ثلاث وسبعين

﴿ ذكر كسرة الرملة ﴾

وكان مقدم الافرنج البرنس أرناط وكان قد بيع بحلب فانه كان أسيراً بها من زمن نور الدين وجرى خلل في ذلك اليوم على المسلمين . ولقد حكى السلطان صورة الكسرة في ذلك اليوم وذلك أن المسلمين كانوا قد تعبوا تعبية القتال ولما قرب العدو رأى بعض الجماعة أن تعبر الميمنة الى جهة الميسرة والميسرة الى جهة الميمنة ليكونوا حالة اللقاء وراء ظهورهم تل معروف بأرض الرملة فبينما اشتغلوا بهذه التعبية هجم الافرنج

وقدر الله كسرتهم فانكسروا كسرة عظيمة ولم يكن لهم حصن قريب يأوون اليه فطلبوا جهة الديار المصرية وضلوا في الطريق وتبددوا وأسر منهم جماعة منهم الفقيه عيسى وكان وهنا عظيما جبره الله بوقعة حطين المشهورة ولله الحمد *

وأما الملك الصالح فانه تخبط أمره وقبض على كمشتكين صاحب دولته وطلب منه تسليم حارم اليه فلم يفعل فقتله . ولما سمع الافرنج بقتله نزلوا على حارم طمعاً فيها وذلك في جمادي الآخرة سنة ثلاث وسبعين وقابل عسكر الملك الصالح العساكر الافرنجية * ولما رأى أهل القلعة خطرها من جانب الافرنج سلموها الى الملك الصالح في العشر الاواخر من شهر رمضان من السنة المذكورة

ولما علم الافرنج ذلك رحلوا عن حارم طالبين بلادهم ثم عاد الملك الصالح الى حلب ولم يزل أصحابه على اختلاف يميل بعضهم الى جانب السلطان حتى بلغه عصيان عز الدين قليج بتل خالد فأخرج اليه العسكر وذلك في عاشر المحرم سنة ست وسبعين ثم بلغه وفاة ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل وكانت وفاته في ثالث صفر من هذه السنة وولي مكانه أخوه عز الدين مسعود في الخامس منه وكانت وفاة شمس الدولة بالاسكندرية

﴿ ذكر عود السلطان الى الشام ﴾

ولما عاد السلطان بعد الكسرة الى الديار المصرية وأقام بها ريثما لم الناس شعثهم وعلم بتخبط الشام عزم على العود اليه وكان عوده للغزاة فوصلة رسول قليج أرسلان يلتمس من السلطان الموافقة و يستغيث اليه من الارمن فاستقل نحو ابن لاون لنصرة قليج أرسلان ونزل بقره حصار وأخذ عسكر حلب في خدمته لانه قد اشترط في الصلح فاجتمعوا على النهر الازرق بين بهنسة وحصن منصور وعبر منه الى النهر الاسود وطرف بلاد ابن لاون وأخذ منهم حصناً وأخربه و بذلوا له أسارى والتمسوا منه الصلح وعاد عنه ثم راسله قليج أرسلان في صلح الشرقيين بأسرهم واستقر الصلح وحلف السلطان في عاشر جمادي الاولى سنة ست وسبعين ودخل في الصلح قليج أرسلان والمواصلة

وديار بكر وكان ذلك على نهر سبخة سنجة وهو نهر يرمي الى الفرات وسار السلطان نحو دمشق

﴿ ذكر وفاة الملك الصالح ووصول عز الدين الى حلب ﴾

وفي سنة سبع وسبعين مرض الملك الصالح بالقولنج وكان أول مرضه في تاسع رجب وفي ثالث عشر منه غلق باب القلعة لشدة مرضه واستدعي الامراء واحداً واحداً وحلفوا لعز الدين صاحب الموصل وفي الخامس والعشرين منه توفى رحمه الله وكان لموته وقع عظيم في قلوب الناس * ولما توفى سارعوا الى اعلام عز الدين مسعود ابن قطب الدين بذلك واعلامه بما جرى له من الوصية اليه وتحليف الناس له فسارع سائرًا الى حلب مبادرًا خوفًا من السلطان وكان أول قادم من أمرائه الى حلب مظفر الدين ابن زين الدين وصاحب سروج ووصل معهما من حلف جميع الامراء له وكان وصولهم في ثالث شعبان من السنة المذكورة . وفي العشرين منه وصل عز الدين الى حلب وصعد القلعة واستولى على خزائنها وذخائرها وتزوج أم الملك الصالح خامس شوال من السنة المذكورة *

﴿ ذكر مقايضة عز الدين أخاه عماد الدين بالبلاد ﴾

ثم أقام عز الدين بقلعة حلب الى سادس عشر شوّال وعلم انه لايمكنه حفظ الشام مع الموصل لحاجته الى ملازمة الشام لاجل السلطان وألح عليه الامراء في طلب الزيادات ورأوا أنفسهم انهم قد اختاروه وضاق عطنه وكان صاحب أمره مجاهد الدين قايماز وكان ضيق العطن لم يعتد بمقاساة أمراء الشام فرحل من قلعة حلب طالبًا للرقة وخلف ولده ومظفر الدين بها وسار حتى أتي الرقة ولقيه أخوه عماد الدين عن قرار بينهم واستقر مقايضة حلب بسنجار وحلف عز الدين لاخيه على ذلك في الحادي عشر من شوال وسار من جانب عماد الدين من تسلم حلب ومن جانب عز الدين من تسلم سنجار وفي ثالث عشر محرم سنه ثمان وسبعين صعد عماد الدين الى قلعة حلب

﴿ذكر عود السلطان من مصر﴾

وأما السلطان فانه لما وقع الصلح على قليج أرسلان صعد الى الديار المصرية واستخلف بن أخيه عز الدين فخر وشاه واليًا ولما بلغه وفاة الملك الصالح عزم على الشام خوفًا على البلاد من الافرنج و بلغه أيضًا وفاة فخر وشاه فاشتد عزمه. وكان وصوله الى دمشق في سابع عشر صفر سنة ثمان وسبعين ثم أنشأ التأهب لغزاة بيروت فانه عبر على الافرنج في عوده من مصر مكابرة من غير صلح فقصد بيروت ونزلها ولم ينل منها غرضًا واجتمع الافرنج فرحلوه عنها ودخل الى دمشق وبلغه أن رسل الموصل وصلوا الى الافرنج يحثونهم على قتال المسلمين فعلم أنهم نكثوا اليمين وأنشأ العزم على قصدهم لجمع كلمة العساكر الاسلامية على عدو الله فأخذ في التأهب لذلك فلما بلغ ذلك عماد الدين سير الى الموصل يشعره بالخبر ويستحث العساكر وسار السلطان حتى نزل على حلب في ثامن عشر جمادى الاولى من هذه السنة وأقام ثلاثة أيام ورحل في الحادي والعشرين يطلب الغزاة واستقر الحال بينه و بين مظفر الدين وكان صاحب حران وكان قد استوحش من جانب الموصل وخاف من مجاهد الدين فالتجأ الى السلطان وعبر الى قاطع الفرات وقوى عزمه على البلاد وسهل أمرها عنده ودخل الرها والرقة ونصيبين وسروج ثم شحن على الخابور واقطعه *

﴿ذكر نزوله على الموصل﴾

وكان نزوله عليه في هذه الوقعة في يوم الخميس حادي عشر شهر رجب وكنت اذ ذاك في الموصل فسيرت رسولاً الى بغداد قبيلاً بأيام قلائل فسرت مسرعًا في الدجلة وأتيت بغداد في يومين وساعتين من اليوم الثالث مستنجدًا بهم فلم يحصل منهم سوى الانفاذ الى شيخ الشيوخ وكان في صحبته رسول من جانبهم يأمرنه بالحديث معه ويتلطف الحال معه و يسير الى بهلوان رسولاً من الموصل يستنجدونه فلم يحصل من جانبه سوى شرط كان الدخول تحته أخطر من حرب السلطان ثم أقام السلطان

على الموصل أياماً وعلم انه بلد عظيم لا يتحصل منه شيء بالمحاصرة على هذا الوجه ورأى أن طريق أخذه أخذ قلاعه وما حوله من البلاد واضعافه بطول الزمان فرحل عنها ونزل على سنجار في سادس عشر شعبان وأقام يحاصرها وكان فيها شرف الدين بن قطب الدين وجماعة واشتد عليه الامر حتى كان ثاني شهر رمضان فأخذها عنوة وخرج شرف الدين وجماعته محترمين محفوظين الى الموصل وأعطاها ابن أخيه تقي الدين ورحل عنها الى نصيبين

﴿ذكر قصة شاه أرمن صاحب خلاط﴾

وذلك أن أصحاب الموصل أنفذوا اليه واستجدوا به وطرحوا أنفسهم عليه فخرج من خلاط لنصرتهم ونزل بحرزم وسير الى عز الدين صاحب الموصل أعلمه فخرج اليه وذلك في الخامس عشر من شوال فسار حتى اجتمع به صاحب ماردين ووصل جماعة من عسكر حلب كل ذلك للقاء السلطان وأرسل شاه أرمن بكتمر الى السلطان يخاطبه في الصلح توسط شيخ الشيوخ فلم ينتظم بينهم حال ورحل السلطان الى عسكر شاه أرمن فلما سمع شاه أرمن بوصول السلطان ولى راجعاً الى بلاده وعاد عز الدين الى بلاده وتفرقوا وسار السلطان يطلب بلد آمد فنزل عليها وقاتلها وأخذها في ثمانية أيام وذلك في أول محرم سنة تسع وسبعين وأعطاها نور الدين بن قره أرسلان . ومنّ على ابن نيسان بجميع ما كان فيها من الاموال وغيرها ثم سار يطلب الشام لقصد حلب . وفي هذه المدة خرج عماد الدين وخرب قلعة اعزاز وخرب حصن كفر لاثا وأخذها من بكتمر فانه كان قد صار مع السلطان في الثاني والعشرين من جمادي الاولى من السنة المذكورة وقاتل باشر وكان صاحبها ولد رم البار وقد صار مع السلطان فلم يقدر عليها وجرت غارات من الافرنج في البلاد بحكم اختلاف العساكر ودفعهم الله تعالى وتسلم الكرزين ثم عاد الى حلب

﴿ ذكر عود السلطان الى الشام ﴾

ولما عاد الى الشام بدأ بتل خالد فنزل عليها وقاتلها وأخذها في الثاني والعشرين من محرم سنة تسع وسبعين ثم سار طالباً حلب فنزل عليها في السادس والعشرين وكان أول نزوله بالميدان الاخضر واستدعى العساكر من الجوانب واجتمع خلق عظيم وقاتلها قتالاً شديداً وتحقق عماد الدين انه ليس له قبل وكان قد ضرس من اقتراح الامراء وجبهم فاشار الى حسام الدين طمان ان يسفر له مع السلطان في اعادة بلاده وتسلم حلب اليه واستقرت القاعدة ولم يشعر أحد من الرعية ولا من العساكر حتى تمّ الامر واستحكمت القاعدة واستفاض ذلك واستعلم العسكر منه ذلك فاعلمهم وأذن في تدبير أنفسهم وأنفذوا عنهم وعن الرعية عزالدين جرديك النوري وزين الدين فقعدوا عنده الى الليل واستحلفوه على العسكر وعلى أهل البلد وذلك في السابع عشر من صفر وخرجت العساكر الى خدمته الى الميدان الاخضر ومقدموحلب وخلع عليهم وطيب قلوبهم وأقام عماد الدين بالقلعة يقضي أشغاله و ينقل أقمشته وخزائنه والسلطان مقيم بالميدان الاخضر الى السادس والعشرين من صفر وفيه توفي تاج الملوك أخوه من جرح كان أصابه وشق عليه أمر موته وجلس للعزاء وفي ذلك اليوم نزل عماد الدين الى خدمته وعزاه وتقررت بينهما قواعد وأنزلهم السلطان في الخيمة وقدم له تقدمة سنيه وخيالاً جميلة وخلع على جماعة من أصحابه . وصار عماد الدين من يومه الى قرار حصار سائراً الى سنجاب وصعد السلطان قلعة حلب مسروراً منصوراً . وعمل له حسام الدين طمان دعوة سنية وكان قد تخلف لاخذ ما تخلف لعماد الدين من قماس وغيره وكان قد أنفذ الى حارم من يستلمها ودافعهم الموالي وانفذ الاجناد الذين بها يستحلفونه لخلف لهم وسار من وقته الى حارم فوصلها في التاسع والعشرين من صفر وتسلمها و بات بها ليلتين وقرر قواعدها وولى فيها ابراهيم ابن شرده وعاد الى حلب ودخلها في ثالث ربيع الاول ثم أعطى العساكر دستوراً وسار كل منهم الى بلاده وأقام يقرر قواعد حلب و يدبر أمورها

﴿ ذكر غزاة عين جالوت ﴾

ولم يقم في حلب الا الى الثاني والعشرين من ربيع الآخر وأنشأ عزماً الى الغزاة فخرج في ذلك اليوم مبرزا نحو دمشق واستنهض العساكر فخرجوا يتبعونه ولم يزل يواصل بين المنازل حتى دخل دمشق في ثالث جمادي الاولى فأقام بها متأهباً الى السابع والعشرين منه ثم برز في ذلك اليوم ونزل على جسر الخشب وتبعته العساكر مبرزة فأقام به تسعة أيام ثم رحل في ثامن جمادي الآخرة وسار حتى أتى الفؤاد وتعبى فيه للحرب وسار حتى نزل القصير فبات به وأصبح على المخاض وعبر وسار حتى أتى بيسان فوجد أهلها قد رحلوا عنها وتركوا ما كان من ثقيل الاقمشة والغلال والامتعة بها فنهبها معسكر وغنموا وحرقوا ما لم يمكن أخذه وسار حتى أتى الجالوت وهي قرية عامرة وعندها عين جارية فخيم بها وكان قد قدم عز الدين جرديك وجماعة من المماليك النورية وجاولى مملوك أسد الدين حتى يكشفوا خبر الافرنج فاتفق انهم صادفوا عسكر الكرك والشوبك سائرين نجدة للافرنج فوقع أصحابنا عليهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا منهم زهاء مائة نفر وعادوا ولم يفقد من المسلمين سوى شخص واحد يدعى بهرام الشاووش فوصل اليه في بقية يوم الكسرة وهو العاشر من جمادي الآخرة فاستبشر المسلمون بالنصر والظفر ولما كان السبت حادي عشر وصل الخبر اليه ان الافرنج قد اجتمعوا في صفورية فرحلوا الى الفولة وهي قرية معروفة وكان غرضه المصاف فلما سمع بذلك تعبى للقاء ورتب الاطلاب ميمنة وميسرة وقلباً وسار للقاء العدو وسار الافرنج طالبين المسلمين ووقعت العين في العين وأخرج السلطان الجاليش خمسمائة رجل معروفة فوافقوا الافرنج وجرى قتال عظيم وقتل من العدو جماعة وهم ينضم بعضهم الى بعض يحمي راجلهم فارسهم ولم يخرجوا للمصاف ولم يزالوا سائرين حتى أتوا العين ونزلوا عليها ونزل السلطان حولهم والقتل والجرح يعمل فيهم ليخرجوا الى المصاف وهم لا يخرجون لخوفهم من المسلمين فانهم في كسرة عظيمة ولما رأى انهم لم يخرجوا رأى الانتزاح عنهم لعلهم يرحلون فيضرب معهم مصاف فرحل

نحو الطور وذلك في السابع عشر من هـذا الشهر فنزل تحت الجبل مترقباً رحيلهم ليأخذ منهم فرصة وأصبح الافرنج في الثامن عشر راحلين راجعين على أعقابهم ناكصين فرحل رحمه الله نحوهم وجرى من رمي النشاب واستنهاضهم للمصاف أمور عظيمة فلم يخرجوا ولم يزل المسلمون حولهم حتى نزلوا الفولة المقدم ذكرها راجعين الى بلادهم فلما رأى المسلمون ذلك اجتمعوا على السلطان وأشاروا بالعود لفراغ زادهم وكان قد نال منهم بالقتل والاسر وخربت عفر بلا وقلعة بيسان وزرعين وهي من حصونهم المذكورة وخربت عليهم قرى عديدة فعاد منصورا مظفرا مسرورا حتى نزل الفوار وأعطى الناس دستورا من أثر المسير ثم سار هو حتى أتى دمشق فدخلها فرحاً مسرورا في يوم الخميس الرابع والعشرين من هذا الشهر . فانظر الى هذه الهمة التي لم يشغلها عن الغزاة أخذ حلب ولا الظفر بها بل كان غرضه الاستعانة بالبلاد على الجهاد فالله يحسن جزاءه في الآخرة كما وفقه للاعمال المرضية في الدنيا

﴿ ذكر غزاة انشأها الى الكرك ﴾

ثم انه أقام بدمشق الى ثالث رجب سنة تسع وسبعين وخرج مرارًا نحو الكرك وكان قد سير الى الملك العادل وهو بمصر يتقدم اليه بالاجتماع به على الكرك فبلغه خبر حركته من مصر فخرج للقائه وسار حتى أتى الكرك ووافاه الملك العادل عليها وقد خرج معه خلق عظيم من تاجر وغير تاجر وذلك رابع شعبان من هذه السنة وكان قد بلغ الافرنج خبر خروجه فساروا براجلهم وفارسهم نحو الكرك للدفع عنه ولما انتهى ذلك اليه سير الملك المظفر تقي الدين الى مصر وذلك في خامس عشر شعبان . وفي السادس عشر منه نزلت الافرنج على الكرك وتزحزح السلطان عنه بعد أن قاتله قتالا عظيما وعليه قتل شرف الدين برغش النوري شهيداً

﴿ ذكر اعطائه اخاه الملك العادل حلب ﴾

ثم رحل السلطان مستصحباً أخاه الملك العادل معه الى دمشق لاياسه عن

الكرك بعد نزول الافرنج عليها فدخل دمشق في الرابع والعشرين من شعبان وأعطى أخاه الملك العادل حلب بعد مقامه بدمشق الى ثاني يوم من شهر رمضان وكان بها ولده الملك الظاهر ومعه سيف الدين يازكج يدبر أمره وابن العميد في البلد . وكان الملك الظاهر من أحب الاولاد الى قلبه لما قد خصه الله به من الشهامة والفطنة والعقل وحسن السمت والشغف بالملك وظهور ذلك كله وكان أبر الناس بوالده وأطوعهم له ولكن أخذ منه حلب لمصلحة رآها فخرج من حلب لما دخل الملك العادل هو و يازكج سائرين الى خدمة السلطان فدفع دمشق الثامن عشر من شوال فأقام في خدمة أبيه لا يظهر له الا الطاعة والانقياد مع انكسار في باطنه لا يخفى عن نظر والده وفي ذلك الشهر وردنا على السلطان رسلا من جانب الموصل وكنا قد توسلنا الى الخليفة الناصر لدين الله في انفاذ شيخ الشيوخ بدر الدين رسولا وشفيعا الى السلطان فسيره معنا من بغداد وكان غزير المروءة عظيم الحرمة في دولة الخليفة وفي سائر البلاد وكانت مكانته عند السلطان بحيث يتردد اليه اذا كان عنده في معظم الايام

﴿ ذكر وصولنا الى خدمته رسلاً ﴾

وكان الشيخ قد وصل الى الموصل وسار منها في صحبة القاضي محيي الدين بن كمال الدين وكان بينهم صحبة من الصبا وكنت مع القوم وسرنا حتى أتينا دمشق وخرج السلطان الى لقاء الشيخ ونحن في خدمته فلقيه عن بعد وكان دخولنا الى دمشق يوم السبت حادي عشر ذي القعدة من هذه السنة ولقينا من السلطان كل جميل فيما يرجع الى الاكرام والاحترام وأقمنا أياما نراجع في فصل حال فلم يتفق صلح في الوقعة وخرجنا راجعين الى الموصل وخرج السلطان الى وداع الشيخ الى القصر واجتهدوا في ذلك اليوم أن ينقضي شغل فلم يتفق * وكان الوقوف من جانب محيي الدين . فان السلطان اشترط أن يكون صاحبا أربل والجزيرة على خيرتهما في الانتماء اليه أو الى الموصل فقال محيي الدين لابد من ذكرهما في النسخة فوقف الحال . وكان مسيرنا سابع ذي الحجة وفي تلك الدفعة عرض على السلطان موضع

اليها الدمشقي بمصر على لسان الشيخ فاعتذرت ولم أفصل خوفاً من أن يحال بوقف الحال عليّ ومن تلك الدفعة ثبت في نفسه الشريفة مني أمر لا أعرفه الا بمدخدمتي له وأقام السلطان بدمشق ترد عليه الرسل من الجوانب فوصل رسول سنجر شاه صاحب الجزيرة فاستحلفه لنفسه في الانتماء اليه ورسول اربل وحلف لهما وسار. ووصل اليه أخوه الملك العادل رابع ذي الحجة فقام عنده وعيد وتوجه الى حلب المحروسة

﴿ ذكر غزاة أخري الى الكرك ﴾

وصل ابن قره أرسلان نور الدين الى حلب ثامن عشر صفر سنة ثمانين فاكرمه الملك العادل اكراماً عظيماً وأصعده الى القلعة وباسطة ورحل معه طالباً دمشق في السادس والعشرين منه . وكان السلطان قد مرض أياماً ثم شفاه الله * ولما بلغه وصول قره أرسلان خرج الى لقائه وكان السلطان يكارم الناس مكارمة عظيمة فالتقاه على عين الجسر بالبقاع وذلك في تاسع ربيع الاولي ثم عاد الى دمشق وخاف نور الدين وأصلا مع الملك العادل فتأهب للغزاة وخرج مبرزاً الى جسر الخشب في منتصف ربيع الاول وفي الرابع والعسرين منه وصل الملك العادل ومعه بن قره أرسلان الى دمشق فأقاما بها أياماً ثم رحلا يلتحقان بالسلطان من رأس الماء طالباً للكرك فأقام قريباً منها أياماً ينتظر وصول الملك المظفر من مصر الى تاسع عشر ربيع الآخر فوصل الى خدمته ومعه بيت الملك العادل وخزانته فسيرهم الى الملك العادل وتقدم اليه والى بقية العساكر بالوصول اليه الى الكرك فتتابعت العساكر الى خدمته حتى أحدقوا بالكرك وذلك في رابع جمادي الاولى وركب المناجيق على المكان وقد التقت العساكر المصرية والشامية والجزرية أيضاً مع قره أرسلان * ولما بلغ الافرنج ذلك خرجوا براجلهم وفارسهم الى الذب عن الكرك وكان على المسلمين منه ضرر عظيم فانه كان يقطع عن قصد مصر بحيث كانت القوافل لا يمكنها الخروج الا مع العساكر الجمة الغفيرة فاهتم السلطان بأمره ليكون الطريق سابلة الى مصر . ولما بلغ السلطان خروج الافرنج تعبأ للقاء وأمر العساكر أن خرجت ظاهر الكرك وسير الثقل نحو البلاد

وبقي العسكر جريدة ثم سار السلطان يقصد العدو . وكان الافرنج قد نزلوا بموضع يقال له الواله وسار حتى نزل على قرية يقال لها حسبان قبالة الافرنج ورحل منها الى موضع يقال له ماء عين والافرنج مقيمون بالواله الى السادس والعشرين من جمادي الاولى ثم رحلوا قاصدين الكرك فسار بعض العساكر وراءهم فقاتلهم الى آخر النهار . ولما رأى قدس الله روحه تصميم الافرنج على الكرك أمر العساكر ان دخلوا الساحل لخلوه عن العساكر فهجموا نابلس ونهبوها وغنموا ما فيها ولم يبق فيها الا حصناها وأخذوا جانين والتحقوا بالسلطان برأس الماء وقد نهبوا وأسروا وأحرقوا وخربوا واتفق دخول السلطان دمشق يوم السبت سابع جمادى الاخرى ومعه الملك العادل ونور الدين بن قره أرسلان فرحاً مسروراً واكرمه وأحترمه وأحسن اليه . وفي هذا الشهر وصل رسول الخليفة ومعه الخلع فلبسها السلطان وألبس أخاه الملك العادل وابن أسد الدين خلعاً جاءت لهم . وفي الرابع عشر من هذا الشهر خلع السلطان خلعة الخليفة على ابن قره أرسلان وأعطاه دستوراً وأعطاه العساكر وفي هذا التاريخ وصلت رسل ابن زين الدين مستصرخاً الى السلطان يخبرأن عسكر الموصل وعسكر قزل نزلوا مع مجاهد الدين قايماز على أربل وانهم نهبوا وأحرقوا وأنه نصر عليهم وكسرهم

﴿ ذكر خروج السلطان الي جهة الموصل في الوقعة الثانية ﴾

ولما سمع السلطان ذلك رحل من دمشق يطلب البلاد وتقدم الى العساكر فتبعته وسار حتى أتي حران على طريق البيرة والتقى مع مظفر الدين بالبيرة في الثاني عشر من محرم سنة احدى وثمانين وتقدم السلطان الى سيف الدين المشطوب أن يسير في مقدمة العساكر الى رأس العين ووصل السلطان حران الثاني والعشرين من صفر . وفي السادس والعشرين منه قبض على مظفر الدين بن زين الدين لشيء كان قد جرى منه وحديث كان بلغه عنه رسول فلم يقف عليه وأنكره فأخذ منه قلعة حران والرُّها ثم أقام في الاعتقال تأديباً الى مستهل ربيع الاول ثم خلع عليه وطيب قلبه وأعاد اليه قلعة حران و بلاده التي كانت بيده وأعاده الى قانونه في الاكرام والاحترام

ولم يتخلف له سوى قلعة الرّها ووعده بها ثم رحل السلطان ثاني ربيع الاول الى رأس العين ووصله في ذلك رسول قليج أرسلان يخبره أن ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصد السلطان ان لم يعد عن الموصل وماردين وأنهم على ضرب المصاف معه ان أصر علي ذلك فرحل السلطان يطلب دنيسر فوصله ثامن ربيع الاول عماد الدين بن قره ارسلان ومعه عسكر نور الدين صاحب ماردين فالتقاهم واحترمهم ثم رحل من دنيسر حادي عشر نحو الموصل حتي نزل موضعاً يعرف بالاسماعيلان قريب الموصل بحيث يصل من العسكر كل يوم نوبة جديدة يحاصر الموصل فبلغ عماد الدين بن قره أرسلان موت أخيه نور الدين فطلب من السلطان دستوراً طمعاً في ملك أخيه فأعطاه دستوراً

﴿ ذكر موت شاه ارمن صاحب خلاط ﴾

ولما كان ربيع الآخر سنة احدى وثمانين توفى شاه أرمن صاحب خلاط وولى بعده غلامه بكتمر وهو الذي وصل رسولا الى خدمة السلطان بسنجار فعدل وأحسن الى أهل خلاط وكان متصونا في طريقته فأطاعه الناس ومالوا اليه * ولما ملك خلاط امتدت نحوه الاطماع لموت شاه أرمن فسار نحوه بهلوان بن الدكز * فلما بلغه ذلك سير الى خدمة السلطان من يقرر معه تسليم خلاط اليه واندراجه في جملته واعطائه ما يرضيه فطمع السلطان في خلاط وارتحل عن الموصل متوجهاً نحوها وسير الى بكتمر الفقيه عيسى وغرس الدين قليج لتقرير القاعدة وتحريرها فوصلت الرسل وبهلوان قد قارب البلاد جداً فتخوف بهلوان من السلطان فطلب بهلوان اصلاحه وزوجه ابنة له وولاه وأعاد البلاد اليه واعتـذر الى رسل السلطان وعادوا من غير زبدة * وكان السلطان قد نزل على ميا فارقين لحاصرها وقاتلها قتالا شديداً ونصب عليها مجانيق وكان بها رجل يقال له الأسد وما قصر في حفظها لكن الاقدار لا تغلب فملكها السلطان في التاسع والعشرين من جمادي * ولما أيس من أمر خلاط عاد الى الموصل فنزل بعيداً عنها وهي الوقعة الثالثة بموضع يقال له كفر زمار وكان الحر شديداً فأقام مدة

وفي هذه المنزلة أتاه سنجر شاه من الجزيرة واجتمع به فأعاده الى بلده ومرض رحمه الله بكفر زمار مرضاً شديداً خاف من غائلته فرحل طالباً حران وهو مريض وكان يتجلد ولا يركب محفة فوصل وهو شديد المرض و بلغ الى غاية الضعف وأيس منه ورجف بموته فوصل اليه أخوه من حلب ومعه أطباؤه

﴿ ذكر صلح المواصلة معه ﴾

وكان سبب ذلك ان عز الدين أتابك صاحب الموصل سيرني الى الخليفة يستنجده فلم يحصل منه زبدة فلما وصلت من بغداد ووردت جواب الرسالة أيس من نجدة فلما بلغهم مرض السلطان رأوا ذلك فرصة وعلموا سرعة انقياده ورقة قلبه في ذلك الوقت فندبوني لهذا الامر و بهاء الدين الربيب وفوّض اليّ أمر النسخة التي حلف بها وقالوا امضيا مايصل اليه جهدكما وطاقتكما فسرنا حتى أتينا العسكر والناس كلهم آيسون من السلطان وكان وصولنا في أوائل ذي الحجة فاحترمنا احتراماً عظيماً وجلس لنا وكان أول جلوسه من مرضه وحلف في يوم عرفة وأخذنا منه بين النهرين وكان أخذها من سنجر ساه فأعطاها المواصلة وحلفته يميناً تامة وحلفت أخاه الملك العادل ومات قدس الله روحه وهو على ذلك الصلح لم يتغير عنة وسرنا معه وهو بحران وقد تماثل ووصله خبر موت ابن أسد الدين صاحب حمص وكانت وفاته يوم عرفة وجلس الملك العادل للعزاء * وفي تلك الايام كانت وقعة التركمان مع الاكراد وقتل بينهم خلق عظيم * وفي هذا الشهر وصل خبر وفاة بهلوان ابن الدكز وكانت وفاته في سلخ ذي الحجة

﴿ ذكر عود السلطان الى الشام ﴾

ولما وجد السلطان نشاطا من مرضه رحل يطلب جهة حلب وكان وصوله اليها رابع عشر محرم سنة اثنتين وثمانين وكان يوماً مشهودا لشدة فرح الناس بعاقبته ولقائه فأقام بها أربعة أيام ثم رحل نحو دمشق ولقيه أسد الدين شيركوه محمد شيركوه

بتل السلطان ومعه أخته وقد صحبه خدمة عظيمة فمنّ عليه بحمص وأقام أياماً يعتبر تركة أبيه ثم سار يطلب جهة دمشق وكان دخوله اليها في ثاني ربيع الاول وكان يوماً لم ير مثله فرحاً وسروراً ووقعت في هذا الشهر وقعات كثيرة بين الترك والاكراد بأرض نصيبين وغيرها وقتل من الفئتين خلق عظيم وبلغ السلطان أن معين الدين قد عصا بالراوند فكتب الى عسكر حلب أن حاصروه * وفي ثاني جمادى الاولى وصل معين الدين من الراوند وقد سلمها الى علم الدين سليمان ثم مضى الى خدمة السلطان * وفي سابع عشر وصل الملك الافضل الى دمشق ولم يكن قد رأى قبل ذلك الشام

﴿ ذكر مسير الملك العادل الى مصر ووصول الملك الظاهر الى حلب ﴾

وذلك ان السلطان رأى ذهاب الملك العادل الى مصر فانه كان آنس باحوالها من الملك المظفر ليزيل تقاويضها بذلك وهو على حران مريض وقد حصل ذلك في نفس الملك العادل فانه كان يحب الديار المصرية فلما عاد السلطان الى دمشق ومنّ الله بعافيته سير يطلب الملك العادل الى دمشق فخرج من حلب جريدة في الرابع والعشرين من ربيع الاول وسار حتى أتى دمشق فاقام بها في خدمة السلطان فجرت بينهما أحاديث ومراجعات في قواعد تقرير الى جمادي الآخرة واستقرت القاعدة على عود الملك العادل الى مصر وتسليم حلب وسير الصنيعة لاحضار أهله من حلب وكان الملك الظاهر أيده الله والملك العزيز بدمشق في خدمة والدهما فلما استقرت القاعدة على عود الملك العادل الى مصر استقرت على أن يكون أتابك الملك العزيز وسلمة والده اليه يربي أمره وسلم الملك العادل حلب الى الملك الظاهر * ولقد قال لي الملك العادل انه لما استقرت عليه هذه القاعدة واجتمعت بخدمة الملك العزيز الظاهر وجلست بينهما قلت للملك العزيز يامولاي ان السلطان قد أمرني أن أسير في خدمتك الى مصر وأنا أعلم أن المفسدين كثير وغداً لا يخلون ممن يقول عني ما لا يجوز ويخوفونك مني فان كان لك أذن تسمع فقل لي حتي لا أجئ فقال لا أسمع وكيف

يكون ذلك * ثم التفت وقلت للملك الظاهر أنا أعرف أن أخاك ربما يسمع فيّ أقوال المفسدين وأنا فمالي الا أنت متى ضاق صدري من جانبه فقال مبارك وذكر كل خير * ثم أن الملك الظاهر سيره والده الى حلب ليعلمه أن حلب هي أصل الملك وجرثومته وقاعدته ولهذا دأبت في طلبها ذلك الدأب * ولما جعلت أعرض عما عمدها من بلاد المشرق وقنع منهم بالطاعة والمعونة على الجهاد فسلمها اليه علما منه بحذاقته وحزمه وحفظه وثباته وعلو همته فسار اليها حتى العين المباركة وسير في خدمته الشحنة حسام الدين بشارة وواليا عيسى بن بلاشوا فنزل بعين المباركة وخرج الناس الى لقائه في بكرة تاسع جمادي الاخرى وصعد القلعة ضحوة نهار وفرح الناس به فرحا شديداً ومد على الناس من جناح عدله . وأفاض عليهم وابل فضله * وأما الملك العزيز والملك العادل فان السلطان قرر حالتهما وكتب الى الملك المظفر يخبره بمسير الملك العزيز وهو صحبة عمه ويأمره بالوصول الى الشام وشق ذلك عليه حتي أظهر للناس وعزم على المسير الى ديار الغرب الى برقا فقبح ذلك عليه جماعة من أكابر الدولة وعرفوه ان عمه السلطان يخرج من يده في الحال والله أعلم بما يكون منه بعد ذلك فرأى الحق بعين البصيرة وأجاب بالسمع والطاعة وسلم البلاد ورحل وأصلا الي خدمة السلطان فسار السلطان الى لقائه وفرح بوصوله فرحاً شديداً وذلك في الثالث والعشرين من شعبان وأعطاه حماة . وسار اليها وكان قد عقد بين الملك الظاهر وبعض بنات الملك العادل عقد نكاح فتم ذلك ودخل بها في السادس والعشرين من شهر رمضان ودخل الملك الافضل على زوجته بنت ناصر الدين بن أسد الدين في شوّال من السنة المذكورة المباركة

﴿ ذكر غزاة انشاها الى الكرك ﴾

ولما كان محرم سنة ثلاث وثمانين عزم على قصد الكرك فسير الى حلب من يستحضر العسكر وبرز من دمشق في منتصف محرم فسار حتى نزل بارض نيطرة منتظراً اجتماع العساكر المصرية والشامية وأمر العساكر المتواصلة اليه بشن الغارات على مافي

طريقهم من البلاد الساحلية ففعلوا ذلك وأقام بأرض الكرك حتى وصل الحاج الشامي الى الشام وأمنوا غائلة العدو ووصل ثقل مصر الشتوي ووصل معه بيت الملك المظفر وما كان له بالديار المصرية وتأخرت عنه العساكر الحلبية بسبب اشتغالها بالافرنج بارض الارمن من بلاد ابن لاون وذلك أنه قد مات ملك الافرنج ووصى لابن أخيه بالملك وكان الملك المظفر بحماه وبلغ السلطان الخبر فأمرهم بالدخول الى بلاد العدو واخماد ثائرتهم وسار الملك المظفر بعسكر حلب الى حارم فأقام بها ليعلم العدوّ ان هذا الجانب ليس بمهمل فعاد السلطان الى الشام ونزل بعشترا في السابع عشر من ربيع الاول ولقيه والده الملك الافضل ومظفر الدين ابن زين الدين وجميع العساكر. وكان قد تقدم الى الملك المظفر بمصالحه الجانب الحلبي مع الافرنج ليتفرغ البال مع العدو في جانب واحد فصالحهم في العشر الاواخر من ربيع الاول وتوجه الى حماه يطلب خدمة السلطان للغزاه التي عزم عليها فسار ومن اجتمع به من العساكر الشرقية في خدمته وهم عسكر الموصل مقدمتهم مسعود ابن الزعفراني وعسكر ماردين فلقيهم السلطان في العشر الاوسط من ربيع الآخر فأقرهم وأكرمهم وفي منتصف هذا الشهر عرض السلطان العسكر لامر قد عزم عليه على تل يعرف بتل تسيل تيسل وتقدم الى أصحاب الميمنة بحفظ موضعهم والى أصحاب الميسرة بذلك والى القلب بمثله

﴿ ذكر وقعة حطين المباركة على المؤمنين ﴾

وذلك أن السلطان رأى أن نعمة الله عليه باستقرار قدمه في الملك وتمكين الله أياه في البلاد وانقياد الناس لطاعته ولزومهم قانون خدمته ليس لها شكر سوى الاشتغال ببذل الجهد والاجتهاد الى اقامة قانون الجهاد فسير الى سائر العساكر واستحضرها واجتمعوا اليه بعشترا في التاريخ المذكور وعرضهم ورتبهم واندفع قاصداً نحو بلاد العدو المخذول في نهار الجمعة سابع عشر ربيع الآخر وكان أبدًا يقصد بوقعاته الجمع سيما أوقات صلاة الجمعة تبركا بدعاء الخطباء على المنابر فربما كانت

أقرب الى الاجابة فسار في ذلك الوقت على تعبية الحرب وكان بلغه أن العدوّ لما بلغهم انه قد جمع العساكر اجتمعوا بأسرهم في مرج صفورية بارض عكا وقصدوا نحو المصاف معهم فسار ونزل من يومه على بحيرة طبرية عند قرية تسمى الصبيرة ورحل من هناك ونزل غربي طبرية على سطح الجبل بتعبية الحرب منتظرًا أن الافرنج اذا بلغهم ذلك قصدوه فلم يتحركوا من منزلهم وكان نزوله في هذه المنزلة يوم الاربعاء الحادي والعشرين فلما رآهم لا يتحركون نزل جريدة على طبريه وترك الاطلاب بحالها قبالة وجه العدو ونازل طبرية وزحف عليها فهجمها وأخذها في ساعة من نهار وامتدت الايدي اليها بالنهب والاسر والحريق والقتل واحتمت القلعة وحدها . ولما بلغ العدو ما جرى على طبرية ولم يأخذهم الصبر دون اجابة الحمية فرحلوا من وقتهم وساعتهم وقصدوا طبرية للدفع عنها فأخبرت الطلائع الاسلامية الامراء بحركة الافرنج فسيروا الى السلطان من عرفه ذلك فترك على طبرية من يحفظ قلعتها ولحق العسكر هو ومن معه فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها وذلك في أواخر الخميس الثاني والعشرين وحال الليل بين الفئتين فتباتيا على مصاف شاكي السلاح الى صبيحة الجمعة في الثالث والعشرين فركب العسكران وتصادما وعملت الجاليشية وتحركت الاطلاب والتحم القتال واشتد الامر وذلك بارض قرية تسمى اللوبيا وضاق الخناق بالقوم هذا وهم سائرون كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون * وقد أيقنوا بالويل والثبور * وأحست أنفسهم أنهم في غد زوار القبور * ولم يزل الحرب يلتهم * والفارس مع قرنه يصطدم * حتى لم يبق الا الظفر * ووقع الوبال على من كفر * فحال بينهما الليل وظلامه وجرى في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة . والامور الجسيمة . ما لم يحك عمن تقدم وبات كل فريق في سلاحه ينتظر خصمه في كل ساعة وقد أقعده التعب عن النهوض * وشغله النصب عن الحبو فضلا عن الركوض . حتى كان صباح السبت الذي بورك فيه فطلب كل من الفريقين مقامه وعلمت كل طائفة أن المكسورة بينهما مدحورة الجنس معدومة النفس . وتحقق المسلمون أن من ورائهم الاردن ومن بين أيديهم بلاد القوم وان لا ينجيهم الا الله

تعالى وكان الله قد قدر نصر المؤمنين و يسره * واجراه على وفق ما قدره * فحملت الاطلاب الاسلامية من الجوانب وحمل القلب وصاحوا صيحة الرجل لواحد فالقى الله الرعب في قلوب الكافرين . وكان حقاً علينا نصر المؤمنين * وكان القومص ذكى القوم وأطفاهم فرأى أمارات الخذلان قد نزلت بأهل دينه ولم يشغله ظن محاسنة حبسه عن تعبية [1] فهرب في أوائل الامر قبل اشتداده وأخذ طريقه نحو صور وتبعه جماعة من المسلمين فنجا وحده . وأمن الاسلام كيده واحتاط أهل الاسلام بأهل الكفر والطغيان من كل جانب وأطاقوا عليهم السهام وعاملوهم بالصفاح وانهزمت منهم طائفة فتبعها أبطال المسلمين فلم ينج منها واحد واعتصمت الطائفة الاخرى بتل يقال له تل حطين وهي قرية عنده وعندها قبر شعيب عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الانبياء فضايقهم المسلمون على التل وأشعلوا حواليهم النيران وقتلهم العطش وضاق بهم الامر حتى كانوا يستسلمون للاسر خوفاً من القتل فأسر مقدموهم وقتل الباقون وأسروا وكان فيمن سلم وأسر من مقدميهم الملك جفري والبرنس أرناط وأخو الملك والبرنس هو صاحب الشوبك وابن الهنفري وابن صاحب طبرية ومقدم الداوية وصاحب جبيل ومقدم الاسبتار وأما الباقون من المقدمين فانهم قتلوا وأما الادوان فانهم قسموا الى قتيل وأسير ولم يسلم منهم الا من أسر وكان الواحد العظيم منهم يخلد الى الاسر خوفاً على نفسه ولقد حكى لي من أثق به انه لقي بحوران شخصاً واحداً معه طنب خيمة فيه نيف وثلاثون أسيراً أخذهم وحده لخذلان وقع عليهم * فأما الذين بقوا من مقدميهم فنذكر حديثهم * أما القومص الذي هرب فانه وصل الى طرابلس وأصابته ذات الجنب فاهلكه الله بها . وأما مقدم الاسبتار والداوية فان السلطان اختار قتلهم فقتلوا عن بكرة أبيهم . وأما البرنس أرناط فكان السلطان قد نذر أنه اذا ظفر به قتله وذلك أنه كان عبر به بالشوبك قافلة من الديار المصرية في حالة الصلح فنزلوا عنده بالامان فغدر بهم وقتلهم فناشدوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي صلى الله عليه وسلم وبلغ ذلك السلطان

(١) هكذا في الاصل

لحمله الدين والحمية على انه نذر ان ظفر به قتله . ولما فتح الله بالنصر والظفر جلس السلطان في دهليز الخيمة فانها لم تكن نصبت والناس يتقربون اليه بالاسرى ومن وجدوه من المقدمين ونصبت الخيمة وجلس فرحاً مسروراً لما أنعم الله به عليه ثم استحضر الملك جفري وأخاه والبرنس أرناط وناول الملك جفري شربة من حلاب بثلج فشرب منها وكان على أشد حال من العطش ثم ناول بعضها البرنس أرناط فقال السلطان للترجمان قل للملك أنت الذي سقيته وأما أنا فما سقيته وكان على عادة جميل العرب وكريم أخلاقهم أن الاسير اذا أكل أو شرب من ماء لمن أسره أمن بذلك جرياً على مكارم الاخلاق ثم أمرهم بسيرهم الى موضع عين لنزولهم فمضوا وأكلوا شيئاً ثم عادوا فاستحضرهم ولم يبق عنده سوى بعض الخدم وأقعد الملك في الدهليز واستحضر البرنس أرناط وأوقفه على ماقال وقال له ها أنا أنتصر لمحمد عليه الصلاة والسلام ثم عرض عليه الاسلام فلم يفعل ثم سل النمجاة وضربه بها فحل كتفه وتم عليه من حضر وعجل الله بروحه الى النار فأخذ ورمي على باب الخيمة فلما رآه الملك قد خرج به على تلك الصورة لم يشك أنه يثني به فاستحضره وطيب قلبه وقال لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك * وأما هذا فانه تجاوز حده فجرى ماجرى * وبات الناس في تلك الليلة على أتم سرور . وأكمل حبور . ترتفع أصواتهم بالحمد لله والشكر له والتكبير والتهليل حتى طلع الصبح في يوم الاحد وتسلم قدس الله روحه في بقية ذلك اليوم قلعة طبرية وأقام بها الى يوم الثلاثاء * ثم رحل طالباً عكا وكان نزوله عليها يوم الاربعاء سلخ ربيع الآخر وقاتلها يوم الخميس مستهل جمادي الاولى فأخذ واستنقذ من كان فيها من الاسارى وكانوا زهاء أربعة آلاف نفر واستولى على مافيها من الاموال والذخائر والبضائع والمتاجر فانها كانت مظنة التجار وتفرقت العساكر في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع والاماكن المنيعة وأخذوا نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرة وكان ذلك لخلوها عن الرجال بالقتل والاسر * ولما استقرت قواعد عكا واقتسم الغانمون أموالها وأساراها سار يطلب تبنين فنزل عليها يوم الاحد ثاني عشر جمادي الاولى وهي قلعة منيعة فنصب عليها

المناجيق وضيق عليهـا بالزحف الخناق وكان بها رجال أبطال شديدون في دينهم فاحتاجوا الى معاناة شديدة ونصره الله عليهم وتسلمها ثامن عشر عنوة وأسر من بقي بها بعد القتل ثم رحل منها الى صيدا فنزل عليها ومن الغد تسلمها وأقام عليها بحيث قرر قاعدتها * ثم سار حتى أتى بيروت فنازلها في الثاني والعشرين فركب عليها القتال والزحف وضيق عليهم الامر حتى أخـذها في التاسع والعشرين وتسلم أصحابه جبيلا وهو على بيروت * ولما فرغ باله من هذا الجانب رأى قصد عسقلان ولم ير الاشتغال بصور بعد ان نزل عليها ومارسها لان العسكر كان قد تفرق في الساحل وذهب كل انسان يأخـذ لنفسه شيئاً وكانوا قد ضرسوا من القتال وملازمة الحرب وكان قد اجتمع في صور كل أفرنجي بقي في الساحل فرأى قصد عسقلان لان أمرها كان أيسر ونازلها في السادس والعشرين من جمادي الآخرة وتسلم في طريقه مواضـع كثيرة كالرملة و يبنا والدارون وأقام عليها المنجنيقات وقاتلها قتالاً شديداً وتسلمها سلخ هذا الشهر وأقام عليها الى ان تسلم أصحابه غزة و بيت جبرين والنطرون بغير قتال وكان بين فتوح عسقلان وأخـذ الافرنج لها من المسلمين خمسة وثلاثون سنة فان العدو ملكها في سبعة وعشرين من جمادي الاخرى سـنة ثمان وأربعين وخمسمائة .

ذكر فتوح القدس الشريف حرسها الله تعالى

ولما تسلم عسقلان والاماكن المحيطة بالقدس شمر عن ساق الجـد والاجتهاد في قصده واجتمعت عليـه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل بعد انقضاء لبانتها من النهب والغارة فسار نحوه معتمداً على الله مفوضاً أمره اليـه منتهزاً فرصة فتح باب الخير الذي حث عليه صلى الله عليه وسلم بقوله من فتح باب خير فلينتهزه فانه لا يدري متى يغلق دونه وكان نزوله عليها في الخامس عشر من رجب سنة ثلاث وثمانين المباركه فنزل بالجانب الغربي وكان مشحوناً بالمقاتلة والخيالة والرجالة * ولقد تجاوز أهـل الخبرة عدة من كان فيه من المقاتلة بما يزيد على ستين ألفاً ما عدا النساء والصبيان *

ثم انتقل رحمه الله لمصلحة رآها الى الجانب الشمالي ونصب عليه المجانيق وضايقه بالزحف للقتال وكثرة الرماة حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهنم في قرنة شمالية * ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الامر الذي لا يندفع عنهم وظهرت لهم أمارات نصرة الحق على الباطل وكان قد ألقي في قلوبهم الرعب مما جرى على أبطالهم ورجالهم من السبي والقتل والاسر وما جرى على حصونهم من الاستيلاء والاخذ علموا انهم الى ما صاروا اليه صائرون و بالسيف الذي قتل به اخوانهم مقتولون فاستكانوا وأخلدوا الى طلب الامان واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين وكان تسلمه القدس قدس الله روحه في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب وليلة كانت ليلة المعراج المنصوص عليها في القرآن المجيد . فانظر الى هذا الاتفاق العجيب كيف يسر الله عوده الى أيدي المسلمين في مثل زمان الاسراء بنبيهم صلى الله عليه وسلم وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى وكان فتوحاً عظيماً شهده من أهل العلم خلق عظيم ومن أرباب الحرف والطرق وذلك ان الناس لما بلغهم ما يسر الله على يديه من فتوح الساحل وشاع قصده القدس قصده العلماء من مصر ومن الشام بحيث لم يتخلف معروف من الحضور وارتفعت الاصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير وخطب فيه وصليت فيه الجمعة يوم فتحه . وحط الصليب الذي كان على قبة الصخرة وكان شكلا عظيما ونصر الله الاسلام نصر عزيز مقتدر * وكانت قاعدة الصلح انهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل عشرة دنانير وعن كل امرأة خمسة دنانير صورية وعن كل صغير ذكر أو أنثى ديناراً واحداً فمن أحضر القطيعة سلم نفسه والا أخذ أسيراً وفرج الله عمن كان أسيراً من المسلمين وكان خلقاً عظيما زهاء ثلاثة آلاف أسير وأقام رحمه الله يجمع الاموال ويفرقها على الامراء والعلماء وايصال من دفع قطيعته منهم الى مأمنه وهو صور . ولقد بلغني انه رحل عن القدس ولم يبق له من ذلك المال شيء وكان مئتي الف دينار وعشرين الف دينار وكان رحيله يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان

﴿ ذكر قصده صور ﴾

ولما ثبت قدم السلطان بملك القدس والساحل قويت نفسه على قصد صور وعلم أنه ان أخر أمرها ربما اشتد فرحل سائرًا اليها حتي عكا فنزل عليها ونظر في احوالها ثم رحل متوجهاً الى صور يوم الجمعة خامس شهر رمضان وسار حتى أشرف عليها ونزل قريباً منها ينتظر وصول آلات القتال وكان لما تحرر عزمه على قصد صور سير الى ولده الملك الظاهر يستحضره وكان قد تركه بحلب ليسد ذلك الجانب لاشتغاله هو بأمر الساحل فقدم عليه في الثامن عشر على تلك المنزلة وسر بوصوله سرورًا عظيما * ولما تكاملت عنده آلات القتال من المناجيق والدبابات والستائر وغير ذلك نزل عليها في الثامن والعشرين وضايقها وقاتلها قتالا عظيما واستدعى اسطول مصر وكان يحاصرها من البحر والعسكر من البر وكان قد خلف أخاه الملك العادل بالقدس يقرر قواعده فاستدعاه فوصل اليه في خامس شوال وسير من حاصر هونين فسلمت في الثالث والعشرين من شوال

﴿ ذكر كسرة الاسطول ﴾

وذلك أنه قدم على الاسطول انسان يقال له الفارس بدران وكان ناهضاً جلدًا في البحر وكان رئيس البحريين يقال له عبد المحسن وكان قد أكد عليهم الوصية وأخذ حذرهم وتيقظهم لئلا تنتهز منهم فرصة فخالفوه وغفلوا عن أنفسهم في الليل فخرج أسطول الكفار من صور وكبسوهم وأخذوا المقدمين مع خمسة قطع وقتلوا خلقاً عظيما من الاسطول الاسلامي وذلك في السابع والعشرين من شوال فلما علم السلطان ماتم على المسلمين ضاق عطنه وكان قد هجم الشتاء وتراكمت الامطار وامتنع الناس من القتال من شدة المطر فجمع الامراء واستشارهم فيما يفعل فأشاروا عليه بالرحيل ليأخذ العسكر حزاً من الراحة ويستعدو لهذا الامر استعدادًا جديدًا فرأى ذلك رأيا ورحل عنها بعد أن رمي المنجنيقات وسيرها وأحرق ما لا يمكن نقله وكان رحيله ثاني

ذي القعدة من هذه السنة ففرق العساكر واعطاها دستوراً وسار كل قوم الى بلادهم وأقام هو مع جماعة من خواصه بعكا حتى دخلت سنة أربع وثمانين

﴿ذكر نزوله على كوكب﴾

ولما دخلت عليه السنة المباركة رأى الاشتغال بالحصون الباقية لهم مما يضعف قلوب من في صور وينهي أمرها به فاشتغل بذلك ونزل على كوكب في أوائل محرم وكان سبب بداءته بكوكب أنه قد جعل حولها جماعة يحفظونها من أن تدخل اليهم قوة فخرج الافرنج ليلا وأخذوا غرتهم وكبسوهم بعفربلا وقتلوا مقدمهم وكان من الامراء يعرف بسيف الدين أخي الجاولي وأخذوا أسلحتهم فسار رحمه الله من عكا ونزل عليها بمن معه من خواصه فانه كان قد أعطى العساكر دستوراً وعاد أخوه الى مصر وولده الى حلب ولقي في طريقه شدة من الثلج والبرد فحملته مع ذلك الحمية على النزول عليها وأقام يقاتلها مدة. وفي تلك المنزلة وصلت الى خدمته فاني كنت قد حججت سنة ثلاث وثمانين وكانت وقعة ابن المقدم وجرح يوم عرفة على عرفة لخلف جرى بينه وبين أمير الحاج طستكين على ضرب الكوس والدبدبة فان أمير الحاج نهاه عن ذلك فلم ينته ابن المقدم وكان من أكبر أمراء الشام وكان كثير الغزاة فقدر الله أن جرح بعرفة يوم عرفة ثم حمل الى منى مجروحاً ومات بمنى يوم الخميس يوم عيد الله الأكبر وصلى عليه في مسجد الخيف في بقية ذلك اليوم ودفن بالمعلا وهذا من أتم السعادات وبلغ ذلك السلطان فشق عليه ثم اتفق لي العود من الحج على الشام لقصد القدس وزيارته والجمع بين زيارة النبي صلى الله عليه وسلم وزيارة ابراهيم عليه الصلاة والسلام فوصلت الى دمشق خرجت الى القدس فبلغه خبر وصولي فظن اني وصلت من جانب الموصل في حديث فاستحضرني عنده وبالغ في الاكرام والاحترام . ولما ودعته ذاهباً الى القدس خرج لي بعض خواصه وأبلغني تقدمه اليَّ بأن أعود أتمثل في خدمته عند العود من القدس فظننت أنه يوصيني بمهم الى الموصل وانصرفت الى القدس يوم رحيله عن كوكب ورحل لأنه علم أن هذا الحصن لا يؤخذ الا بجمع العساكر عليه وكان حصناً قويا وفيه

رجال شداد من بقايا السيف وميرة عظيمة فرحل الى دمشق وكان دخوله اليها في سادس ربيع الاول . وفى ذلك اليوم اتفق دخولي اليها عائدًا من القدس وأقام بها خمسة أيام فكان له عنها ستة عشر شهرًا وفي اليوم الخامس بلغه خبر الافرنج انهم بجبيلا واغتالوها فخرج مسرعاً ساعة بلوغ الخبر وكان قد سير الى العساكر يستدعيها من سائر الجوانب وسار يطلب جبيلا فلما عرف الافرنج بخروجه كفوا عن ذلك وكان بلغه وصول عماد الدين وعسكر الموصل ومظفر الدين الى حلب قاصدين الخدمة للغزاة فسار نحو حصن الأكراد في طلب الساحل الفوقاني

﴿ ذكر دخوله الساحل الاعلى وأخذه اللاذقية وجبلة وغيرهما ﴾

ولما كان مستهل ربيع الآخر نزل على تل قبالة حصن الاكراد ثم سير الى الملك الظاهر والملك المظفر أن يجتمعا وينزلا بتبرين قبالة انطاكية ليحفظ ذلك الجانب وسارت عساكر الشرق حتى اجتمعت لخدمة السلطان في هذه المنزلة ووصلت اليه بها على عزم المسير الى الموصل متجهزًا لذلك فلما حضرت عنده فرح بي وأكرمني وكنت قد جمعت له كتاباً في الجهاد بدمشق مدة مقامي فيها يجمع أحكامه وآدابه فقدمته بين يديه فأعجبه وكان يلازم مطالعته وما زلت أطلب دستوراً في كل وقت وهو يدافعني عن ذلك ويستدعيني للحضور في خدمته في كل وقت ويبلغني على ألسنة الحاضرين ثناءه عليّ وذكره اياي بالجميل فأقام في منزلته ربيعاً الآخر جميعه وصعد في أثنائه الى حصن الاكراد وحاصرها يوم مجيئه بها فما رأى الوقت يحمل حصاره واجتمعت العساكر من الجوانب وأغار على بلد طرابلس في الشهر دفعتين ودخل البلاد مغيرًا ومختبرًا لمن بها من العساكر ويقويه العساكر بالغنائم ثم نادى في الناس في أواخر الشهر انا داخلون الساحل وهو قليل الأزواد والعدو يحيط بنا في بلاده من سائر الجوانب فاحملوا زاد شهر ثم سير الي مع الفقيه عيسى وكشف الى انه ليس في عزمه أن يمكنني من العود الى بلادي وكان الله قد أوقع في قلبي محبته منذ رأيته وحبه الجهاد فأجبته لذلك وخدمته من تاريخ مستهل جمادى الاولى سنة أربع وثمانين وهو يوم

دخوله الساحل وجميع ماحكيته قبل انما هو روايتي عمن أثق به ممن شاهده * ومن هذا التاريخ ماسطرت الا ماشاهدته أو أخبرني به من أثق به خبرًا يقارب العيان والله الموفق * ولما كان يوم الجمعة رابع جمادي الاولى رحل السلطان على تعبية لقاء العدو ورتب الاطلاب وسارت الميمنة أولا ومقدمها عماد الدين زنكي والقلب في الوسط والميسرة في الآخر ومقدمها مظفر الدين وسار الثقل في وسط العسكر حتى أتى المنزل فبتنا تلك الليلة في بلد العدو ثم رحل ونزل على العريمة فلم يقاتلها ولم يتعرض لها ووصل في السادس الى أنطرسوس فوقف قبالتها ينظر اليها وكان في عزمه الاجتياز فانه كان له عمل بجبلة فاستهان بأمرها فعزم على قتالها فسير من رد الميمنة وأمرها بالنزول على جانب البحر وأمر الميسرة بالنزول على البحر من الجانب الآخر ونزل هو في موضعه وصارت العساكر محدقة بها من البحر الى البحر وهي مدينة راكبة على البحر ولها برجان كالقلعتين حصينان وركب هو وقارب البلد وأمر الناس بالزحف والقتال فلبسوا لامة الحرب والقتال والزحف وضايقهم فما استتم نصب الخيم حتى صعد الناس السور وأخذوها بالسيف وغنم العسكر جميع من بها وما بها وخرج الناس والاسرى وأموالهم بأيديهم وترك الغلمان نصب الخيم واشتغلوا بالنهب والكسب ووفى بقوله نتغدى بانطرسوس ان شاء الله وعاد الى خيمته فرحاً مسرورًا . وحضرنا عنده للهناء بما جرى ومد الطعام وحضر الناس واكلوا على عادتهم ورتب على البرجين الباقيين الحصار فسلم أحدهما مظفر الدين فما زال يحاصره حتى أخرجه وأخذ من كان فيه وأمر السلطان باخراب سور البلد وقسمه على الامراء وشرعوا في اخرابه وأخذوا يحاصرون الآخر . وكان حصناً منيعاً مبنياً بالحجر النحيت وقد اجتمع من كان فيها من الخيالة والبطارقة والمقاتلة فيه وخندقه يدور فيه الماء وفيه فروج كثيرة يخرج الناس منها عن بعد وليس له قدر يخرج عليه مسلم فرأى السلطان تأخير أمره والاشتغال بما هو أهم منه فاشتد في اخراب السور حتى أتى عليه وخرب البيعة وهي بيعة عظيمة عندهم محجوج اليها من أقطار بلادهم وأمر بوضع النار في البلد فأحرق جميعه حتى كان تأجج النار في ارزه وبيوته والاصوات مرتفعة بالتهليل والتكبير فأقام عليها يخربها الى

الرابع عشر وسار يريد جبلة وكان عرض له ولده الملك الظاهر في أثناء طريق جبلة فانه طلبه وأمره أن يحضر معه جميع العساكر التي كانت بتبرين

﴿ ذكر فتوحه جبلة واللاذقية ﴾

ووصل الى جبلة في الثامن عشر وما استتم نزول العساكر حتى أتى للبلد وكان فيه مسلمون مقيمون فيــه وقاض يحكم بينهم وكان قد عمل على البلد فلم يمتنع وبقيت القلعة ممتنعة فاشتغل بقتالها فقاتلت قتالا يقيم عذرًا لمن كان فيها وسلمت بالامان في التاسع عشر وأقام عليها الى الثالث والعشرين وسار عنها يطلب اللاذقية وكان نزوله عليها في الرابع والعشرين وهي بلد مليح خفيف على القلب غير مستور . وله ميناء مشهورة وله قلعتان متصلتان على تل مشرف على البلد فنزل محدقًا بالبلد وأخذ العسكر منازلهم مستديرين على القلعتين من جميع نواحيها الا من ناحيــة البلد واشتد القتال وعظم الزحف وارتفعت الاصوات وقوي الضجيج الى آخر اليوم المــذكور . وأخذ البلد دون القلعتين وغنم الناس منــه غنيمة عظيمة فانه كان بلد التجار ففرّق بين الناس الليل وهجومه وأصبح يوم الجمعــة مقاتلا مجتهدًا في أخذ النقوب وأخذت النقوب من شمالي القلاع وتمكن منها النقب حتى بلغ طوله على ماحكي لي من ذرعه ستين ذراعًا وعرضه أربعة أذرع واشتد الزحف عليهم حتى صعد الناس الجبــل وقاربوا السور وتواصل القتال حتى صاروا يتحاذفون بالحجارة باليد فلما رأى عدو الله ماحل بهم من الصغار والبوار استغاثوا بطلب الامان عشية الجمعة الخامس والعشرين من الشهر وطلبوا قاضي جبلة يدخل اليهم ليقرر لهم الامان فأجيبوا الى ذلك . وكان رحمه الله متى طلب منه الامان لايبخل به رفقًا فعاد الناس عنهم الى خيامهم وقــد أخذ منهم التعب فباتوا الى صبيحة السبت ودخل قاضي جبلة اليهم واستقر الحال معهم على انهم يطلقون بنفوسهم وذراريهم وأموالهم خلا الغلال والذخائر وآلات السلاح والدواب وأطلق لهم دواب يركبونها الى مأمنهم ورقي عليها العلم الاسلامي المنصور في بقية ذلك اليوم وأقمنا عليها الى السابع والعشرين

﴿ ذكر فتوح صهيون ﴾

ورحل عن اللاذقية طالباً صهيون واستدارت العساكر بها من سائر نواحيها في التاسع والعشرين ونصب عليها ستة مناجيق وهي قلعة حصينة منيعة في طرف جبل خنادقها أودية هائلة واسعة عظيمة وليس لها خندق محفور الا من جانب واحد مقدار طوله ستون ذراعاً أو أكثر وهو نقر في حجر ولها ثلاثة أسوار سور دون ربضها وسور دون القلعة وسور القلعة وكان على قلعتها علم طويل منصوب فحين أقبل العسكر الاسلامي شاهدته قد وقع فاستبشر المسلمون بذلك وعلموا انه النصر والفتح واشتد القتال عليها من سائر الجوانب فضربها بمنجنيق الملك الظاهر صاحب حلب وكان نصب منجنيقاً قريباً من سورها فقطع الوادي وكان صائب الحجر فلم يزل يضربها حتى هدم من السور قطعة عظيمة يمكن الصاعد في السور الترقي اليه منها ولما كان بكرة الجمعة ثاني جمادي الآخرة عزم السلطان وتقدم وأمر المنجنيقات أن تتوالى بالضرب وارتفعت الاصوات وعظم الضجيج بالتكبير والتهليل وما كان الا ساعة حتى رقي المسلمون على الاسوار التي للربض واشتد الزحف وعظم الامر وهجم المسلمون الربض ولقد كنت أشاهد الناس وهم يأخذون القدور وقد استوى فيها الطعام فيأكلونها وهم يقاتلون وانضم من كان في الربض الى القلعة ويحملون ما أمكنهم أن يحملوا من أموالهم ونهب الباقي واستدارت المقاتلة حول أسوار القلعة ولما عاينوا الهلاك استغاثوا بطلب الامان ووصل خبرهم الى السلطان فبذل الامان وأنعم عليهم علي أن يسلموا بأنفسهم وأموالهم ويؤخذ من الرجل منهم عشرة دنانير ومن المرأة خمسة وعن الصغير ديناران وسلمت القلعة وأقام السلطان عليها حتى سلم عدة قلاع كالعيد وفيحه وبلاطنيس وغيرها من القلاع والحصون تسلمها النواب

﴿ ذكر فتوح بكاس ﴾

ثم رحل وسرنا حتى أتينا سادس جمادي الاخرى بكاس وهي قلعة حصينة

على جانب العاصي ولها نهر يخرج من تحتها وكان المنزل على شاطىء العاصي وصعد السلطان جريدة الى القلعة وهي على جبل يطل على العاصي فأحدق بها من كل جانب وقاتلها قتالا شديدًا بالمنجنيقات والزحف المضايق الى تاسع الشهر ويسر الله فتحها عنوة وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم وغنم جميع ما كان فيها وكان لهاقليعة تسمى الشغر وهي في غاية المنعة ليس اليها طريق فسلطت عليها المنجنيقات من الجوانب ورأوا أنهم لا ناصر لهم فطلبوا الامان في الثالث عشر وسألوا أن يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان من بانطاكية فأذن في ذلك وكان تمام فتحها وصعود العلم السلطاني عليها يوم الجمعة سادس عشر ثم عاد السلطان الى الثقل وسير ولده الملك الظاهر الى قلعة سرمانية فقاتلها قتالا شديدًا وضايقها مضايقة عظيمة وتسلمها يوم الجمعة الثالث والعشرين من الشهر فاتفقت فتوحات الساحل على جبلة الى سرمانية في أيام الجمع وهي علامة قبول دعاء الخطباء المسلمين وسعادة السلطان حيث يسر الله لنا الفتوح في اليوم الذي يضاعف فيه ثواب الحسنات وهذا من نوادر الفتوحات في الجمع المتوالية ولم يتفق مثلها في تاريخ *

﴿ ذكر فتوح برزية ﴾

ثم سير السلطان جريدة الى قلعة برزية وهي قلعة حصينة في غاية القوة والمنعة على سن جبل شاهق يضرب بها المثل في جميع بلاد الافرنج والمسلمين تحيط بها أودية من سائر جوانبها وذرع علوها كان خمسمائة ذراع ونيفًا وسبعين ذراعًا ثم جدد عزمه على حصارها بعد رؤيتها واستدعى الثقل وكان نزول الثقل وبقية العسكر تحت جبلها في الرابع والعشرين من الشهر وفي بكرة الخامس والعشرين منه صعد السلطان جريدة مع المقاتلة والمنجنيقات وآلات الحصار الى الجبل فأحدقت بالقلعة من سائر نواحيها وركب القتال من كل جانب وضرب أسوارها بالمنجنيقات المتواترة الضرب ليلا ونهارًا وفي السابع والعشرين قسم العساكر ثلاثة أقسام ورتب كل قسم يقاتل شطرًا من النهار ثم يستريح ويسلم القتال للقسم الآخر بحيث لا يفتر القتال عنها

أصلا وكان صاحب النوبة الاولى عماد الدين صاحب سنجار فقاتلها قتالا شديداً حتى استوفى نوبته وضرس الناس من القتال وتراجعوا واستلم النوبة الثانية السلطان بنفسه وركب وتحرك خطوات عدة وصاح في الناس فحملوا عليها حملة الرجل الواحد وصاحوا صيحة الرجل الواحد وقصدوا السور من كل جانب فلم يكن الا بعض ساعة حتي رقي الناس على الاسوار وهجموا القلعة وأخذت القلعة عنوة فاستغاثوا الأمان وقد تمكنت الايدي منهم فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا ونهب جميع مافيها وأسر جميع من كان فيها وكان قد أوى اليها خلق عظيم وكانت من قلاعهم المذكورة وكان يوماً عظيما وعاد الناس الى خيامهم غانمين وعاد السلطان الى الثقل فرحاً مسرورا وأحضر بين يديه صاحب القلعة وكان رجلا كبيرا منهم وكان هو ومن أخذ من أهله سبعة عشر نفساً فمنّ عليهم ورق لهم وأنفذهم الى صاحب انطاكية استمالة له فانهم كانوا يتعلقون به ومن أهله

﴿ ذكر فتوح دربساك ﴾

ثم رحل حتى أتى جسر الحديد وأقام عليه أياماً وسار حتي نزل على دربساك يوم الجمعة ثامن عشر رجب وهي قلعة منيعة قريبة من انطاكية فنزل عليها وقاتلها قتالا شديداً بالمجنيقات وضايقها مضايقة عظيمة وأخذ النقب تحت برج منها وتمكن النقب منه حتي وقع وحموه بالرجال والمقاتلة ووقف في الثغرة رجال يحمونها ممن يصعد فيها ولقد شاهدتهم وكلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه وهم قيام في عرض الجدار مكشفون فاشتد بهم الامر حتى طلبوا الامان واشترطوا مراجعة انطاكية وكانت القاعدة أن ينزلوا بأنفسهم وثياب أبدانهم لا غير ورقى عليها العلم الاسلامي في الثاني والعشرين من رجب واعطاها علم الدين سليمان بن جندر وسار عنها في الثالث والعشرين منه



﴿ ذكر فتوح بغراس ﴾

. وهي قلعة منيعة أقرب الى انطاكية من دربساك وكانت كثيرة العدة والرجال فنزل العسكر في مرج لها وأحدق العسكر بها جريدة مع انا احتجنا الى يزك في تلك المنزلة يحفظ جانب انطاكية لئلا يخرج منها من يهاجم العسكر فضرب يزك الاسلام على باب انطاكية بحيث لا يشذعنه من يخرج منها وأنا ممن كان في اليزك في بعض الايام لرؤية البلد وزيارة حبيب النجار المدفون فيها ولم يزل يقاتل بغراس مقاتلة شديدة حتى طلبوا الامان على استئذان انطاكية ورقي العلم الاسلامي عليها في ثاني شعبان. وفي بقية ذلك اليوم عاد رحمه الله الى المخيم الاكبر وراسله أهل انطاكية في طلب الصلح فصالحهم لشدة ضجر العسكر وقوة قلق عماد الدين صاحب سنجار في طلب الدستور وعقد الصلح بيننا و بين انطاكية من بلاد الافرنج لا غير على أن يطلقوا جميع اسارى المسلمين الذين عندهم وكان الى سبعة أشهر فان جاءهم من ينصرهم والا سلموا البلد الى السلطان. ورحل يطلب دمشق فسأله ولده الملك الظاهر أن يجتاز به فأجابه وسار حتى أتى حلب حادي عشر شعبان وأقام بقلعتها ثلاثة أيام وولده يقوم بالضيافة حق القيام ولم يبق للعسكر الا من ناله من نعمته منال واكثر ظني أنه أشفق عليه والده وسار من حلب يريد دمشق فاعترضه ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين وأصعده الى قلعة حماه واصطنع له طعاماً حسناً وأحضر له سماع الصوفية وبات فيها ليلة واحدة وأعطاه جبلة واللاذقية وسار على طريق بعلبك حتى أتاها وأقام بمرجها ودخل الى حمامها وسار منها حتى دخل رمضان وما كان يرى تخلية وقته عن الجهاد مهما امكنه وكان قد بقي له القلاع القريبة من حوران التي يخاف عليها من جانبها كصفد وكوكب فرأى أن يشغل الوقت بفتح المكانين في الصوم

﴿ ذكر فتح صفد ﴾

ثم سار في أوائل رمضان من دمشق يريد صفد ولم يلتفت الى مفارقة الاهل

والاولاد والوطن في هـذا الشهر الذي يسافر الانسان أين كان فيجتمع فيه بأهله . اللهم انه احتمل ذلك ابتغاء مرضاتك فآته أجرًا عظيما . فسار حتى أتى صفد وهي قلعة منيعة قد تقاطعت حولها أودية من سائر جوانبها فأحدق العسكر بها ونصب عليها المناجيق في أثناء شهر رمضان المبارك وكانت الامطار شديدة والوحول عظيمة ولم يمنعه ذلك عن جده * ولقد كنت عنده في خدمته ليلة وقد عين مواضع خمس مناجيق فقال ماننام حتى تنصب الخمسة وسلم كل منجنيق الى قوم ورسله تتواتر اليهم يعرفونهم كيف يصنعون حتى أظله الصبح وقد فرغت المنجنيقات ولم يبق الا تركيب خنازيرها فيها فرويت له الحديث المشهور في الصحاح و بشرته بمقتضاه وهو قوله صلى الله عليه وسلم « عينان لا تمسهما النار عين باتت تحرس في سبيل الله وعين بكت من خشية الله » وفي أثناء شهر رمضان سلمت الكرك من جانب نواب صاحبها وخلصوه بها من الاسر وكان قد أسر في وقعة حطين المباركة ثم لم يزل القتال على صفد متواصلا بالبون مع الصوم حتى سلمت بالامان في رابع عشر شوّال

﴿ ذكر فتوح كوكب ﴾

ثم سار يريد كوكب فنزل على الجبـل وجرد العسكر وأحدق بالقلعة وضايقها بالكلية بحيث اتخذله موضعاً يتجاوز نشاب العدو ونباله حائطاً من حجر وطين يستتر وراءه حتى لايقدر أحد يقف على باب خيمة الا ان كان ملبساً وكانت الامطار متواترة والوحول عظيمة وعانى شدائد وأهوالا من شدة الرياح وتراكم الامطار وكون العدوّ مسلطاً عليهم بعلومكانه وقتل وجرح جماعة ولم يزل راكباً مركب الجد حتى تمكن النقب من سورها * ولما أحس العدوّ المخذول انه مأخوذ طلب الامان فأجابهم الى ذلك وأمنهم وتسلمها في منتصف ذي القعدة ونزل على الفور الى الثقل وكان قد أنزله من شدة الوحل والريح في سطح الجبل فأقام بقية الشهر يراجعه أخوه الملك العادل في أشغال شخصية حتى هلّ هلال ذي الحجة وأعطي الجماعة دستورا وسار مع أخيه يريد القدس لزيارته ووداع أخيـه فانه كان عائدا الى مصر فوصلا اليه

يوم الجمعة ثامن ذي الحجة وصلينا الجمعة في قبة الصخرة الشريفة وصلينا صلاة العيد الاعظم بها أيضاً يوم الاحد وسار حادي عشر طالباً عسقلان لينظر في حالها فقام بها أياماً يلم شعثها و يصلح أحوالها فودع أخاه وأعطاه الكرك وأخذ منه عسقلان وعاد يطلب عكا على طريق الساحل و يمر على البلاد يفتقد أحوالها و يودعها الرجال والعدد حتى أتى عكا فقام بها معظم محرم سنة خمسة وثمانين ورتب بها بهاء الدين قراقوش والياً وأمره بعمارة السور والاطناب فيه ومعه حسام الدين بشارة وسار يريد دمشق مستهل صفر سنة خمسة وثمانين

ذكر توجهه الى شقيف أرنون وهي السفرة المتصلة بواقعة عكا

وأقام بدمشق حتى دخل في ربيع الاول ثلاثة أيام ووصله في اثناء ربيع الاول رسل الخليفة الناصر لدين الله يأمره بالخطبة لولده ولي العهد فخطب له وجدد عزمه على قصد شقيف أرنون وهو موضع حصين قريب من بانياس وكان تبريزه في الثالث فسار حتى نزل مرج برغوث وأقام به ينتظر العساكر الى حادي عشرة ورحل حتى أتى بانياس ثم رحل منها حتى أتى مرج عيون في السابع عشر فخيم به وهو قريب من شقيف أرنون بحيث يركب كل يوم يشارفه والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب وأوب فاقمنا أياماً نشرف كل يوم على الشقيف والعساكر الاسلامية في كل يوم تصبح متزايدة العدد والعدد وصاحب الشقيف يرى ما يتيقن معه عدم السلامة فرأى ان اصلاح حاله معه قد تعين طريقاً الى سلامته فنزل بنفسه وما أحسسنا به الا وهو قائم على باب خيمة السلطان فاذن له فدخل فاحترمه واكرمه وكان من كبار الافرنجية وعقلائها وكان يعرف بالعربية وعنده اطلاع على شيء من التواريخ و بلغني انه كان عنده مسلم يقرأ له و يفهمه وكان عنده ثان فحضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام ثم خلا به وذكر له انه مملوكه وانه تحت طاعته وانه يسلم المكان اليه من غير تعب واشترط ان يعطى موضعاً يسكنه بدمشق فانه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الافرنج واقطاعاً بدمشق يقوم به و باهله وان يمكن من الاقامة

بوضعه وهو يتردد من الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذي كان فيه حتى يتمكن من تخليص أهله وجماعته من صور فاجيب الى ذلك كله وأقام يتردد الى خدمة السلطان في كل وقت و يناظره في دينه ونناظره في بطلانه وكان حسن المحاورة ومتأدباً في كلامه وفي اثناء ربيع الاول وصل الخبر بتسليم الشوبك وكان قد أقام السلطان عليه جمعاً عظيماً يحاصرونه مدة سنة حتى فرغ زادهم وسلموه بالامان

ذكر اجتماع الافرنج تقصد عكا

وكان السلطان اشترط على نفسه حين تسلم عسقلان انه ان أمر الملك بتسليمها أطلقه فامرهم بتسليمها وسلموها فطالبه الملك باطلاقه فاطلقه وفاء بالشرط ونحن على حصن الاكراد من أنطرسوس واشترط عليه ان لا يشهر في وجهه سيفاً أبداً و يكون غلامه ومملوكه وطليقه أبداً فنكث لعنه الله فجمع جموعاً وأتى صور يطلب الدخول اليها فخيم على بابها يراجع المركيس الذي كان بها في ذلك الوقت وكان المركيس اللعين رجلا عظيما ذا رأي و بأس شديد في دينه وصرامة عظيمة فقال انني نائب للملوك الذين وراء البحر وما أذنوا لي في تسليمها اليك وطالت المراجعة واستقرت القاعدة بينهما على ان يتفقوا جميعاً على المسلمين وتجمع العساكر بصور وغيرها من الافرنجية على المسلمين وعسكروا على باب صور

ذكر الواقعة التي استشهد فيها ايبك الأخرش

وذلك انه لما كان يوم الاثنين سابع عشر جمادي الاولى من السنة المذكورة بلغ السلطان من اليزك ان الافرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا و بقيت الارض التي نحن عليها فركب السلطان وصاح الجاووش فركب العسكر يريدون نحو اليزك فوصل العسكر وقد انفصلت الوقعة وذلك ان الافرنج عبر منهم جماعة الجسر فنهض لهم اليزك الاسلامي وكانوا في قوة وعدة فقاتلوهم قتالا شديداً وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وجرحوا أضعاف ما قتلوا ورموا في النهر جماعة فغرقوا ونصر

الله الاسلام وأهله ولم يقتل من المسلمين الامملوك للسلطان يعرف بأ يبك الاخرش فانه استشهد في ذلك اليوم وكان شجاعاً باسلا مجربا في الحرب فارساً تقنطر به فرسه فلجأ الى خشبة فقاتل بالنشاب حتى فني ثم بالسيف حتى قتل جماعة ثم تكاثروا عليه فقتلوه ووجد السلطان عليه لمكان شجاعته وعاد السلطان الى خيم كانت قد ضربت له قريب المكان جريدة

﴿ ذكر وقعة ثانية استشهد فيها جمع من رجالة المسلمين ﴾

وأقام في تلك الخيم الي التاسع عشر وركب يشرف على القوم على عادته فتبع العسكر خلق عظيم من الرجالة والغزاة والسوقة وحرص في ردهم فلم يفعلوا ولقد أمر من ضربهم فلم يفعلوا وخاف عليهم فان المكان كان حرجاً ليس للراجل فيه ملجأ ثم هجم الرجالة الى الجسر وناوشوا العدو وعبر منهم جماعة اليهم وجري بينهم قتال شديد واجتمع بهم من الافرنج خلق عظيم وهم لا يشعرون وكشفوهم بحيث علموا ان ليس وراءهم كمين فحملوا عليهم حملة واحدة على غرة من السلطان فانه كان بعيداً عنهم ولم يكن معه عسكر فانه لم يخرج بتعبية قتال وانما ركب مستشرفاً عليهم على العادة من كل يوم ولما بان له الوقعة وظهر له غبارها بعث اليهم من كان معه ليردوهم فوجدوا الامر قد فرط والافرنج قد تكاثروا حتى خافت منهم السرية التي بعثها السلطان وظفروا بالرجالة ظفرة عظيمة وجرى بينهم و بين السرية قتال شديد وأسر جماعة من الرجالة وقتلوا جماعة وكان عدد الشهداء مائة وثمانين نفراً وقتل أيضاً من الافرنج عدة عظيمة وغرق أيضاً منهم عدة وكان ممن قتل منهم مقدم الالمانية وكان عندهم عظيماً محترماً واستشهد من المعروفين من المسلمين ابن البصاروا وكان شاباً حسناً شجاعاً واحتسبه والده في سبيل الله ولم تقطر من عينه عليه دمعة على ما ذكر جماعة لازموه وهذه الوقعة لم يتفق للافرنج مثلها في هذه الوقائع التي حضرتها وشاهدتها ولم ينالوا من المسلمين مثل هذه العدة في هذه المدة

﴿ ذكر مسير جريدة الى عكا وسبب ذلك ﴾

ولما رأى السلطان ما حل بالمسلمين في تلك الوقعة النادرة جمع أصحابه وشاورهم وقدر معهم انه يهجم على الافرنج و يعبر الجسر ويقتلهم و يستأصل شأفتهم وكان الافرنج قد رحلوا من صور ونزلوا قريب الجسر و بين الجسر وصور مقدار فرسخ وزائد على فرسخ فلما صمم العزم على ذلك أصبح يوم الخميس سابع عشر وركب وسار وتبعه الناس والمقاتلة والعساكر ولما وصل أواخر الناس الى أوائلهم وجدوا اليزك عائدًا وخيامهم قد قلعت فسئلوا عن سبب ذلك فذكروا ان الافرنج رحلوا راجعين الى صور ملتجئين الى سورها معتصمين بقربها وانهم لما بلغهم ذلك عادوا ولما رأى السلطان ذلك منهم رأى ان يسير الى عكا ليلحظ ما بني من سورها و يحث على الباقي فمضى الى عكا ورتب أحوالها وأمر بتتمة عمارة سورها واتقانه واحكامه وأمرهم بالاحتياط والاحتراز وعاد الى العسكر المنصور الى مرج عيون منتظرًا مهلة صاحب الشقيف لعنه الله

﴿ ذكر وقعة أخرى ﴾

ولما كان يوم السبت سادس جمادي الآخرة بلغه ان جماعة من رجالة العدو يسطون و يصلون الى جبل تبنين يحتطبون وفي قلبه من رجالة المسلمين وما جرى عليهم أمر عظيم فرأى ان يقرر قاعدة وكمينًا يرتبه لهم و يأخذهم فيه و بلغه انه يخرج وراءهم أيضًا خيلاً تحفظهم فعمل كمينا يصلح للقاء الجميع ثم أنفذ الى عسكر تبنين وتقدم اليهم ان يخرجوا في نفر يسير غائر بن على تلك الرجالة وان خيل العدو اذا تبعتهم ينهزمون الى جهة عينها لهم وان يكون ذلك صبيحة الاثنين ثامن جمادي الآخرة وأرسل الى عسكر عكا ان يسير حتى يكون وراء عسكر العدو حتى اذا تحركوا في نصرة أصحابهم قصدوا خيمهم وركب هو وجحفله سحر يوم الاثنين شاكي السلاح متجردين ليس معهم خيمة الى الجهة التي عينها لهزيمة عسكر تبنين ورتب العسكر ثمانية أطلاب واستخرج من

كل طلب عشرين فارساً من الشجعان الجياد الخيل وأمرهم ان يتراأوا للعدو حتى يظهروا اليهم و يناوشوهم و ينهزموا بين أيديهم حتى يصلوا الى الكمين ففعلوا ذلك وظهر لهم من الافرنج معظم عسكرهم يقدمهم الملك وكان قد بلغهم الخبر وتعبوا تعبية القتال وجرى بينهم و بين هذه السرية اليسيرة قتال شديد والتزمت السرية القتال وأنفوا عن الانهزام بين أيديهم وحملتهم الحمية على مخالفة السلطان ولقائهم العدو الكثير بذلك الجمع اليسير واتصل الحرب بينهم الى أواخر نهار الاثنين ولم يرجع منهم أحد الى العسكر ليخبرهم بما جرى واتصل الخبر بالسلطان في أواخر الامر وقد هجم الليل فبعث اليهم بعوثاً كثيرة حين علم ضيق الوقت عن المصاف وفوات الامر ولما بصر الافرنج باوائل المدد قد لحق السرية عادوا منهزمين ناكصين على أعقابهم بعد ان جرت مقتلة عظيمة من الجانبين وكانت القتلى من الافرنج على ما ذكر من حضر فاني لم أكن حاضرها زهاء عشرة أنفس ومن المسلمين ستة أنفار اثنان من اليزك وأربعة من العرب منهم الامير رامل وكان شاباً تاماً حسن الشباب مقدم عشيرته . وكان سبب قتله انه تقنطرت به فرسه ففداه ابن عمه بفرسه فتقنطرت منه أيضاً وأسرهو وثلاثة من أهله . ولما بصر الافرنج بالمدد للعسكر قتلوهم خشية الاستنقاذ وجرح خلق كثير من الطائفتين وخيل كثيرة . ومن نوادر هذه الوقعة ان مملوك السلطان أثخن بالجراح حتى وقع بين القتلى وجراحاته تشخب دماً و بات ليلة أجمع على تلك الحالة الى صبيحة يوم الثلاثاء ففقده أصحابه فلم يجدوه فعرفوا السلطان فقده فانفذ من يكشف خبره فوجدوه بين القتلى على مثال هذه الحالة فحملوه ونقلوه الى المخيم على تلك الحال وعافاه الله وعاد السلطان الى المخيم يوم الاربعاء عاشر الشهر منصورا * فرحاً مسرورا

﴿ ذكر أخذ أصحاب الشقيف وسبب ذلك ﴾

ثم استفاض بين الناس أن صاحب الشقيف فعل ما فعله من المهلة غيلة لا انه صادق في ذلك وانما قصد فيه تدفع الزمان وظهر لذلك مخائل كثيرة من الحرص في تحصيل الميرة واتقان الابواب وغير ذلك فرأى السلطان أن يصعد الى سطح الجبل

ليقرب من المكان ويرسل سرا من يمنع من دخول النجدة والميرة اليه وأظهر أن سبب ذلك شدة حرّ الزمان والقرار من وخم المرج. وكان انتقاله الى سطح الجبل ليلة الثاني عشر من الشهر وقد مضى من الليل ربعه فما أصبح صاحب الشقيف الا والخيمة مضروبة وبقي بعض العساكر بالمرج على حاله فلما رأى صاحب الشقيف قرب العسكر منه وعلم أنه بقي من المدة بقية جمادى الآخرة حدثته نفسه أنه ينزل الى خدمة السلطان ويستعطفه ويستزيده في المدة وتخيل له بما رأى من أخلاق السلطان ولطافته أن ذلك يتم فنزل الى الخدمة وعرض المكان وقال المدة لم يبق منها الا اليسير وأي فرق بين التسليم اليوم أو غدًا وأظهر أنه بقي من أهله جماعة بصور وأنهم على الخروج منها في هذه الايام وأقام في الخدمة ذلك اليوم الى الليل وصعد القلعة ولم يظهر له السلطان شيئًا وأجراه على عادته وقضي مدته ثم عاد ونزل بعد أيام وقد قرب انتهاء المدة والفراغ منها وطلب الخلوة بالسلطان وسأل منه أن يمهله تمام السنة تسعة أشهر فأحس السلطان منه الغدر فماطله وما أيسه وقال نتفكر في ذلك ونجمع الجماعة ونأخذ رأيهم وما ينفصل الحال عليه نعرفك وضرب له خيمة قريبة من خيمته وأقام عليه حرسًا لا يشعر بهم وهو على غاية من الاكرام والاحترام له والمراجعة والمراسلة بينهم في ذلك الفن مستمرة حتى انقضت الايام وطولب بتسليم المكان فكشف له أنك أضمرت الغدر وجددت في المكان عمائر * وحملت اليه ذخائر فأنكر ذلك واستقرت القاعدة على أن ينفذ من عنده ثقته وينفذ السلطان ثقة يتسلم المكان وينظر هل تجدد فيه شيء من البناء أم لا فمضوا اليه فلم يلتفت أصحابه القيمون فيه اليهم ووجدوه قد جدد بابًا للسور لم يكن فأقيم الحرس الشديد عليه وأظهر ذلك ومنع الدخول الى الخدمة وقيل له قد انقضت المدة ولابد من التسليم وهو يغالط عن ذلك ويدافع عن الجواب عنه* ولما كان الثامن عشر من جمادى الآخرة وفيـه اعترف بانتهاء المدة قال أنا أمضي وأسلم المكان وسار معه جمع كثير من الامراء والاجناد حتى أتى الشقيف وأمرهم بالتسليم فأبوا فخرج اليه قسيس وحدثه بلسانه ثم عاد واشتد امتناعهم بعد عود القسيس اليهم فظن انه أكد الوصية على القسيس في الامتناع وأقام ذلك اليوم والحديث يتردد فلم

يلتفتوا وأعيد الى المخيم المنصور وسير من ليلته الى بانياس وأحيط عليه بقلعتها فأحدق العسكر بالشقيف مقاتلين ومحاصرين وأقام صاحب الشقيف ببانياس الى سادس رجب واشتد حنق السلطان على صاحب الشقيف بسبب تضييع ثلاثة أشهر عليه وعلى عسكره ولم يعملوا فيها شيئاً فأحضر الى المخيم وهدد ليلة وصوله بأمور عظيمة فلم يفعل وأصبح السلطان ثامن رجب ورقي الى سنام الجبل بمخيمه وهو موضع مشرف على الشقيف من المكان الذي كان فيه أولى وأبعد من الوخم وكان قد تغير مزاجه * ثم بلغنا بعد ذلك ان الافرنج بصور مع الملك قد ساروا نحو النواقير يريدون جهة عكا وان بعضهم نزل بالاسكندرونه وجرى بينهم وبين رجالة المسلمين مناوشة وقتل منهم المسلمون نفرا يسيرا وأقاموا هناك

﴿ ذكر واقعة عكا ﴾

وذلك انه لما بلغ السلطان حركة الافرنج الى تلك الجهة عظم عليه ولم ير المسارعة خوفاً من أن يكون قصدهم ترحيله عن الشقيف لا قصد المكان فأقام مستكشفاً للحال الى ثاني عشر رجب فوصل قاصد آخر أن الافرنج في بقية ذلك اليوم رحلوا ونزلوا عين بصة ووصل أوائلهم الى الزيت فعظم ذلك عنده وكتب الى سائر أرباب الاطراف يتقدمون بالعساكر الاسلامية بالمسير الى المخيم المحروس وعاد فجدد الكتب والحث وتقدم الى الثقل أن سار بالليل وأصبح هو صبيحة الثالث عشر سائرًا الى عكا على طريق طبرية اذ لم يكن ثم طريق يسع العسكر الا هو وسير جماعة على طريق تبنين يستطلعون العدو ويواصلون بأخباره وسرنا حتى أتينا الحولة منتصف النهار فنزل بها ساعة ثم رحل وسار طول الليل حتى أتى موضعاً يقال له المنية صباح الرابع عشر وفيه بلغنا نزول الافرنج على عكا يوم الاثنين الثالث عشر وسير صاحب الشقيف الى دمشق بعد الاهانة الشديدة على سوء صنيعه وسار هو جريدة من المنية حتى اجتمع ببقية العسكر الذي كان أنفذه على طريق تبنين ببرج صفورية فان كان واعدهم اليه وتقدم الى الثقل ان يلحقه الى مرج صفورية ولم يزل حتى شارف العدو من الخروبة وبعث

بعض العسكر ودخل عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها ولم يزل يبعث اليها بعثاً بعد بعث حتى حصل فيها خلق كثير وعدد وافر ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلباً وسار من الخروبة وكان قــد نزل عليها خامس عشر الشهر فسار منها حتى أتى تل كيسان في أوائل مرج عكا وأمر الناس أن ينزلوا به على تلك التعبية وكان آخر الميسرة على طرف النهر الحلو وآخر الميمنة مقارب تل العياضية فاحتاط العسكر الاسلامي المنصور بالعدو المخــذول وأخذ عليهم الطرف من الجوانب وتلاحقت العساكر الاسلامية واجتمعت ورتب اليزك الدائم والجاليش في كل يوم مع العدو وحصر العدو في خيامه من كل جانب بحيث لا يقدر أن يخرج منها واحد الا ويجرح أو يقتل وكان معسكر العدو على شطر من عكا وخيمة ملكهم على تل المصلبين قريباً من باب البلد وكان عدد راكبهم ألفي فارس وعدد راجلهم ثلاثين الفاً ومارأيت من أنقصهم عن ذلك ورأيت من حزرهم بزيادة على ذلك ومددهم من البحر لا ينقطع وجرى بينهم وبين اليزك مقاتلات عظيمة متواترة والمسلمون يتهافتون على قتالهم والسلطان يمنعهم من ذلك الى وقته والبعوث من العساكر الاسلامية تتواصل والملوك والامراء من الاقطار تتتابع فأول من وصل الامير الكبير مظفر الدين بن زين الدين * ثم قدم بعده الملك المظفر صاحب حماه وفي أثناء هذا الحال توفي حسام الدين سنقر الاخلاطي وأسف المسلمون عليه أسفاً شديداً فانه كان شجاعاً ديناً * ثم ان الافرنج لما تكاثروا واستفحل أمرهم استداروا بعكا بحيث منعوا من الدخول والخروج وذلك في يوم الخميس سلخ رجب * ولما رأى السلطان ذلك عظم لديه وضاق صدره وثارت همته العلية وفتح الطريق الى عكا لتستمر السابلة اليها بالميرة والنجدة وغير ذلك فأحضر أمراءه وأصحاب الرأي من دولته وشاورهم في مضايقة القوم وانفصل الحال على انه يضايقهم مضايقة شديدة بحيث ينفصل أمرهم بالكلية ويفتح الباب والطريق الى عكا فباكرهم صبيحة الجمعة مستهل شعبان وسار مع العسكر وقد رتبه للقتال ميمنة وميسرة وقلباً وضايقهم مضايقة شديدة وكانت الحملة بعد صلاة الجمعة اغتناماً لدعاء الخطباء على المنابر وجرت حملات عظيمة وقلبات كثيرة واتصل الحرب الى أن حال بين الفئتين هجوم الليل

وبات الناس على حالهم من الجانبين شاكي السلاح تحرس كل طائفة نفسها من الطائفة الاخرى

﴿ ذكر فتح الطريق الى عكا ﴾

ولما كانت صبيحة السبت أصبح الناس على القتال وأنفذ السلطان طائفة من شجعان المسلمين الى البحر من شمالي عكا ولم يكن هناك للعدو خيم لكن العسكر كان قد امتد جريدة الى البحر فحملوا عليهم فانكسروا بين أيديهم كسرة عظيمة وقتلوا منهم جمعاً كثيرا وانكف السالمون منهم الى خيامهم وهجم المسلمون خلفهم الى اوائل خيامهم وانفتح الطريق الى عكا من باب القلعة المسماة بقلعة الملك الى باب قراقوش الذي جدده وصار الطريق مهيعاً يمر فيه السوقي ومعه الحوائج ويمر به الرجل الواحد والمرأة واليزك بين الطريق وبين العدو مانعاً من يخرج من عسكرهم أو يدخل ودخل السلطان في ذلك اليوم الى عكا ورقى على السور ونظر الى عسكر العدو تحت السور وفرح المسلمون بنصر الله وخرج العسكر الذي كان بها في خدمة السلطان واستدار العسكر الاسلامي حول العسكر الافرنجي وأحدقوا بهم من كل جانب * ولما استقر به ذلك تراجع الناس عن القتال وذلك بعد الظهر لسقي الدواب وأخذ الراحة وكان نزولهم على أنهم اذا أخذوا حظاً من الراحة عادوا الى القتال لمناجزة القوم وضاق الوقت وأخذ الضجر والتعب من الناس فلم يرجعوا الى القتال في ذلك اليوم وبات الناس على أنهم يصبحونهم بكرة الاحد الى القتال رجاء المناجزة بالكلية واختفى العدو في خيامهم بحيث لم يظهر منهم أحد. ولما كانت بكرة الاحد ثالث شعبان تعبي الناس للقتال وأحدقوا بالعدو وعزموا على مهاجمة القوم وعلى أن يترجل الامراء ومعظم العسكر ويقاتلوا العدو في خيامه فلما تهيأوا لذلك رأى بعض الامراء تأخير ذلك الى بكرة الاثنين رابع شعبان وأن يدخل الراجل كله الى داخل عكا ويخرجوا مع العسكر المقيم بالبلد من أبواب البلد على العدو من ورائه وتركب العساكر الاسلامية من خارج من سائر الجوانب ويحملوا حملة الرجل الواحد والسلطان يوالي هذه الامور

بنفسه ويكالحها بذاته لا يتخلف عن مقام من هذه المقامات وهو من شدة حرصه ووفور همته كالوالدة الثكلى * ولقد أخبرني بعض أطبائه أنه بقي من يوم الجمعة الى يوم الاحد لم يتناول من الغذاء الا شيئاً يسيراً لفرط اهتمامه وفعلوا ما كان عزم عليه واشتدت منعة العدوى وحمى نفسه في حيامه ولم تزل سوق الحرب قائمة تباع فيها النفوس والنفائس * وتمطر سماء حربها الرؤس من كل رئيس ومترئس حتى كان يوم الجمعة ثامن شعبان

﴿ ذكر تأخر الناس الى تل العياضية ﴾

ولما كان الثامن عزم العدو على الخروج بجموعهم فخرج راجلهم وفارسهم وامتدوا على التلول وساروا الهوينا غير مفرطين في أنفسهم ولا خارجين من راجلهم حيث كانت الرجالة حولهم كالسور المبني يتلو بعضهم بعضاً حتى قاربوا خيام اليزك. ولما رأى المسلمون ذلك واقدام العدو عليهم شدو وتنازعت الشجعان * وتنازلت الكماة الى الاقران * وصاح السلطان بالعساكر الاسلامية يا للاسلام فركب الناس باجمعهم ووافق فارسهم راجلهم وشابهم شيخهم وحملوا حملة الرجل الواحد على العدو المخذول فعاد ناكصاً على عقبيه والسيف يعمل فيهم والسالم منهم جريح. والعاطب طريح مشتدون هزيمة يعبر جريحهم بقتيلهم ولا تلوي الجماعة منهم على قتيلهم حتى لحق الخيام من سلم منهم وانكفوا عن القتال أياماً وكان رأيهم أن يحفظوا نفوسهم * ويحرسوا رؤسهم * واستقر فتح طريق عكا والمسلمون يترددون اليها وكنت ممن دخل ورقى على السور ورمى العدو بما يسر الله تعالى من فوق السور ودام القتال بين الفئتين متصلا الليل والنهار حتى كان الحادي عشر من شعبان ورأى السلطان توسيع الدائرة عليهم لعلهم يخرجون الى مصارعهم فنقل الثقل الى تل العياضية وهو تل قبالة تل المصلبين مشرف على عكا وخيام العدو * وفي هذه المنزلة توفى حسام الدين طمآن وكان من الشجعان ودفن في سفح هـذا التل وصليت عليه مع جماعة من الفقهاء ليلة نصف شعبان وقد مضى من الليل هزيع رحمه الله

﴿ذكر وقعة جرت للعرب مع العدو﴾

وكان سبب ذلك أنه بلغنا أن جمعاً من العدو يخرجون للاحتشاش من طرف النهر مما ينبت عليه فاكمن السلطان لهم جماعة من العرب وقصد العرب لخفتهم على خيلهم وأمنه عليهم فخرجوا ولم يشعروا بهم فهجموا عليهم وقتلوا منهم خلقاً عظيما وأسروا جماعة وأحضروا رؤساً عديدة بين يديه فخلع عليهم وأحسن اليهم وكان ذلك في السادس عشر * وفي عشيـة ذلك اليوم وقع بين العدو وبين أهل البلد حرب عظيم قتل فيه جمع عظيم من الطائفتين فطال الامر بين الفئتين وما يخلوا يوماً من قتل وجرح وسبي ونهب وأنس البعض بالبعض بحيث أن الطائفتين كانا يتحدثان ويتركان القتال وربما غني البعض ورقص البعض لطول المعاشرة ثم يرجعون الى القتال بعد ساعة * وكان الرجال يوماً من الطائفتين قد سئموا من القتال فقالوا الى كم تقاتل الكبار وليس للصغار حظ نريد أن يتصارع صبيان منا ومنكم فأخرج صبيان من البلد الى صبيين من الافرنج واشتد الحرب بينهم فوثب أحد الصبيين المسلمين الى أحد الكافرين فاختطفه وضرب به الارض وقبضه أسيراً فاشتراه بعض الافرنج بدينارين وقالوا هو أسيرك حقاً فأخذ الدينارين وأطلقه وهذه نادرة غريبة ووصل للفرنج مركب فيه خيل فهرب منها فرس ووقع في البحر وما زال يسبح وهم حوله يردونه حتى دخل ميناء عكا وأخذه المسلمون

﴿ذكر المصاف الاعظم على عكا﴾

وذلك أنه لما كان يوم الاربعاء الحادي والعشرون تحركت عساكر الافرنج حركة لم تكن لهم بمثلها عادة فارسهم وراجلهم وكبيرهم وصغيرهم فاصطفوا خارج خيمهم قلباً وميمنة وميسرة وفي القلب الملك و بين يديه الانجيل محمولا مستورا بثوب أطلس مغطي يمسكه أربعة أنفس بأربعة أطراف وهم يسيرون بين يدي الملك وامتدت الميمنة في مقابلة الميسرة التي لعسكر الاسلام من أولها الى آخرها وكذلك ميسرة

العدو في مقابلة ميمنتنا الى آخرها وملكوا رؤس التلال وكان طرف ميمنتهم الى النهر وطرف ميسرتهم الى البحر. وأما العسكر الاسلامي المنصور فان السلطان أمر الجاويش ان نادي في الناس يا للاسلام وعساكر الموحدين فركب الناس وقد باعوا أنفسهم بالجنة ووقفوا بين أيدي خيامهم وامتدت الميمنة الى البحر والميسرة الى النهر كذلك أيضاً وكان رحمه الله قد أنزل الناس في الخيم ميمنة وميسرة وقلباً تعبية الحرب حتي اذا وقعت صيحة لا يحتاجون الى تجديد ترتيب وكان هو في القلب وفي ميمنة القلب ولده الملك الافضل ثم عسكر المواصلة يقدمهم ظهر الدين ابن البلنكري ثم عسكر ديار بكر في خدمة قطب الدين ابن نور الدين صاحب الحصن ثم حسام الدين بن لاجين صاحب نابلس ثم الطواشي قايماز النجمي وجموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة وكان في طرفها الملك المظفر تقي الدين بجحفله وعسكره وهو مطل على البحر * وأما أوائل الميسرة فكان مما يلي القلب سيف الدين على المشطوب وعلى ابن أحمد من كبار ملوك الاكراد ومقدميهم والامير مجلي وجماعة المهرانية والهكارية ومجاهد الدين برنقش مقدم عسكر سنجار وجماعة من المماليك ثم مظفر الدين بن زين الدين بجحفله وعسكره وأواخر الميسرة كبار المماليك الاسدية كسيف الدين يا زكج ورسلان بغا وجماعة الاسدية الذين يضرب بهم المثل ومقدم القلب الفقيه عيسى وجمعه * هذا والسلطان يطوف على الاطلاب بنفسه يحثهم على القتال * ويدعوهم الى النزال * ويرغبهم في نصر دين الله ولم يزل القوم يتقدمون والمسلمون يقدمون حتى علا النهار ومضى فيه مقدار أربع ساعات وعند ذلك تحركت ميسرة العدوّ على ميمنة المسلمين فاخرج لهم الملك المظفر الجاليش وجرى بينهم قلبات كثيرة وتكاثروا على الملك المظفر وكان في طرف الميمنة علي البحر فتراجع عنهم شيئاً اطماعاً لهم لعلهم يبعدون عن أصحابهم فينال منهم غرضاً فلما رأى السلطان ذلك ظن به ضعفاً وأمده باطلاب عدة من القلب حتى قوي جانبه وتراجعت ميسرة العدوُ واجتمعت على تل مشرف على البحر ولما رأى الذين في مقابلة القلب ضعف القلب ومن خرج منه من الاطلاب داخلهم الطمع وتحركوا نحو ميمنة القلب وحملوا حملة الرجل الواحد راجلهم وفارسهم ولقد رأيت الرجالة

تسير سير الخيالة وهم يسبقون حيناً وجاءت الحملة على الديار البكرية كما شاء الله تعالى وكان بهم غرة عن الحرب فتحركوا بين يدي العدو وانكسر واكسرة عظيمة وسرى الامر حتى انكسر معظم الميمنة واتبع العدو المنهزمين الى العياضية فانهم استداروا حول التل وصعد طائفة من العدو الى خيمة السلطان فقتلوا طشت دار كان هناك * وفي ذلك اليوم استشهد اسماعيل المكبس وابن رواحة رحمها الله * وأما الميسرة فانها ثبتت لان الحملة لم تصادفها وأما السلطان فاخذ يطوف على الاطلاب فينهضهم و يعدهم الوعود الجميلة و يحثهم على الجهاد و ينادي فيهم ياللاسلام ولم يبق معه الا خمسة أنفس وهو يطوف على الاطلاب و يخرق الصفوف و يأوي الى تحت التل الذي كان عليه الخيام * وأما المنهزمون من العسكر فانهم بلغت هزيمتهم الى الفحوانة قاطع جسر طبرية وأم منهم قوم محروسة دمشق فاما المتبعون لهم فانهم اتبعوهم الى العياضية فلما رأوهم قد صعدوا الى الجبل رجعوا عنهم وجاؤا عائدين الى عسكرهم فلقيهم جماعة من الغلمان والخربندية والساسة منهزمين على بغال الحمل فقتلوا منهم جماعة ثم جاؤا على رأس السوق فقتلوا جماعة وقتل منهم جماعة فان السوق كان عظيما ولهم سلاح * وأما الذين صعدوا الى الخيام السلطانية فانهم لم يلتمسوا فيها شيئا أصلا سوى أنهم قتلوا من ذكرنا وهم ثلاثة نفر رأوا ميسرة الاسـلام ثابتة فعلموا ان الكسرة لا تتم فعادوا منحدرين من التل يطلبون عسكرهم * وأما السلطان فان كان واقفا تحت التل ومعه نفر يسير وهو يجمع الناس ليعودوا الى الحملة على العدو فلما رأوا الافرنج نازلين من التل أرادوا لقاءهم فامرهم بالصبر الى ان ولوا ظهورهم واشتدوا يطلبون أصحابهم فصاح في الناس فحملوا عليهم فطرحوا منهم جماعة فاشتد الطمع فيهم وتكاثر الناس وراءهم حتى لحقوا أصحابهم والطرد وراءهم فلما رأوهم منهزمين والمسلمون وراءهم في عدد كثير ظنوا ان من حمل منهم قد قتل وانهم انما نجا منهم هذا النفر فقط وان الهزيمة قد عادت عليهم فاشتدوا في الهرب والهزيمة وتحركت الميسرة عليهم وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة وتجمعت الرجال وتداعت وتراجع الناس من كل جانب وكذب الله الشيطان ونصر الايمان وظل الناس في قتل وطرح وضرب وجرح الى ان اتصـل المنهزمون

السالمون الى عسكرهم فهجم عليهم في الخيام فخرج منهم أطلاب كانوا أعدوها خشية من مثل هذا الامر مستريحة فردوا المسلمين وكان التعب قد أخذ من الناس والعرق قد ألجمهم فرجع الناس عنهم بعد صلاة العصر يخوضون في القتلى ودمائهم الى خيامهم فرحين مسرورين وعاد السلطان في ذلك اليوم الى خيمته فرحاً مسروراً وجلسوا في خيمته يتداركون من فقد من الغلمان وكان مقدار من فقد من الغلمان المجهولين مائة وخمسين نفراً ومن المعروفين استشهد ظهر الدين أخو الفقيه عيسى ولقد رأيتـه وهو جالس يضحك والناس يعزونه وهو ينكر عليهم ويقول هذا يوم الهناء لا يوم العزاء وكان هو قد وقع عن فرسه وأركبه فرأيته وقتل عليه جماعة من أقارب به وقتل في ذلك اليوم الامير مجلي . هـذا الذي قتل من المسلمين وأما من العدو المخذول فحزر قتلاهم بسبعة آلاف نفر ورأيتهم وقد حملوهم الى شاطئ النهر ليلقوا فيه فحزرتهم بدون سبعة آلاف * ولما تم على المسلمين من الهزيمة ما تم ورأى الغلمان خلو الخيام عمن يعترض عليهم فان العسكر انقسم الى قسمين منهزمين ومقاتلين فلم يبق في الخيم أحد وراءنا فظنوا ان الكسرة تمت وان العدو ينهب جميـع ما في الخيام فوضعوا أيديهم في الخيام ونهبوا جميع ما كان فيها وذهب من الناس أموال عظيمة وكان ذلك أعظم من الكسرة وقعاً . ولما عاد السلطان الى الخيم ورأى ما قد تم على الناس من نهب الاموال والهزيمة سارع الى الكتب والرسل في رد المنهزمين وتتبع من شذ من العسكر والرسل تتابع في هذا المعنى حتى بلغت عقبة فيتق وأخذوهم بالكره الى عسكر المسلمين فعادوا وأمر بجمع الاقمشة من أكف الغلمان الى خيمته حتى جلالات الخيل والمخالي بين يديه في خيمته وهو جالس ونحن حوله وهو يتقدم الى كل من عرف شيئاً وحلف عليـه يسلم اليه وهو يلقى هـذه الاحوال بقلب صلب . وصدر رحب . ووجه منبسط . ورأي مستقيم غير مختبط . واحتساب لله تعالى وقوة عزم في نصرة دين الله * وأما العدو المخذول فانه عاد الى خيمته وقد قتـل شجعانهم وطرحت مقدموهم وفقدت ملوكهم فأمر السلطان ان خرج من عكا عجل يسحبون عليه القتلى منهم الى طرف النهر ليلقوا فيـه * ولقد حكى لي بعض من ولي أمر العجل انه أخذ خيطاً وكان كلما أخذ قتيلا

عقد عقدة فبلغ عدد قتلى الميسرة أربعة آلاف ومائة وكسور وبقى قتلى الميمنة وقتل القلب لم يعدهم فانه ولي أمرهم غيره وبقي من العدو بعد ذلك من حمى نفسه وأقاموا في مخيمهم لم يكترثوا بجحافل المسلمين وعساكرهم وتشتت من عساكر المسلمين خلق كثير سبب الهزيمة فانه ما رجع منها الارجل معروف يخاف على نفسه والباقون هربوا في حال سبيلهم وأخذ السلطان في جمع الاموال المنهوبة وأعادها الى أصحابها وأقام المناداة في العساكر وقرن النداء بالوعيد والتهديد وهو يتولى تفرقتها بنفسه بين يديه واجتمع من الاقمشة عدد كثير في خيمته حتى ان الجالس في أحد الطرفين لا يرى الجالس في الطرف الآخر وأقام من ينادي على من ضاع منه شيء فحضر الخلق وصار من عرف شيئاً وأعطى علامته حلف وأخذه من الحبل والمخلات الى الهميان والجوهر ولقى من ذلك مشقة عظيمة ولا يرى ذلك الا نعمة من الله تعالى يشكر عليها . ويسابق بيد القبول اليها . ولقد حضرت يوم تفرقة الاقمشة على أربابها فرأيت سوقاً للعدل قائمة لم ير في الدنيا أعظم منها وكان ذلك في يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان وعند انقضاء هذه الواقعة وسكون ثائرتها أمر السلطان بالثقل حتى تراجع الى موضع يقال له الخروبة خشية على العسكر من روائح القتلى وآثار الوخم من الوقعة وهو موضع قريب من مكان الوقعة الا أنه أبعد عنها من المكان الذي كان نازلا فيه بقليل وضربت له خيمة عند الثقل وأمر اليزك أن يكون مقيما في المكان الذي كان نازلا فيه وذلك في التاسع والعشرين واستحضر الامراء وأرباب المشورة في سلخ الشهر ثم أمرهم بالاصغاء الى كلامه وكنت من جملة الحاضرين ثم قال بسم الله والحمد لله والصلاة على رسول الله . اعلموا ان هذا عدو الله وعدونا قد نزل في بلادنا وقد وطء أرض الاسلام . وقد لاحت لوائح النصر عليه ان شاء الله تعالى وقد بقي في هذا الجمع اليسير ولا بد من الاهتمام بقلعه والله قد أوجب علينا ذلك وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل وهو واصل وهذا العدو ان بقي وطال أمره الى أن يفتح البحر جاءه مدد عظيم والرأي كل الرأي عندي مناجزتهم فليخبرنا كل منكم ما عنده في ذلك * وكان ذلك في ثالث عشر تشرين من الشهور

الشمسية وامتخضت الآراء وجرى تجاذب في أطراف الكلام وانفصلت آراؤهم على ان المصلحة تأخير العسكر الى الخروبة وأن يبقى العسكر أياماً حتى يستجم من حمل السلاح وترجع النفوس اليهم فقد أخذ التعب منهم واستولى على نفوسهم الضجر وتكليفهم أمراً على خلاف ما تحمله القوى لا تؤمن غائلته . والناس لهم خمسون يوماً تحت السلاح وفوق الحيل والخيل قد ضجرت من عرك اللجم وسئمت نفوسها ذلك وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها اليها و يصل الملك العادل ويشاركنا في الرأي والعمل وستعيد من شذ من العساكر ونجمع الرجالة ليقفوا في مقابلة الرجالة وكان بالسلطان التياث مزاجي قد عراه من كثرة ما حمل على قلبه وما عاناه من التعب بحمل السلاح والفكر في تلك الايام فوقع ماقالوه ورأوه مصلحة . وكان انتقال العسكر الى الثقل ثالث رمضان وانتقال السلطان تلك الليلة وأقام يصلح مزاجه ويجمع العساكر وينتظر أخاه الى عاشر رمضان

﴿ ذكر وصول خبر الالمان ﴾

ولما دخل رمضان من شهور سنة خمس وثمانين وخمسمائة وصل من جانب حلب كتب من ولده الملك الظاهر عز نصره يخبر فيها انه قد صح ان ملك الالمان قد خرج الى القسطنطينية في عدة عظيمة قيل مائتا الف وقيل مائتان وستون الفاً يريد البلاد الاسلامية فاشتد ذلك على السلطان وعظم عليه ورأى استنفار الناس للجهاد واعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة فاستدعاني لذلك وأمرني بالمسير الي صاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب الموصل وصاحب اربل واستدعاهم الى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم وأمرني بالمسير الى بغداد لاعلام خليفة الزمان بذلك وتحريك عزمه على المعاونة وكان الخليفة اذ ذاك الناصر لدين الله أبا العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله وكان مسيري في ذلك المعنى في حادي عشر رمضان ويسر الله تعالى الوصول الى الجماعة وابلاغ الرسالة اليهم فأجابوا بنفوسهم وسار عماد الدين زنكي صاحب سنجار بعسكره وجمعه في تلك السنة وسار ابن أخيه صاحب الجزيرة سنجر شاه بنفسه يجر

عسكره وسير صاحب الموصل ابنه علاء الدين خرم شاه بمعظم عسكره . وحضرت الديوان السعيد بغداد وأنهيت الحال كما رسم ووعد بكل جميل وعدت الى خدمته رحمة الله عليه وكان وصولي اليه في يوم الخميس خامس ربيع الاول من شهور سنة ست وثمانين وكنت قد سبقت العساكر وأخبرته باجابتهم بالسمع والطاعة وباهتمامهم بالمسير فسرّ بذلك وفرح فرحاً شديداً

﴿ ذكر وقعة الرمل التي على جانب نهر عكا ﴾

ولما كان صفر من تلك السنة خرج السلطان يتصيد مطمئن النفس يبعد المنزلة عن العدو فأوغل في الصيد و بلغ ذلك العدو فأخذوا غرة العسكر واجتمعوا وخرجوا يريدون الهجوم على العسكر الاسلامى فأحس بهم الملك العادل فصاح بالناس وركبت العساكر من كل جانب وحمل على القوم وجرت مقتلة عظيمة قتل وجرح بينهما منهم خلق عظيم ولم يقتل من معروفي المسلمين الا مملوك للسلطان يقال له أرغش وكان رجلا صالحاً استشهد في ذلك اليوم و بلغ الخبر الى السلطان فعاد منزعجاً فوجد الحرب قد انفصل وعاد كل فريق الى حزبه وعاد العدو خائباً خاسراً ولله الحمد والمنة. وما مضى من الوقعات شاهدت منها ما شاهده مثلي وعرفت الباقي معرفة خاصة في هذه الامور * ومن نوادر هذه الواقعة ان مملوكا كان للسلطان يدعي قره سنقر وكان شجاعاً قد قتل من أعداء الله خلقاً عظيما وفتك فيهم فأخذوا قلوبهم من نكايته فيهم وتجمعوا له وكمنوا له وخرج اليه بعضهم وتراأوا له فحمل عليهم حتى صار بينهم فوثبوا عليه من سائر جوانبه فأمسك واحد منهم بشعره وضرب الآخر رقبته بسيفه فانه كان قتل له أقرباء فوقعت الضربة في يد الممسك بشعره فقطعت يده وخلى سبيله فاشتد هارباً حتى عاد الى أصحابه وأعداء الله يشتدون عدو اخلفه لم يلحقه منهم أحد وعاد سالماً ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً

﴿ ذكر وفاة الفقيه عيسى ﴾

وهي مما بلغني ولم اكن حاضرها وذلك أنه مرض مرضاً يتعاهده وهو ضعيف النفس وعرض له اسهال اضعفه فلم تقطع صلاته ولم يغب ذهنه عنه الى أن مات وكان رحمه الله كريماً شجاعاً حسن المقصد كبير الغرام بقضاء حوائج المسلمين توفى رحمه الله طلوع فجر الثلاثاء تاسع ذي القعدة من شهور سنة خمسة وثمانين

﴿ ذكر تسليم الشقيف سنة ستة وثمانين ﴾

ولما كان يوم الاحد خامس عشر ربيع الاول علم الافرنج المستحفظون بالشقيف انهم لاعاصم لهم من أمر الله وأنهم ان أخذوا عنوة ضربت رقابهم فطلبوا الامان وجرت مراجعات كثيرة في قاعدة الاوان وكانوا قد علموا من حال صاحبهم انه قد عذب أشد العذاب فاستقرت القاعدة على أن الشقيف يسلم ويطلق صاحبه وجميع من فيه من الافرنج ويترك ما فيه من أنواع الاموال والذخائر وعاد صاحب صيد والافرنج الذين كانوا بالشقيف الى صور. ولما رأى السلطان من اهتمام الافرنج من أقطار بلادهم بالمكان وتصويب عزائمهم نحوه اغتنم الشتاء وانقطاع البحر وجعل في عكا من الميرة والذخائر والعدد والرجال ما أمن معه عليها مع تقدير الله تعالى وتقدم الى النواب بمصر أن عمروا لها اسطولا عظيما يحمل خلقاً كثيرًا وسار حتى دخل عكا مكابرة للعدو ومراغمة له وأعطى العساكر دستورا طول الشتاء يستجمعون ويستريحون وأقام هو مع نفر يسير قبالة العدو وقد حال بين العسكرين شدة الوحول وتعذر بذلك وصول بعضهم الى بعض

﴿ ظريفة ﴾

كان لما بلغ خبر العدو وقصده عكا جمع الامراء وأصحاب الرأي ببرج عيون وشاورهم فيما يصنع وكان رأيه ان قال المصلحة مناجزة القوم ومنعهم من النزول الى

البلد والا فان نزلوا جعلوا الرجالة سوراً لهم وحفروا الخنادق وصعب علينا الوصول اليهم وخيف على البلد منهم وكانت اشارة الجماعة أنهم اذا نزلوا واجتمعت العساكر قلعناهم في يوم واحد وكان الامر كما قال السطان والله لقد سمعت هذا القول وشاهدت الفعل كما قال السلطان . وهو يوافق معنى قوله صلى الله عليه وسلم ان من أمتي لمحدثين ومكلمين وان عمر لمنهم

﴿ ذكر وصول رسول الخليفة ﴾

ولم يزل السلطان مجداً في الانفاذ الى عكا بالميرة والعدد والاسلحة والرجال حتى انقضى الشتاء وانفتح البحر وحان زمان القتال كتب الى العسكر يستدعيها من الاطراف ولما تواصل أوائل العساكر وقوي جيش الاسلام رحل السلطان نحو العدو ونزل على تل كيسان وذلك في ثامن عشر شهر ربيع الاول سنة ست وثمانين ورتب العسكر قلباً وميمنه وميسرة وأخذت العساكر في التواصل والنجدة في التواتر فوصل رسول الخليفة وهو شاب شريف ووصل معه حملان من النفط وجماعة من النفاطين والزراقين ووصل معه من الديوان العزيز النبوي مجده الله تعالى رقعة تتضمن الاذن للسلطان ان يقترض عشرين الف دينار من التجار ينفقها في الجهاد ويحيل بها على الديوان العزيز فقبل جميع ما وصل مع الرسول واستغنى عن الرقعة والتثقيل بها * وفي ذلك اليوم بلغ السلطان ان الافرنج قد زحفوا على البلد وضايقوه فركب اليهم لشغلهم بالقتال عن البلد وقاتلهم قتالا شديداً الى أن فصل بين الطائفتين الليل وعاد كل فريق الى أصحابه ورأى السلطان قوة العساكر الاسلامية وبعد المكان عن العدو فخاف ان لا يهجم البلد ويتم عليه أمر فرأى الانتقال الى تل العجول بالكلية فانتقل بالعسكر والثقل في الخامس والعشرين وفي صبيحة هذا اليوم وصلت كتب أن قد طم العدو بعض الخندق وقوي عزمه على منازلة البلد ومضايقته فجدد الكتب الى العساكر بالحث على الوصول وعبي العسكر تعبية القتال وزحف الى العدو ليشغله عن ذلك * ولما كان سحر ليلة الجمعة السابع والعشرين وصل ولده الملك الظاهر غياث الدين غازي

صاحب حلب جريدة الى خدمته معالجة البر وترك عسكره في المنزلة وخدم والده وبل شوقه منه وعاد الى عسكره في الثامن والعشرين وسار حتى وصل في ذلك اليوم بجحفله وقد أظهروا الزينة ولبسوا لأمة الحرب وكثرت الاعلام والبيارق وضربت الكؤوسات ونعقت البوقات وعرض بين يدي والده وكان قد ركب الى لقائه في المرج وسار بهم حتى وقف بهم على العدو وشاهدوا من جند الله ما أزعجهم وأقلقهم وفي أواخر ذلك اليوم قدم مظفر الدين بن زين الدين جريدة أيضا مسارعة للخدمة ثم عاد الى عسكره في لامة الحرب فعرضهم السلطان حتى وقف بهم على العدو * وكان ماتقدم عسكر الا يعرضهم ويسيرهم الى العدو وينزل بهم فى خيمته يمدلهم الطعام وينعم عليهم بما يطيب به قلوبهم اذا كانوا أجانب ثم تضرب خيامهم حيث يأمر وينزلون بها مكرمين

﴿ لطيفة تدل على سعادة ولده الملك الظاهر عز نصره ﴾

وذلك ان معدو كان قد اصطنع ثلاثة ابراج من خشب وحديد وألبسها الجلود المسقاة بالخل على ماذكر بحيث لا تنفذ فيها النيران وكانت هذه الابراج كانها الجبال نشاهدها من مواضعنا عالية على سور البلد وهي مركبة على عجل يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر على ماقيل ويتسع سطحها لان ينصب عليه منجنيق وكان ذلك قد عمل في قلوب المسلمين وأودعها من الخوف مالا يمكن شرحه وأيس الناس من البلد بالكلية وتقطعت قلوب المقاتلة فيه وكان فرغ من عملها ولم يبق الا جرها الى قريب السور وكان السلطان قد اعمل فكره في احراقها واهلاكها وجمع الصناع من الزراقين والنفاطين وحثهم على الاجتهاد في احراقها ووعدهم عليه بالاموال الطائلة والعطايا الجزيلة وضاقت حيلهم عن ذلك وكان من جملة من حضر شاب نحاس دمشقي ذكر بين يديه ان له صناعة في احراقها وانه ان مكن من الدخول الى عكا وحصلت له الادوية التي يعرفها أحرقها فحصل له جميع ماطلبه ودخل الى عكا وطبخ الادوية مع النفط فى قدور نحاس حتى صار الجميع كانه جمرة نار * ولما

كان يوم وصول الملك الظاهر ضرب واحداً بقدر فلم يكن الا ان وقعت فيه فاشتعل من ساعته ووقته وصار كالجبل العظيم من النار طالعة ذؤابته نحو السماء واستغاث المسلمون بالتهليل وعلاهم الفرح حتى كادت عقولهم تذهب و بينا الناس ينظرون ويتعجبون اذ رمي البرج الثاني بالقدر الثانية فما كان الا أن وصلت اليه واشتعلت كالتي قبلها فاشتد ضجيج الفئتين وانعقدت الاصوات الى السماء وما كان الا ساعه حتى ضرب الثالث فالتهب وغشى الناس من الفرح والسرور ما حرك ذوي الاحلام والنهى منهم حركة الشباب الرعنا وركب السلطان وركبت العساكر ميمنة وميسرة وقلباً وكان أواخر النهار وسار حتى أتى عسكر القوم وانتظر أن يخرجوا فيناجزهم عملا بقوله صلى الله عليه وسلم من فتح له باباً من الخير فلينتهزه فلم يظهر العدو من خيامهم وحال بين الطائفتين الليل وعاد كل فريق الى حزبه ورأى الناس ذلك ببركة قدوم الملك الظاهر واستبشر والده بغرته وعلم أن ذلك بيمن صلاح سريرته واستمر ركوب السلطان اليهم في كل يوم وطلب نزالهم وقتالهم وهم لا يخرجون من خيامهم لعلمهم ببشائر النصر والظفر بهم والعساكر الاسلامية تتواتر وتتواصل

﴿ ذكر وصول عماد الدين زنكي صاحب سنجار وغيره ﴾

ولما كان الثاني والعشرون من ربيع الآخر وصل عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار يجر عسكره ووصل بتجمل حسن وعسكر تام ولقيه السلطان بالاحترام والتعظيم ورتب له العسكر في لقائه وكان أول من لقيه من العسكر المنصور قضاته وكتابه ثم لقيه أولاده بعد ذلك ثم لقيه السلطان ثم صار به حتى أوقفه على العدو وعاد معه الى خيمته وأنزله عنده وكان صنع له طعاماً لائقاً بذلك اليوم فحضر هو وجميع أصحابه وقدم له من التحف واللطائف مالا يقدر غيره عليه وكان قد اكرمه بحيث طرح له طراحة مستقلة الى جانبه و بسط له ثوب أطلس عند دخوله وضرب له خيمة على طرف الميسرة على جانب النهر ولما كان سابع جمادي الاولى من هذه السنة وصل سنجرشاه ابن سيف الدين غازي ابن مودود بن زنكي صاحب الجزيرة ووصل في عسكر حسن فلقيه السلطان واحترمه

وأكرمه وأنزله في خيمته وأمر أن تضرب خيمته الى جانب عماد الدين · وفي تاسع الشهر وصل علاء الدين بن مسعود صاحب الموصل مقدماً على عسكره ففرح السلطان بقدومه فرحاً شديداً وتلقاه عن بعد هو وأهله واستحسن أدبه وأنزله عنده في الخيمة وكارمه مكارمة عظيمة وقدم له تحماً حسنة وأمر بضرب خيمته بين ولديه الملك الافضل والملك الطاهر. وما من أهله الا من بسط له من ضيافته وجهاً مضيئاً * ولما كانت ظهيرة ذلك اليوم ظهرت في البحر قلوع كثيرة وكان رحمه الله في نظره وصول الاسطول من مصر فانه كان قد أمر بتعميره ووصوله فعلم انه هو فركب السلطان وركب الناس في خدمته وتعبى تعبية القتال وقصد مضايقة العدو ليشغله عن قصد الاسطول ولما علم العدو وصول الاسطول استعدوا له وعمروا اسطولا لقتاله ومنعه من دخول عكا وخرج اسطول العدو واشتد السلطان في قتاله من خارج وسار الناس على جانب البحر تقوية للاسطول وايناساً لرجاله والتقى الاسطولان في البحر والعسكران في البر واضطرمت نيران الحرب واستعرت وباع كل فريق روحه راحته الاخروية * ورجح حياته الابدية على حياته الدنيوية * وجرى بين الاسطولين قتال شديد انقشع عن نصرة الاسطول الاسلامي وأخذ من العدو الشواني وقتل من به ونهب جميع ما فيه وظفر من العدو بمركب أيضاً كان واصلاً من قسطنطينية ودخل الاسطول المنصور الى عكا وكان قد صحبه مراكب من الساحل فيها مير وذخائر وطابت قلوب أهل البلد وانشرحت صدورهم فان الضائقة كانت قد أخذت منهم واتصل القتال بين العسكرين من خارج البلد الى ان فصل بينهما الليل وعاد كل فريق الى خيامه وقد قتل من عدو الله وجرح خلق كثير عظيم فانهم قاتلوا في ثلاثة مواضع فان أهل البلد اشتدوا فى قتالهم ليشغلوهم عن الاسطول أيضاً والاسطولان يتقاتلان والعسكر يقاتلهم من البر وكان النصر للمسلمين في الاماكن كلها ثم كان وصول زين الدين صاحب اربل في العشر الاواخر من جمادي الاولى وهو زين الدين يوسف بن علي بن بكتكين قدم بعسكر حسن وتجمل جميل فاحترمه السلطان وأكرمه وأنزله في خيمته وأكرم ضيافته وأمر بضرب خيمته الى جانب أخيه مظفر الدين

﴿ ذكر خبر ملك الالمان ﴾

ثم تواترت الاخبار بوصول ملك الالمان الى بلاد قليج أرسلان وانه نهض للقائه جمع عظيم من التركمان وقصدوا منعه من عبور النهر وأنه أعجزهم لكثرة خلقه وعدم مقدم لهم يجمع كلمتهم وكان قليج أرسلان أظهر شقاقه وهو في الباطن قد أضمر وفاقه ثم لما عبر الى البلاد أظهر ما كان أضمر ووافقه وأعطاه رهائن منه على أن ينفذ معه من يوصله الى بلاد ابن لاون وأنفـذ معه أدلاء وأعترام في الطريق جوع عظيم حتى القوا بعض أقمشتهم * ولقد بلغنا والله أعلم انهم جمعوا عدداً كثيرة من زرديات وخوذ وآلات سلاح عجزوا عن حملها وجعلوها سدرًا واحدا وأضرموا فيها النار لتتلف ولا ينتفع بها أحد وانها بقيت بعد ذلك تلاً من حديد وساروا على هذا الحال حتى أتوا الى بلد يقال لها طرسوس فأقاموا على نهر ليعبروه * وأما ملكهم فعنّ له أن يسبح فيه وكان ماؤه شديد البرد وكان ذلك عقيب ما ناله من التعب والنصب والمشقة والخوف وانه عرض له بسبب ذلك مرض عظيم اشتد به الى أن قتله * ولمـا رأى ما حل به أوصى الى ابنه الذي كان في صحبته ولما مات أجمعوا رأيهم الى أن سلقوه فى خل وجمعوا عظامه فى كيس على أن يحملوه الى القدس الشريف حرسه الله ويدفنوه فى القدس وترتب ابنه مكانه على خلف من أصحابه فان ولده الاكبر كان قد خلفه في بلاده وكان جماعة من أصحابه يميلون اليه واستمر قدم ولده الحاضر في تقدمة العسكر * ولما أحس ابن لاون بما جرى عليهم من الخلل وما حلّ بهم من الجوع والموت والضعف بسبب موت ملكهم رأى أن لا يلقي بنفسه بينهم فانه لا يعلم كيف يكون الامر وهم افرنج وهو أرمني فاعتصم هو عنهم في بعض قلاعه المنيعة

﴿ صورة كتاب الكايفكوس الارمني ﴾

ولقد وصل الى السلطان كتاب من الكايفكوس وهو مقدم الارمن وهو صاحب قلعة الروم التي على طرف الفرات نسخة هـذه ترجمتها * كتاب الداعي المخلص

الكايفكوس ما أطالع به علم مولانا ومالكنا السلطان الناصر جامع كلمة الايمان . وارفع علم العدل والاحسان صلاح الدنيا والدين * سلطان الاسـلام والمسلمين أدام الله اقباله * وضاعف اجلاله . وصان مهجته وكمل نهاية آماله . بعظمته وجلاله . من أمر ملك الالمان وما جرى له عند ظهوره وذلك انه أول ما خرج من دياره ودخل بلاد المنكر غصباً غصب ملك المنكر بالاذعان والدخول تحت طاعته وأخذ من ماله ورجاله ما اختار ثم أنه دخل أرض مقدم الروم وفتح البلاد ونهبها وأقام بها وأخرج ملك الروم الى أن أطاعه وأخذ رهائنه ولده وأخاه وأربعين نفرًا من خلصائه وأخذ منه خمسين قنطارًا ذهباً وخمسين قنطارًا فضة وثياب أطلس بمبلغ عظيم واغتصب المراكب وعاد بها الى هذا الجانب وصحبته الرهائن الى أن دخل حدود بلاد الملك قليج أرسلان ورد الرهائن و بقي سائرًا ثلاثة أيام وتركمان الاوج يلقونه بالاغنام والبقر والخيل والبضائع فداخلهم الطمع وجمعوا جموعاً من جميع البلاد ووقع القتل بين التركمان و بينه وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوماً وهو سائر ولماقرب من قونية جمع قطب الدين ولد قليج ارسلان العساكر وقصده وضرب معه مصافا عظيماً فظفر به ملك الالمان وكسره كسرة عظيمة وسار حتى أشرف على قونية فخرج اليه جموع عظيمة من المسلمين فردهم مكسورين وهجم على قونية بالسيف وقتل منهم عالما عظيما من المسلمين والفرس وأقام بها خمسة أيام فطلب قليج أرسلان منه الامان فأمنه الملك واستقر بينهم قاعدة اكيدة وأخذ الملك منه رهائن عشرين من اكابر دولته وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة ففعل وقبل منه وقبل وصوله الى هذه الديار اختيارًا أو كرهاً اقتضى الحال انفاذ المملوك حاتم وصحبته ما سأل ومعه من الخواص جماعة للقاء الملك وجواب كتابه وكانت الوصية أن يمروا به على بلاد قليج أرسلان ان امكن فلما اجتمعوا بالملك الكبير وأعادوا عليه الجواب عرفوه الاحوال بالانحراف ثم كثرت عليه العساكر والجموع ونزل على شط بعض الانهار وأكل خبزًا ونام وانتبه فتاقت نفسه الى الاستحمام في الماء البارد ففعل ذلك وخرج وكان من أمر الله أن تحرك عليه مرض عظيم من الماء البارد فمكث أياماً قلائل ومات . أما ابن لاون فانه كان سائرًا

يلقي الملك فلما جرى هذا المجرى هرب الرسل من العسكر وتقدموا اليه وأخبروه في الحال فدخل في بعض حصونه واحتمى هناك. وأما ابن الملك فكان أبوه منذ توجه الى قصد هذه الديار نصب ولده الذي معه عوضه واستقرت القاعدة و بلغه هرب رسل ابن لاون فانفذ واستعطفهم وأحضرهم وقال ان أبي كان شيخاً كبيراً وما قصد هذه الديار الا لأجل حج بيت المقدس وأنا الذي دبرت الملك وعاينت المشاق في هذه الطريق فمن أطاعني والا قصدت دياره واستعطف ابن لاون واقتضى الحال الاجتماع ضرورة * و بالجملة فهو في عدد كثير * ولقد عرض عسكره فكان اثنين وأربعين مجفجفاً وأما الرجالة فما يحصى عددهم وهم أجناس متفاوتة على قصد عظيم وجد في أمرهم وسياسة هائلة حتى ان من جنى منهم جناية فليس له جزاء الا ان يذبح مثل الشاة * ولقد بلغهم عن بعض أكابرهم انه جنى على غلام له وجاوز الحد في ضربه فاجتمعت القسوس للحكم فاقتضى الحال والحكم العام ذبحه وشفع الى الملك منهم خلق عظيم فلم يلتفت الى ذلك وذبحه وقد حرموا الملاذ على أنفسهم حتى ان من بلغهم عنه بلوغ لذة هجروه وعزروه كل ذلك كان حزناً على البيت المقدس. ولقد صح عن جمع منهم انهم هجروا الثياب مدة طويلة وحرموا ما حل ولم يلبسوا الا الحديد حتى أنكر عليهم الاكابر ذلك وهم من الصبر على الشقاء والذل والتعب في حال عظيم طالع المملوك بالحال وما يتجدد بعد ذلك يطالع به ان شاء الله تعالى * هذا كتاب الكايفكوس ومعنى هذا اللفظ الخليفة واسمه بركري كور بن باسيل

﴿ ذكر مسير العساكر الى أطراف البلاد في طريق ملك الالمان ﴾

ولما تحقق السلطان وصول ملك الروم الى بلاد ابن لاون وقربه الى البلاد الاسلامية جمع أمراء دولته وأرباب الآراء وشاورهم فيما يصنع فاتفق الرأي على ان العسكر بعضه يسير الى البلاد المتاخمة لطريق عسكر العدو الواصل وان يقيم على منازلة العدو بباقي العسكر المنصور وكان أول من سار صاحب منبج وهو ناصر الدين بن تقي الدين ثم عز الدين بن المقدم صاحب كفرطاب و بارين وغيرهما ثم مجد الدين

صاحب بعلبك ثم صاحب شيزر سابق الدين ثم الباروقية من جملة عسكر حلب ثم عسكر حماه . وسار ولده الملك الافضل مع مرض عرض له تم بدر الدين شحنة دمشق مع مرض عرض له أيضاً وسار بعد ذلك ولده الملك الظاهر الى حلب لابانة الطريق وكشفاً لاخباره وحفظاً لما يليه من البلاد وسار بعده الملك المظفر لحفظ ما يليه من البلاد وتدبير أمر العدو المجتاز * ولما سارت هذه العساكر خفت الميمنة فان معظم من سار منها فامر رحمه الله الملك العادل ان ينتقل الى منزلة تقي الدين في طرف الميمنة وكان عماد الدين زنكي في طرف الميسرة * ووقع في العسكر مرض عظيم فرض مظفر الدين صاحب حران وشفي ومرض بعده الملك الظافر وشفي ومرض خلق كثير من الأكابر وغيرهم الا ان المرض كان سليما بحمدالله وكان المرض عندالعدو اكثر وأعظم وكان مقرونا بموتان عظيم وأقام السلطان مصابراً على ذلك مرابطاً للعدو

﴿ ذكر تمام خبر ملك الالمان ﴾

وذلك ان ولده الذي قام مقامه مرض مرضاً عظيما أقام بسببه بموضع من بلاد ابن لاون وأقام معه خمسة وعشرون فارساً وأر بعون داو يا وجهز عسكره نحو انطاكية حتى يقطعوا الطريق ورتبهم ثلاث فرق لكثرتهم تم ان الفرقة الاولى اجتازت تحت قلعة بغراس يقدمها كند عظيم عندهم وان عسكر بغراس مع قلته أخذ منهم مئتي رجل قهراً ونهباً وكبت جزؤ منهم بالضعف العظيم والمرض الشديد وقلة الخيل والظهر والعدد والآلات * ولما اتصل هذا الخبر بالنواب في البلاد الشامية أنفذوا اليهم عسكراً يكشف أخبارهم فوقع العسكر على جمع عظيم قد خرجوا لطلب العلوفة فاغاروا عليهم غارة عظيمة وقتلوا وأسروا وكان مقدار ما أخذوه وقتلوه على ما ذكره المخبرون في الكتب زهاء خمسمائة نفس *ولقد حضرت رسالة رسول ثان من كبغا الفرس بين يدي السلطان وهو يذكر خبرهم و يقول هم عدد كثير لكنهم ضعاف قليلو الخيل والعدة وأكثر ثقلهم على حمر وخيل ضعيفة قال ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه لاعتبرهم فعبر منهم جمع عظيم ما وجدت مع واحد منهم طارقة ولا رمحاً الا النادر فسألتهم عن ذلك فقالوا

أقمنا بمرج وخم أياماً فقل زادنا وأحطابنا وأوفدنا معظم عددنا ومات منا خلق عظيم واحتجنا الى الخيل فذبحناها وأكلناها وأوقدنا الرماح والعدد لاعواز الحطب . وأما الكند الذي وصل الى انطاكية في مقدمة العسكر فانه مات وذكر ان ابن لاون لما أحس منهم بذلك الضعف طمع فيهم حتي انه عزم على أخذ مال الملك لمرضه وضعفه وقلة جمعه الذي تخلف معه وان البرنس صاحب انطاكية لما أحس منهم بذلك أرسل الى ملك الالمان التقطه الى انطاكية طمعاً في ان يموت عنـده و يأخذ ماله ولم تزل أخبارهم تتواتر بالضعف والمرض الى ان وقعت وقعة العادل على طرف البحر

﴿ ذكر الوقعة العادلية ﴾

ولما كان يوم الار بعاء العشرون من جمادي الآخرة علم عدو الله ان العساكر قد تفرقت وان الميمنة قد خفت لان معظم من سافر كان منها بحكم قرب بلادهم من طريق العدو فاجمعوا رأيهم واتفقت كلمتهم على انهم يخرجون بغتة و يهجمون على طرف الميمنة فجأة وتلاعبت بهم آمالهم فخرجوا ظهيرة النهار وامتدوا ميمنة وميسرة وقلباً وانبثوا في الارض وكانوا عدداً عظيماً واستخفوا طرف الميمنة وكان فيهـا مخيم الملك العادل فلما بصر الناس بهـم قد خرجوا في تعبية القتال صاح صائحهم وخرجوا من خيامهم كالاسود من آجامها وركب السلطان ونادى مناديه يا للاسلام وركبت الجيوش وطلبت الاطلاب (ولقد) رأيته رحمه الله قد ركب من خيمته وحوله نفر يسير من خواصه والناس لم يستتم ركوبهم وهو كالفاقدة ولدها . الثاكلة واحدها . ثم ضرب الكوس وأجابته كوسات الامراء من اماكنها وركب الناس * وأما الافرنج فانهم سارعوا في القصد الى الميمنة حتى وصلوا الى خيمة الملك العادل ودخلوا في طاقه وامتدت أيديهم في السوق وأطراف الخيم بالنهب والغارة وقيل وصلوا الى خيمة الخاص وأخذوا من شراب خاناتها شيئاً * وأما الملك العادل فانه لما علم بذلك ركب وخرج من خيمته واستركب من يليه من الميمنة كالطواشي قايماز النجمي ومن يجري مجراه من أسود الاسلام ووقف وقوف مخادع حتى يوغل بهم طمعهم في الخيم و يشتغلوا في

النهب وكان كما ظن فانهم عاثت أيديهم في الخيام والاقمشة والفواكه والمطاعم فلما علم اشتغالهم بذلك صاح بالناس وحمل بنفسه وحمل حملته من كان يليه من الميمنة واتصل الامر بجميع الميمنة حتى وصل الصائح الى عسكر الموصل وهجموا على العدو هجمة الاسود على فريستها وامكنهم الله منهم ووقعت الكسرة فعادوا يشتدون نحو خيامهم هاربين. وعلى أعقابهم ناكصين . وسيف الله فيهم يلتقط الارواح من الاشباح. ويفصل بين الاجساد والرؤوس . ويفرق بين الابدان والنفوس. ولما بصر السلطان باصطلاء الحرب قد ارتفع مما يلي خيام أخيه ثارت في قلبه نار الاشفاق وحركت الحمية اخوته* وانهضت لرغبة في نصرة دين الله والخوف على اوليائه عزيمته * وصاح صائحه في الناس ياللاسلام وابطال الموحدين هذا عدو الله قد امكن الله منه وقد داخله الطمع حتى غشي خيامكم بنفسه فكان من المبادرين الى اجابة دعوته جماعة من مماليكه وخاصته وحلقته ثم طلب عسكر الموصل يقدمهم علاء الدين ثم عسكر مصر يقدمهم سنقر الحلبي وتتابعت العساكر وتجاوبت الابطال ووقف هو رحمه الله في القلب خشية أن يستضعف العدو القلب بحكم ما أنفذ منه من العساكر فينال غرضاً فتواصلت العساكر واتصل الضرب وقامت سوق الحرب فلم يكن الا ساعة حتى رأيت القوم صرعي كانهم أعجاز نخل خاوية وامتدوا مطروحين من خيام الملك العادل الى خيامهم اولهم في الخيم الاسلامية وآخرهم في خيم العدو صرعى على التلول والوهاد وشربت السيوف من دمائهم حتى رويت * واكلت أسد الوغي باسنان الظفر منهم حتى شبعت . وأظهر الله كلمته . وحقق لعبده نصرته . وكان مقدار ما امتد فيه القتلى فيما بين الخيامين فرسخاً وربما زاد على ذلك ولم ينج من القوم الا النادر . ولقد خضت في تلك الدماء بدابتي واجتهدت في أن أعدهم فما قدرت على ذلك لكثرتهم وتفرقهم وشاهدت فيهم امرأتين مقتولتين وحكى لي من شاهد أربعة نسوة يقاتلن واسر منهن اثنتان وأسر من الرجال في ذلك اليوم نفر يسير فان السلطان كان امر الناس ان لا يستبقوا أحداً هذا كله في الميمنة وبعض القلب وأما الميسرة فما اتصل الصائح بهم الا وقد نجز الامر وقضى القضـــاء على العدو ما بين الظهر والعصر فان العدو

ظهر في قائم الظهيرة وانفصلت الحرب بعد صلاة العصر وانكسر القوم حتى دخلت طائفة من المسلمين وراءهم الى مخيمهم على ما قيل ولم يفقد من المسلمين أحد في ذلك اليوم سوى عشرة أنفس غير معروفين * ولما أحس جند الله بعكا بما جرى من الوقعة فانهم كانوا يشاهدون الوقعة من أعالي السور خرجوا الى مخيم العدو وجرت بينهم مقتلة عظيمة وكانت النصرة للمسلمين بحيث هجموا خيام العدو ونهبوا منها جمعاً من النسوان والاقمشة حتى القدور فيها الطعام ووصل كتاب من المدينة يخبر بذلك وكان يوماً على الكافرين عسيرًا . واختلف الناس في عدد القتلى منهم فذكر قوم انهم ثمانية آلاف . ولقد شاهدت منهم خمسة صفوف أولها في خيم العادل وآخرها في خيم العدو . ولقد لقيت انساناً جندياً عاقلاً يسعى بين صفوف القتلى و يعدهم فقلت له كم عددت فقال لي هاهنا أربعة آلاف ونيف وستون قتيلاً وكان قد عد صفين وهو في الصف الثالث لكن ما مضى من الصفوف كان أكثر عدداً من الباقي وانجلى يوم الاربعاء المذكور بأحسن ما ينجلي عنه الاسلام . ولما كان يوم الخميس الحادي والعشرون من جمادي المذكورة ورد في عصره نجاب من حلب له خمسة أيام يتضمن كتابه ان جماعة عظيمة من العدو الشمالي خرجوا لنهب أطراف البلاد الاسلامية ونهض العسكر الاسلامي من حلب اليهم وأخذ عليهم الطريق ولم ينج منهم الا من شاء الله وكان وقع هذا الخبر عقيب هذه الوقعة المباركة وقعاً عظيماً وضربت البشائر ولم ير صبيحة لتلك العروس أحسن من هذه الصبيحة * وجاءنا بقية ذلك اليوم من اليزك قايماز الحراني وذكر ان العدو قد سأل من جانب السلطان من يصل اليهم ليسمع حديثاً في سؤال الصلح لضعف حلّ بهم ولم يزل عدو الله من حينه مكسور الجناح من الجانبين حتى وصلهم كند يقال له كندهري *

﴿ ذكر وصول الكندهري ﴾

وهذا المذكور من ملوكهم وأعيانهم وصل في البحر في مراكب عدة ومعه من الاموال والذخائر والميرة والاسلحة والرجال عدد عظيم فقوى بوصوله عزمهم واشتد

أزرهم وحدثتهم نفوسهم بطلب العسكر الاسلامي المنصور ليلا وكثر ذلك الحديث على ألسنة المستأمنين والجواسيس فجمع السلطان الامراء وأرباب الرأي واستشارهم فيما يفعل فكان آخر الرأي انهم يوسعون الحلقة ويتأخرون عن العدو رجاء أن يخرج العدو ويبعد عن خيمه فيمكن الله منهم ووافقهم السلطان على ذلك وأوقعه الله في قلبه فرحل الى جبل الخروبة بالعساكر بأسرها وذلك في السابع والعشرين من جمادي الاخرى وترك بقية من العسكر في تلك المنزله كاليزك مقدار الف فارس يتناوبون لحفظ النوبة . هذا والكتب متواصـلة من عكا ومنا اليها على أجنحة الطيور وأيدي السياح والمراكب اللطاف تخرج ليلا وتدخل سرقة من العدو . هذا وأخبار العدو الواصل من الشمال متواصلة بقلة خيله وعدده وما قد عراهم من الموت والمرض وانهم قد اجتمعوا بانطاكية وانهم قد بقوا رجالة وأن أصحابنا عسكر حلب يتخطفون حشاشتهم وعلاقتهم ومن يخرج منهم

﴿ ذكر كتاب وصل من قسطنطينيه يسر الله فتحها ﴾

وكان بين السلطان وبين ملك قسطنطينية مراسلة ومكاتبة وكان وصل منه رسول الى الباب السلطاني بمرج عيون في رجب سنة خمس وثمانين وخمسمائة في جواب رسول كان أنفذه السلطان اليه بعد تقرير القواعد واقامة قانون الخطبة في جامع قسطنطينية فمضى الرسول وألقى الخطبة ولقي احتراماً عظيما واكراماً زائداً وكان قد أنفذ معه في المراكب الخطيب والمنبر وجمعاً من المؤذنين والقراء وكان يوم دخولهم القسطنطينية يوماً عظيما من أيام الاسلام شاهده جمع كثير من التجار ورقى الخطيب المنبر واجتمع اليه المسلمون المقيمون بها والتجار وأقام الدعوة الاسلامية العباسية ثم عاد فعاد معه هذا الرسول يخبرنا بانتظام الحال في ذلك فأقام مدة . ولقد شاهدته يبلغ الرسالة ومعه ترجمان يترجم عنه وهو شيخ أحسن ما يفرض أن يكون من صور المشايخ وعليه زيهم الذي يختص بهم ومعه كتاب وتذكرة والكتاب مختوم بذهب ولما مات وصل الى ملك قسطنطينية خبر وفاته فأنفذ هذا الرسول في تتمة ذلك ووصل معه الكتاب في جواب

ذلك * وصورة ما فسر من الكتاب الواصل معه ووصفه انه كان كتاباً مدرجاً عرضاً وهو دون عرض كتاب بغداد مترجماً ظاهره وباطنه بسطر بن بينهما فرجة وضع فيها الختم والختم من ذهب مطبوع كما يطبع الخاتم في الشمع على ختمه صورة ملك وزن الذهب خمسه عشر ديناراً مضمون السطرين المكتوبين ماهذا صورته

(من ايساكيوس) الملك المؤمن بالمسيح الاله المتوج من الله المنصور العالي أبدا افغقوس المدبر من الله القاهر الذي لا يغلب ضابط الروم بذاته انكلوس الى النسيب سلطان مصر صلاح الدين والمحبة والمودة . قد وصل خط نسبتك الذي أنفذت الى ملكي وقرأناه وعلمنا منه ان رسولنا توفي وحزنا عليه حيث انه توفي في بلد غريب وما قدر أن يتم كل مارسم له ملكي وأمره أن يتحدث به مع نسبتك ويقول في حضرتك ولا بد لنسبتك أن تهتم بانفاذ رسول الى ملكي مع رسولي المتوفي والقماش الذي خلفه ويوجد بعد موته لتعطيه أولاده وأقاربه وما أظن انه يسمع من نسبتك أخباراً ودية وانه قد سافر في بلادي الالمان ولا عجب فان الاعداء يرجفون باشياء مكذوبة على قدر أغراضهم ولو تشتهي ان تسمع الحق فانهم قد تأدوا وتعبوا كثيراً اكثر مما أوذي فلاحوا بلادك وقد خسروا كثيراً من المال والدواب والرجال ومات منهم وقتلوا وبالشدة قد تخلصوا من أيدي أجناد بلادي وقد ضعفوا بحيث انهم لا يصلون الى بلادك فان وصلوا كانوا ضعافاً بعد شدة كبيرة لا ينفعون جنسهم ولا يضرون نسبتك . وبعد ذلك كيف نسيت الذي بيني وبينك وكيف ما عرفت لملكي شيئاً من المقاصد والمهمات . ما ربح ملكي من محبتك الا عداوة الافرنج وجنسهم * فوقف رحمه الله على هذه الترجمة واكرم الرسول وأحسن مثواه . وكان شيخاً حسن الخلق نبيهاً عارفاً بالعربية والرومية والافرنجية * ثم ان الافرنج شدوا في حصار البلد وضايقوه لما قد حدث لهم من القوة بوصول الكندهري فانه وصل على ما ذكر والله أعلم في عشرة آلاف مقاتل ووصلتهم نجدة أخرى في البحر قويت بها قلوبهم ونازلوا البلد بالقتال



﴿ ذكر حريق المنجنيقات ﴾

وذلك ان العدو لما أحس في نفسه بقوته بسبب توالي النجدات عليهم اشتد طمعهم في البلد وركبوا عليه المنجنيقات من كل جانب وتناوبوا عليها بحيث لا يتعطل رميها ليلاً ولا نهارًا وذلك في اثناء رجب . ولما رأى أهل البلد ما نزل بهم من مضايقة العدو وتعلق طمعهم بهم حركتهم النخوة الاسلامية وكان مقدموه حينئذ اما والي البلد وحارسه فالامير الكبير بهاء الدين قراقوش * واما مقدم العسكر فالامير الكبير الاسفهسلار حسام الدين أبو الهيجاء وكان رجلا ذا كرم وشجاعة وتقدم في عشيرته * ومضاء في عزيمته فاجتمع رأيهم على أنهم يخرجون الى العدو فارسهم وراجلهم على غرة وغفلة منهم ففعلوا ذلك وفتحت الابواب وخرجوا دفعة واحدة من كل جانب ولم يشعر العدو الا والسيف فيهم حاكم عادل * وسهم قـدر الله وقضائه فيهم نافذ نازل * وهجم الاسلام على الكفر في منازله * وأخذ بناصية مناضله ورأس مقاتله * ولما ولج المسلمون لخيام العدو ذهلوا عن المنجنيقات وحياطتها وحراستها * وحفظها وسياستها * فوصلت شهب الزراقين المقذوفة * وجاءت عوائد الله في نصرة دينه المألوفة * فلم تكن ساعة حتى اضطرمت فيها النيران * وتحرقت منها بيدها ما شيده الاعداء في المدة الطويلة في أقرب آن * وقتل من العدو سبعون فارسا وأسر خلق عظيم وكان من جملة الاسرى رجل مذكور منهم ظفر به واحد من آحاد الناس ولم يعلم بمكانته . ولما انفصل الحرب سأل الافرنج عنه هل هو حي أم لا فعرف الذي هو عنده عند سؤالهم أنه رجل كبير فيهم وخاف أن يغلب عليه ويرد عليهم بنوع مصانعة أو على وجه من الوجوه فسارع وقتله وبذل الافرنج فيه أموالاً كثيرة ولم يزالوا يشتدون في طلبه ويحرصون عليه حتى رميت لهم جثته فضربوا بنفوسهم الارض وحثوا على رؤوسهم التراب ووقعت عليهم بسبب ذلك خمدة عظيمة وكتموا أمره ولم يظهروا من كان واستصغر المسلمون بعد ذلك أمرهم وهجم عليهم العرب من كل جانب يسرقون وينهبون ويقتلون ويأسرون الى ليلة نصف شعبان وكان الكندهري قد أنفق على منجنيق كبير عظيم الشكل على ما نقل

الجواسيس والمستأمنون الفاً وخمسمائة دينار وأعده ليقدمه الى البلدومنع من حريقه في ذلك اليوم كونه بعيداً عن البلد لم يقدم بعد اليه * ولما كانت الليلة المباركة المذكورة خرج الزراقين والمقاتلة تحفظهم من كل جانب والله يكلأهم فساروا من تحت ستر الله حتى أتوا المنجنيق المذكور وأضرموا فيه النار فاحترق من ساعته ووقع الصياح من الطائفتين وذهل العدو فانه كان بعيداً من البلد وخافوا ان يكونوا قد أحيط بهم من الجوانب وكان نصراً من عند الله وأحرق بلهيبة منجنيقاً لطيفاً الى جانبه

﴿ ذكر الحيلة وادخال عكة بطسة عمرها وأودعها أربعمائة ﴾
﴿ غرارة من القمح ووضع فيها الجبن والبصل ﴾
﴿ والغنم وغير ذلك من الميرة ﴾

وكان الافرنج خذلهم الله قد أداروا مراكبهم حول عكا حراسة لها من أن يدخلها مراكب المسلمين وكانت قد اشتدت حاجة من فيها الى الطعام والميرة فركب في بسطة بيروت جماعة من المسلمين وتزيوا بزي الافرنج حتى حلقوا لحاهم ووضعوا الخنازير على سطح البسطة بحيث ترى من بعد. وعلقوا الصلبان وجاؤا قاصدين البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدو فخرجوا اليهم واعترضوهم في الحراقات والشواني وقالوا لهم نراكم قاصدين البلد واعتقدوا انهم منهم فقالوا أو لم تكونوا قد أخذتم البلد فقالوا لم نأخذ البلد بعد فقالوا نحن نرد القلوع الى العسكر وقد أتى بطسة أخرى في هوائنا فأنذروهم حتى يدخلوا البلد وكان وراءهم بطسة افرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدة العسكر فنظروا فرأوها فقصدوها ينذرونها فاشتدت البطسة الاسلامية في السير واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد وسلمت ولله الحمد . وكان فرحاً عظيماً فان الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد وكان ذلك في العشر الاواخر من رجب

﴿ ذكر قصة العوام عيسى ﴾

ومن نوادر هذه الوقعة ومحاسنها ان عواماً مسلماً يقال له عيسى وصل الى البلد

بالكتب والنفقات على وسطه ليلا على غرة من العدوّ وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب وكان ذات ليلة شدّ على وسطه ثلاثة أكياس فيها الف دينار وكتب للعسكر وعام في البحر فجرى عليه أمر أهلكه وأبطأ خبره عنا. وكانت عادته اذا دخل البلد أطار طيرًا عرفنا بوصوله فأبطأ الطير فاستشعرنا هلاكه. ولما كان بعد أيام بعدبينا الناس على طرف البحر في البلد اذا هو قذف شيئا غريقا فتفقدوه فوجدوه عيسى العوام ووجدوا على وسطه الذهب وشمع الكتب وكان الذهب نفقة للمجاهدين فما رؤي من أدى الامانة في حال حياته وقد ردّها في مماته الا هذا الرجل وكان ذلك في العشر الآخر من رجب أيضا

﴿ ذكر حريق المنجنيقات ﴾

وذلك ان العدو كان نصب على البلد منجنيقات هائلة حاكمة على السور وان حجارتها تواترت حتى أثرت في السور أثرًا بينا وخيف من غائلاتها فأخذ سهمان من سهام الجرخ العظيم فأحرق نصلاهما حتى بقيا كالشعلة من النار ثم رميا فى المنجنيق الواحد فعلقا فيه واجتهد العدو فى اطفائهما فلم يقدر على ذلك وهبت ريح شديدة فاشتعل اشتعالا عظيما واتصلت لهبته بالآخر فأحرقته واشتد نارهما بحيث لم يقدر أحد أن يقرب من مكانهما ليحتال في اطفائهما وكان يوما عظيما اشتد فيه فرح المسلمين وساءت عاقبة الكافرين

﴿ ذكر تمام حديث ملك الالمان والحيلة التي عملها المركيس ﴾

ولما استقر قدم ملك الالمان في انطاكية أخذها من صاحبها وحكم فيها وكان بين يديه فيها ينفذ أوامره فأخذها منه غيلة وخديعة وأودعها خزائنه وسار عنها في الخامس والعشرين من رجب متوجها نحو عكا في جيوشه وجموعه على طريق اللاذقية حتى الى طرابلس وكان قد سار اليه من معسكر الافرنج يلتقيه المركيس صاحب صور وكان من أعظمهم حيلة وأشدهم بأسا وهو الاصل في تهييج الجموع من وراء البحر *

وذلك انه صوّر القدس في ورقة وصور فيـــه صورة القيامة التي يحجون اليها ويعظمون شأنها وفيه قبـة قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه بزعمهم وذلك القبر هو أصل حجهم وهو الذي يعتقدون نزول النور عليه في كل سنة فى عيد من أعيادهم وصور على القبر فرساً عليـــه فارس مسلم راكب عليه وقد وطئ قبر المسيح وبال الفرس على القبر وأبدى هذه الصورة وراء البحر في الاسواق والمجامع والقسوس يحملونها ورؤسهم مكشوفة وعليهم المسوح وينادون بالويل والثبور . والصور عمل في قلوبهم فانها أصل دينهم فهاج بذلك خلق لا يحصى عددهم الا الله وكان من جملتهم ملك الالمـــان وجنوده فلقيهم المركيس لكونه أصلا في استدعائهم الى هذه الواقعـة فلما اتصل به قوى قلبه ونصره بالطرق وسلك به الساحل خوفاً من انه اذا أتى على بلاد حلب وحماة ثار لهم المسلمون من كل جانب وقامت عليهم كلمة الحق من كل صوب . ومع ذلك لم يسلموا من شن الغارات عليهم فان الملك المظفر قصـدهم بعساكره وجمع لهم جموعاً وهجم عليهم هجوماً عظيما أخذ فيه من أطراف عســاكره وكان قد لحقهم بأوائل عسكره ولو لحقهم الملك الظاهر بعساكره لقضى عليهم ولكن لكل أجل كتاب واختلف حزر النــاس لهم . ولقــد وقفت على كتب بعض المخبرين بالحرب فقد حزر فارسهم وراجلهم بخمسة آلاف بعد ان كانوا قد خرجوا على ما ذكر فانظر الى صنع الله مع أعدائه * ولقد وقفت على بعض الكتب فذكر فيه انهم لما ساروا من اللاذقية يريدون جبلة وجدوا في أعقابهم نيفاً وستين فرساً قد عطبت وانتزع لحمها ولم يبق فيها الا العظام من شدة الجوع ولم يزالوا سائرين وأيدي المسلمين تخطفهم من حولهم نهباً وقتلاً وأسراً حتى أتوا طرابلس ووصل خبر وصوله بكرة الثلاثاء ثامن شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة هذا والسلطان ثابت الجاش راسخ القدم لا يرده ذلك عن حراسة عكا والحماية لها ومراصدة العسكر النازل بها وشن الغارات عليها والهجوم عليهم في كل وقت مفوّضاً أمره الى الله معتمدا عليـــه منبسط الوجه لقضاء حوائج الناس مواصلا يسره من يفد اليـــه من الفقراء والفقهاء والمشايخ والادباء * ولقد كنت اذا بلغنى هذا الخبر تأثرت حتى دخلت عليه واجدمنه

من قوة الله وشدة البأس ما يشرح صدري وأتيقن معه نصرة الاسلام وأهله

﴿ ذكر وصول البطس من مصر ﴾

ولما كان العشر الاوسط من شعبان كتب بهاء الدين قراقوش وهو والي البلد والمقدم على الاسطول والحاجب لؤلؤ يذكران السلطان انه لم يبق بالبلد ميرة الا قدر يكفي الى ليلة النصف من شعبان لاغير فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لخاص ولا لعام خشية الشيوع والبلوغ الى العدو فتضعف به قلوب المسلمين وكان قد كتب الى مصر بتجهيز ثلاث بطس مشحونة بالاقوات والادم والمير وجميع ما يحتاج اليه في الحصار بحيث يكفيهم ذلك طول الشتاء وأقلعت البطس الثلاث من الديار المصرية ولججت في البحر تتوقى النوتية بها الريح حتى ساروا بالريح التي تحملها الى نحو عكا ولم يزالوا كذلك حتى وصلوا الى عكا ليلة النصف من شعبان المذكور وقد فنى الزاد ولم يبق عندهم ما يطعمون الناس في ذلك اليوم وخرج عليها أسطول العدو يقاتلها والعساكر الاسلامية تشهد ذلك من الساحل والناس في تهليل وتكبير وقد كشف المسلمون رؤوسهم يبتهلون الى الله تعالى في القضاء بتسليمها الى البلد والسلطان على الساحل كالوالدة الثكلى يشاهد القتال و يدعو ربه بنصره وقد علم من شدة القوم مالم يعلمه غيره وفي قلبه مافي قلبه والله يثبته ولم يزل القتال ولم يعمل حول البطس من كل جانب والله يدفع عنها والريح يشتد والاصوات قد ارتفعت من الطائفتين والدعاء يخرق الحجب حتى وصلوا سالمين الى مناء البلد وتلقاهم أهل عكا تلقي الامطار عن جدب وامتاروا مافيها وكانت ليلة بليال

﴿ ذكر محاصرة برج الذباب ﴾

ولما كان الثاني والعشرون من شعبان جهز العدو بطسا متعددة لمحاصرة برج الذباب وهو برج في وسط البحر مبني على الصخر على باب ميناء يحرس به المينا ومتى عبره المراكب أمن غائلة العدو فأراد العدو أخذه ليبقى الميناء بحكمه ويمنع الدخول اليه بشيء

من البطس فتنقطع الميرة عن البلد فجعلوا على صواري البطس برجا وملأوه حطبا على انهم يسيرون البطس فاذا قاربت برج الذباب ولاصقته أحرقوا البرج الذي على الصاري وألصقوه ببرج الذباب ليلقوه على سطحه ويقتل من عليه من المقاتلة ويأخذوه وجعلوا في البطسة وقودا كثيرا حتى يلقى في البرج اذا اشتعلت النار فيه وعبوا بطسة ثانية وملؤوها حطبا ووقودا على انهم يدفعون بها الى أن تدخل بين البطس الاسلامية ثم يلهبونها فتحرق البطس الاسلامية ويهلك مافيها من الميرة وجعلوا في بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو بحيث لايحصل لهم نشاب ولا شيء من آلات السلاح حتى اذا أحرقوا ما أرادوا احراقه دخلوا تحت ذلك القبو فأمنوا وقدموا البطس نحو البرج المذكور وكان طمعهم يشتد حيث كان الهواء مصعدًا لهم فلما أحرقوا البطسة التي أرادوا أن يحرقوا به من على برج الذباب فأوقدوا النار وضربوا فيها النفط انعكس الهواء عليهم كما شاء الله تعالى وأرادوا اشتعلت البطسة التي كان بها بأسرها واجتهدوا في اطفائها فما قدروا وهلك من كان فيها من المقاتلة الا من شاء الله واحترقت البطسة التي كانت معدة لاحراق بطسنا ووثبت أصحابنا عليها فأخذوها اليهم * وأما البطسة التي كانت فيها القبو فانهم انزعجوا وخافوا وهموا بالرجوع واختلفوا واضطربوا اضطرابا عظيما فانقلبت وهلك جميع من كان بها لانهم كانوا في قبو لم يستطيعوا الخروج منها وكان ذلك من أعظم آيات الله وأندر العجائب في نصرة دين الله * وكان يوما مشهودا

﴿ ذكر وصول الالمان الى عسكرهم المخذول ﴾

عدنا الى حديث ملك الالمان وذلك أنه أقام بطرابلس حتى استجم عسكره وأرسل الى النازلين على عكا يخبرهم بقدومه اليهم وقد حموا من ذلك لان المركيس صاحب صور هو رب مشورته وصاحب دولته * وكان الملك جفري وهو ملك الساحل بالعسكر هو الذي يرجع اليه في الامور فعلم انه مع قدوم الالماني لا يبقى له حكم * ولما كان العشر الآخر من شعبان أزمع رأيه على المسير في البحر لعلمه أنه ان لم يركب البحر نكب وأخذت عليه الطريق والمضايق فأعدوا المراكب وأنفذت اليه من كل جانب

ونزل فيها هو وعسكره وخيلهم وعدتهم وساروا يريدون العسكر فلم تمض الا ساعة من النهار حتى قامت عليهم ريح عاصف وثار عليهم الموج من كل مكان وأشرفوا على الهلاك وهلك منهم ثلاثة مراكب حمالة وعاد الباقون يرصدون هواء طيباً فأقاموا أياماً حتى طابت لهم الريح وساروا حتى أتوا صور فأقام المركيس والالماني بها وأنفذوا بقية العساكر الى المعسكر النازل في عكا وأقاما بصور الى ليلة السادس من رمضان وسار الالماني وحده في البحر حتى وصل معسكرهم غروب الشمس من ذلك اليوم في نفر يسير * هكذا أخبر الجواسيس والمستأمنون عنهم * ولقد كان لقدومه وقع عظيم من الطائفتين وأقام أياماً وأراد أن يظهر لمجيئه أثر فوبخ القوم على طول مقامهم وحسن في رأيه أن يضرب مصاف مع المسلمين فخوفوه من الاقدام على هذا الامر وعاقبته فقال لا بد من الخروج على اليزك ليذوق قتال القوم ويعرف مراسهم ويتبصر بأمرهم فليس الخبر كالعيان فخرج على اليزك الاسلامي واتبعه معظم الافرنج راجلهم وفارسهم وخرجوا حتى قطعوا الوهاد التي بين تلهم وتل العياضية وعلى تل العياضية خيم اليزك وهي نوبة الحلقة السلطانية المنصورة في ذلك اليوم فوقفوا في وجوههم وقاتلوهم وأذاقوهم طعم الموت وعرف السلطان ذلك فركب من خيمته بجفلة وسار حتى أتى تل كيسان فلما رأى العدو العساكر الاسلامية صوبت نحوه سهام قصدها وأتته من كل جانب كقطع من الليل المظلم عاد ناكصاً على عقبه وقتل منهم وجرح خلق كثير والسيف يعمل فيهم من أقفيتهم وهم هاربون حتى وصلوا المخيم غروب الشمس وهو لا يعتقد سلامة نفسه من شدة خوفه وفصل الليل بين الطائفتين وقتل من المسلمين اثنان وجرح جماعة كثيرة وكانت الكسرة على أعداء الله *ولما عرف ملك الالمان ما جرى عليه وعلى أصحابه من اليزك الذي هو شرذمة من العسكر وهو جزوء من كل رأي أن يرجع الى قتال البلد ويشتغل بمضايقته فاتخذ من الآلات العجيبة والصنائع الغريبة ماهال الناظر اليه من شدة الخوف على البلد واستشعر أخذ البلد من تلك الآلات وخيف منها عليه فأحدثوا آلة عظيمة تسمى دبابة يدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم ملبسة بصفائح الحديد ولها من تحتها عجل تحرك به من داخل وفيها من المقاتلة حتى

ينطح بها الصور ولها رأس عظم برقبة شديدة من حديد وهي تسمى كبشاً ينطح بها الصور بشدة عظيمة لانه يجرها خلق عظيم فتهدمه بتكرار نطحها * وآلة أخرى وهي قبو فيه رجال السحب لذلك الا أن رأسها محــدد على شكل السكة التي يحرث بها ورأس البرج مدوّر وهذا يهدم بثقله وتلك تهدم بحدتها وثقلها وهي تسمى سنوراً . ومن الستائر والسلالم الكبار الهائلة . وأعدوا في البحر بطسة هائلة وضعوا فيها برجاً بخرطوم اذا أرادوا قلبه على السور انقلب بالحركات ويبقى طريقاً الى المكان لذي ينقلب عليه تمشي عليه المقاتلة وعزموا على تقريبه الى برج الذباب ليأخذوه به

﴿ذكر حريق برج الكبش وغيره من الآلات﴾

وذلك ان العدو لمـا رأى آلاته قد تمت واستكملت شرع في الزحف على البلد ومقاتلته من كل جانب وأهل البلد كلما رأوا ذلك اشتدت عزائمهم في نصرة دين الله وقويت قلوبهم على المصابرة * ولمـا كان يوم الاثنين ثالث شهر رمضان من السنة المذكورة وهي الذي قدمت فيه العساكر من الشام في أحسن زي وأجمـل ترتيب واكمل عدة مع ولده صاحب حلب وسابق الدين صاحب شيزر ومجد الدين صاحب بعلبك وكان السلطان التاث مزاجه الكريم بحمى صفراوية فركب في ذلك اليوم وكان عيدا من وجوه متعددة وفي ذلك اليوم زحف العدو على البلد في خلق لا يحصى عددهم الا الله فاهملهم أهـل البلد وشجعان المقاتلة الذين فيه وذوو الآراء المتفقة من مقدمي المسلمين حتى نشبت مخاليب أطماعهم في البلد وسحبوا آلاتهم المذكورة حتى قاربوا ان يلصقوها بالسور وتحصن منهم في الخندق جماعة عظيمة وأطلقوا عليهم سهام الجروخ وأحجار المنجنيق وأقواس الرمي والنيران وصاحوا عليهم صيحة الرجل الواحد وفتحوا الابواب و باعوا نفوسهم لخالقها و بارئها * ورضوا بالصفقة الموعود بها وهجموا على العدو من كل جانب وكبسوهم في الخنادق وأوقع الله الرعب في قلب العدو وأعطي ظهره الهزيمة وأخذوا مشتدين هاربين * على أعقابهم ناكصين * يطلبون خيامهم والاحتماء باسوارهم لكثرة ما شاهدوا وذاقوا من الجرح والقتل و بقي

في الخندق خلق عظيم وقع فيهم السيف وعجل الله بارواحهم الى النار * ولما رأى المسلمون ما نزل بالعدو من الخذلان والهزيمة هجموا على كبشهم فألقوا فيه النار والنفط وتمكنوا من حريقه فاحرقوه حريقًا شنيعاً وظهرت له لهبة عظيمة نحو السماء وارتفعت الاصوات بالتكبير والتهليل * والشكر للقوي الجليل * وسرت نار الكبش بقوتها الى السنور فاحترق وعلق المسلمون في الكبش الكلاليب الحديدية المصنوعة في السلاسل فسحبوه وهو يشتعل حتى حصلوه عندهم في البلد وكان مركبًا من آلات هائلة عظيمة ألقي الماء عليه حتى برد حديده بعد ايام * و بلغنا من اليزك ان وزن ما كان عليه من الحديد يبلغ مائة قنطار بالشامي والقنطار مائة رطل والرطل الشامي بالبغدادي أربعة أرطال وربع رطل * ولقد أنفذ رأسه الى السلطان ومثل بين يديه وشاهدته وقلبته وشكله على مثل السفود الذي يكون بحجر المدار قيل انه ينطح به فيهدم ما يلاقيه* وكان ذلك من أحسن أيام الاسلام ووقع على العدو خذلان عظيم ورفعوا ما سلم من آلاتهم وسكنت حركاتهم التي ضيعوا فيها نفقاتهم وتحيرت أبصار حيلهم واستبشر السلطان بغرة ولده واستبارك بها حيث وجد النصر مقرونًا بقدومه مرة بعد أخرى * وثانية بعد أولى * ولما كان يوم الاربعاء الخامس عشر رمضان خرج أصحابنا من الثغر المحروس في شوان على بغتة من العدو وضربوا البطسة المعدة لاخذ برج الذباب بقوارير نفط فاحترقت وارتفع لهبها في البحر ارتفاعاً عظيما وحزن الالمان لذلك حزنًا شديدًا وغشيته كآبة عظيمة ووقع عليهم خذلان عميم * ولما كان يوم الخميس السادس عشر الشهر وصل كتاب طائر في طي كتاب وصل من حماه قد طار به الطائر من حلب يذكر فيه ان البرنس صاحب انطاكية خرج بعسكره نحو القرى الاسلامية التي تليه لشن الغارات عليها فبصرت به العساكر ونواب الملك الظاهر فكمنت له الكمينات فلم يشعر بهم الا والسيف قد وقع فيهم فقتل منهم خمسة وسبعون نفرًا وأسر خلق عظيم واستعصم بنفسه في موضع يسمى تيجا حتى اندفعوا وسار الى بلده * وفي اثناء العشر الاوسط ألقت الريح بطستين فيها رجال وصبيان ونساء وميرة عظيمة وغنم كثيرة قاصدين نحو العدو فغنمها المسلمون * وكان العدو قد ظفر منا بزورق فيه نفقة ورجال

أرادوا الدخول الى البلد فاخذوه فوقع الظفر بهاتين البطستين ماحياً لذلك وجابراً له ولم تزل الاخبار بعد ذلك تتواصل على ألسنة الجواسيس والمستأمنين ان العدو قد عزم على الخروج الى العسكر الاسلامي خروج مصاف ومنافسة والتاث مزاج السلطان بحمى صفراوية فاقتضى الحال تأخر العسكر الى جبل سفرعم * وكان انتقاله تاسع عشر رمضان فنزل السلطان على أعلى الجبل ونزل الناس على رؤوس التلال للاستعداد للشتاء والاستراحة من الوحل * وفي ذلك اليوم مرض زين الدين يوسف بن زين الدين صاحب أربل مرضاً شديداً بحمين مختلفتي الاوقات واستأذن في الرواح فلم يؤذن له فاستاذن في الانتقال الى الناصرة فأذن له في ذلك اليوم وأقام بالناصرة أياماً عديدة يمرض نفسه فاشتد به المرض الى ليلة الثلاثاء ثامن عشري رمضان وتوفي رحمه الله وعنده أخوه مظفر الدين يشاهده وحزن الناس عليه لمكان شبابه وغربته وأنعم السلطان على أخيه مظفر الدين ببلده واستنزله عن بلاده التي كانت في يده وهي حران والرها وما يتبعهما من البلاد والاعمال وضم اليه بلد شهرزور أيضاً واستدعى الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه ليكون نازلا مكانه جابراً لخلل غيبته وأقام مظفر الدين في نظرة قدوم تقي الدين * ولما كان ضحاء نهار ثالث شوال قدم وقد عاد صحبة معز الدين

﴿ ذكر قصة معز الدين ﴾

وهذا معز الدين هو سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي وهو صاحب الجزيرة اذ ذاك وكان من قصته انه حضر للجهاد وقد ذكرت تاريخ وصوله وانه أخذ منه الضجر والسآمة والقلق بحيث ترددت رسله ورقاعه الى السلطان في طلب الدستور والسلطان يعتذر اليه بان رسل العدو متكررة في معنى الصلح ولا يجوز ان تنفض العساكر حتى تتميز على ماذا ينفصل الحال من سلم أو حرب وهو لا يألوا جهداً في طلب الدستور الى ان كان يوم عيد الفطر من سنة ست وثمانين وحضر سحر ذلك اليوم في باب الخيمة السلطانية فاستأذن في الدخول فاعتذر اليه بالتياث

كان قد عرى مزاج السلطان فلم يقبل العذر وكرر الاستئذان فاذن له في الدخول فلما مثل بالخدمة استأذن في الرواح شغلها فذكر له السلطان العذر بذلك وقال هذا وقت تقدم العساكر وتجمعها لا وقت تفرقها فانكب على يده وقبلها كالمودع له ونهض من ساعته وسار وأمر أصحابه أن ألقوا القدور فيها الطعام وقلعوا الخيم وتبعوه فلما بلغ السلطان صنيعه أمر بانشاء مكاتبة اليه يقول فيها «انك أنت قصدت الانتماء اليَّ ابتداء وراجعتني في ذلك مرارًا وأظهرت الخيفة على نفسك وقلبك وبلدك من أهلك فقبلتك وآويتك ونصرتك و بسطت يدك في أموال الناس ودمائهم وأعراضهم فانفذت اليك ونهيتك عن ذلك مرارًا فلم تنته واتفق وقوع هذه الواقعة للاسلام فدعوناك فأتيت بعسكر قد عرفته وعرفه الناس وأقمت هذه المدة المديدة وقلقت هذا القلق وتحركت هذه الحركة وانصرفت عن غير طيب نفس وغير فصل حال مع العدو. فانظر لنفسك وابصر من تنتمي اليه غيري واحفظ نفسك ممن يقصدك فمالي الى جانبك التفات» وسلم الكتاب الى نجاب فلحقه قريبًا من طبرية فقرأ الكتاب ولم يلتفت وسار على وجهه . وكان الملك المظفر تقي الدين قد استدعى الى الغزاة بسبب حركة مظفر الدين على ما سبق شرحه فلقيه في الطريق في موضع يسمي عقبة ميق فرآه محنقا ولم ير عليه أمارات حسنة وسأله عن حاله فاخبره بامره وتعتب على السلطان كيف لم يخلع عليه ولم يأذن له ففهم الملك المظفر انفصاله من غير دستور من السلطان وانه على خلاف اختياره فقال له المصلحة لك ان ترجع الى الخدمة وتلازم الى ان يأذن لك وأنت صبي ولم تعلم غائلة هذا الامر فقال ما يمكني الرجوع فقال ترجع عن غير يد فليس في الرواح على هذا الوجه لك راحة أصلاً فأصر على الرواح فخشى عليه وقال ترجع من غير اختيارك وكان تقي الدين شديد البأس مقداماً على الامور ليس في عينه من أحد شيءٌ فلما علم انه قابضه ان لم يرجع باختياره رجع معه حتى أتى العسكر وخرج الملك العادل ونحن في خدمته الى لقاء الملك المظفر فوجدناه معه فدخلا به على السلطان وسألاه الصفح عنه وطلب ان يقيم في جوار تقي الدين خشية على نفسه فاذن له فأقام في جواره الى حين ذهابه

﴿ ذكر طلب عماد الدين الدستور ﴾

وذلك ان عماد الدين زنكي عم المذكور الح" في طلب الدستور وشكا هجوم الشتاء عليه مع عدم الاستعداد له والسلطان يعتذر اليه بان الرسل متواترة بيننا وبين العدو في الصلح وربما انتظم فينبغي ان يكون انتظامه بحضوركم فالرأي مشترك واستأذن في ان يحمل اليه خيام الشتاء فلم يفعل وان يحمل اليه نفقة فلم يفعل وتكررت منه الرسل الى السلطان في المعنى والسلطان يكرر الاعتذار * ولقد كنت بينهم في شيء من ذلك وكان عند عماد الدين من العزم على الرواح ما يجاوز كل وصف وعند السلطان من إمساكه الى ان يفصل أمر بيننا و بينهم ما لا يحمد وآل الامر الى ان يكتب عماد الدين بخطه و يطلب فيه الاذن في الرواح وتلين فيها وتخشن فأخذها السلطان وكتب في ظهرها بيده الكريمة * من ضيع مثلي من يده * فليت شعري ما استفاد * فوقف عماد الدين عليها وانقطعت مراجعته بالكلية

﴿ ذكر خروج العدو الى رأس الماء ﴾

وتواترت الاخبار بضعف العدو ووقوع الغلاء في بلادهم وعسكرهم حتى ان الغرارة من القمح بلغت في انطاكية ستة وتسعين دينارًا صورية ولا يزيدهم ذلك الاصبرًا واصرارًا وعنادًا * ولما ضاق بهم الامر وعظم الغلاء وخرج منهم خلق عظيم مستأمنين من شدة الجوع عزموا على الخروج الينا وكان طمعهم بسبب مرض السلطان فظنوا انه لا يستطيع النهوض * وكان خروجهم يوم الاثنين حادي عشر شوال بخيلهم ورجلهم حاملين أزوادًا وخيامًا الى الآبار التي استحدثها المسلمون تحت تل الحجل لما كانوا نزولاً عليه وأخذوا عليق أربعة أيام فاخبر رحمه الله بخروجهم على هذا الوجه فأمر اليزك ان يتراجع من بين أيديهم الى تل كيسان وكان اليزك على العياضية وكان نزول العدو على الآبار بعد صلاة العصر من اليوم المذكور و باتوا تلك الليلة واليزك حولهم جميع الليل فلما طلع الصبح جاء من اليزك من أخبره بانهم قد تحركوا للركوب

وكان قد أمر الثقل في أول الليل ان يسيروا الى الناصرة والقيمون فرحل الثقل و بقي الناس وكنت في جملة من أقام في خدمته وأمر العسكر ان يركب ميمنة و يسرة وقلباً تعبية القتال وركب هو وصاح الجاويش بالناس فركبوا وسار حتى وقف على تل من جبال الخروبة وابتدأت الميمنة بالمسير فسارت حتى بلغ آخرها الجبل وسارت الميسرة حتى بلغ آخرها النهر بقرب البحر فكان في الميمنة ولده الملك الافضل صاحب دمشق وولده الملك الظاهر صاحب حلب وولده الملك الظافر صاحب بصرى وولد عز الدين صاحب الموصل علاء الدين خرم شاه ثم أخوه في طرفها و يليه قريباً منه حسام الدين لاجين والطواشي قايماز النجمي وعز الدين جرديك النوري وحسام الدين بشاره صاحب بانياس وبدر الدين دلدرم وجمع كثير من الامراء وكان في الميسرة عماد الدين زنكي صاحب سنجار وابن أخيه معز الدين صاحب الجزيرة وفي طرفها الملك المظفر تقي الدين ابن أخيه وكان عماد الدين زنكي غائباً مع الثقل لمرض كان ألم به وبقي عسكره وكان في الميسرة سيف الدين علي المشطوب وجميع المهرانية والهكارية وخشترين وغيرهم من الامراء الاكراد وفي القلب الحلقة السلطانية . وتقدم السلطان ان يخرج من كل عسكر جمع من الجاليش وان يدوروا حول العسكر واليزك معهم واخفي بعض الاطلاب وراء التل عسام ان يجدوا غرة من العدو * ولم يزل عدو الله يسير و الناس من جميع جوانبه وهو سائر على شاطئ النهر من الجانب الشرقي حتى رأس العين وداروا حوله حتى عبروا الجانب الغربي ونزلوا والقتال يتلقف منهم الابطال و يصرع منهم الرجال . وكان نزولهم على تل هناك وضربوا خيامهم هناك ممتدة منه الى النهر وجرح منهم في ذلك اليوم خلق عظيم وقتل منهم أيضاً جماعة وكانوا اذا جرح واحد منهم حملوه أو قتل دفنوه وهم سائرون حتى لا يبين قتيل ولا جريح وكان نزولهم يوم الثلاثاء بعد الظهر وتراجعت العساكر الى مواطن المصابرة ومواقف الحراسة وتقدم السلطان الى الميسرة ان تستدير بهم بحيث يقع آخرها على البحر والميمنة تستدير بالنهر من الجانب الشرقي والجاليش يقاتلهم بقربهم و يرميهم بالنشاب بحيث لا يقع النشاب عنهم أصلاً وبات الناس تلك الليلة على هذا المثال وسار هو رحمه الله ونحن

في خدمته الى رأس جبل الخروبة فنزل في خيمة لطيفة والناس حـوله في خيم لطاف بمرأى من العدو واجتاز العدو يتواصل ساعة فساعة الى الصبح. ولما كان يوم الاربعاء وصل من أخبر أنهم تحركوا للركوب فركب هو ورتب الاطلاب وسار حتى أتى أقرب جبال الخروبة اليهم بحيث يشاهد أحوالهم. وكان رحمه الله ملتاث المزاج ضعيف القوى قوي القلب ثم بعث الى العساكر وأمرها بالمقاتلة والمضايقة والحملة عليهم من كل جانب وأمر الاطلاب أن تحيط بهم بحيث لا تكون قريبة ولا بعيدة لتكون وراء المقاتلة الى ان تضاحى النهار وسار العدو الى شاطيء النهر من الجانب الغربي يطلب جهة جهة والقتال يشتد عليهم من كل جانب الا من جانب النهر والتحم القتال فصرع منهم خلق عظيم وهم يدفنون قتلاهم و يحملون جرحاهم وقد جعلوا رجالتهم سورًا لهم تضرب الناس بالزنبورك والنشاب حتى لا يترك أحد يصل اليهم الا بالنشاب فانه كان يظهر اليهم كالجراد وخيالتهم يسيرون في وسطهم بحيث لم يظهر منهم أحد في ذلك اليوم أصلاً والكوسات تخفق والبوقات تنعر والاصوات بالتهليل والتكبير تعلوا هذا والسلطان يمد الجاليش بالاطلاب والعساكر التي عنـده حتى لم يبق معه الا نفر يسير ونحن نشاهد الاحوال وعلم العدو مرتفع علي عجلة هو مغروس فيها وهي تسحب بالبغال وهم يذبون عن العلم وهو عال جدًا كالمنارة خرقته بياض ملمع باحمر على شكل الصلبان ولم يزالوا سائرين على هذا الوجه حتى وصلوا وقت الظهر قبالة جسر دعوق وقد ألجمهم العطش وأخذ منهم التعب وأثخنهم الجراح واشتد الامر بهم من شدة الحر * ولقد قاتل المسلمون في ذلك اليوم قتالاً شـديدًا وأعطوا الجهاد حقه وهجموا عليهم هجومًا عظيما واستداروا بهم كالحلقة وهم لا يظهرون من رجالتهم ولا يحملون فكان الفعل معظمه للحلقة في ذلك اليوم فانهم اذاقوهم طعم الموت وجرح منهم جماعة كاياز الطويل فانه قام في تلك الحرب العظيمة أعظم مقام وجرح جراحات متعددة وهو مستمر على القتال وجرح سيف الدين يازكوج جراحات متعددة وهو من فرسان الاسـلام وشجعانه وله مقامات متعددة وجرح خلق كثير ولم تزل الناس حولهم حتى نزلوا ظهر نهار ذلك اليوم عند جسر دعوق وقطعوا الجسر وأخربوه خوفًا من عبور الناس اليهم

ورجع السلطان الى تل الخروبة وأقام عليهم يزكاً يحرسهم وأخبارهم تتواتر حتى الصباح وعزم في تلك الليلة على كبس بقيتهم وكتب الى البلد يعرفهم ذلك حتى يخرجوا من ذلك الجانب فلم يصل من أهل البلد كتاب فرجع عن ذلك العزم بسبب تأخر الكتاب * ولما كان صباح الخميس رابع عشر الشهر وصل من أخبر ان العدوّ على حركة الرحيل فركب السلطان ورتب الاطلاب وكف الناس عن القتال خشية ان يقتالوا فان العدوّ كان قد قرب من خيمه وأداروا الاطلاب في الجانب الشرقي من النهر تسير قبالة العدوّ حتى وصل الى خيمه * وكان ممن خرج من مقدميهم في هذه السرية الكندهري والمركيس وتخلف ابن ملك الالمان في الخيم مع جمع كثير منهم * ولما دخل العدو الى خيمهم كان لهم فيها أطلاب مستريحة فخرجت الى اليزك الاسلامي وحملت عليه ونشب القتال بين اليزك و بينهم وجرى قتال عظيم قتل فيه من العدوّ وجرح خلق عظيم وقتل من المسلمين ثلاثة نفر وقتل من العدو شخص كبير فيهم مقدم عليهم وكان على حصان عظيم ملبس بالزرد الى حافره وكان عليه لباس لم ير مثله وطلبوه من السلطان بعد انفصال الحرب فدفع اليهم جثته وطلب رأسه فلم يوجد وعاد السلطان الى مخيمه وأعاد الثقل الى مكانه وعاد كل قوم الى منزلتهم وعاد عماد الدين وقد أقلعت حماه وبقي التياث مزاج السلطان وقد كان سبب سلامة هذه الطائفة مع كونه لا يقدر على مباشرة الامر بنفسه ولقد رأيته وهو يبكي في حال الحرب كيف لم يقدر على مخالطته ورأيته وهو يأمر أولاده واحدًا بعد واحد بمكافحة الامر ومخالطة الحرب * ولقد سمعت منه وقائل يقول ان الوخم قد عظم في مرج عكا بحيث ان الموت قد كثر في الطائفتين ينشد متمثلاً *

أقتلاني ومالكاً * واقتلا مالكاً معي

يريد بذلك انني قد رضيت ان أتلف أما اذا تلف أعداء الله وحدث بذلك قوة عظيمة في نفوس العسكر الاسلامي

﴿ ذكر وقعة الكمين ﴾

وفي الثاني والعشرين من شوال رأى السلطان ان يضع للعدو كميناً وقوى عزمه

على ذلك فاخرج جمعاً من كماة العسكر وشجعانه وأبطاله وفرسانه وانتخبهم من خلق كثير وأمرهم ان يسيروا في الليل و يكمنوا في سفح تل هو شمالي عكا بعيد من عسكر العدو عنده كانت منزلة الملك العادل حين وقعت الوقعة المنسوبة اليه وان يظهر منهم للعدو نفر يسير وان يقصدوه في خيمه و يحركوه حتى اذا خرج انهزموا بين يديه نحو المسلمين ففعلوا ذلك وساروا حتى أتوا التل المذكور ليلا فكمنوا فيه . ولما تجلى نهار الثالث والعشرين خرج منهم نفر يسير على جياد من الخيـــل وساروا حتى أتوا مخيم العدو ورموهم بالنشاب وحركوا حميتهم بالضرب المتواتر فانتخى لهم مقدار مائتي فارس وخرجوا اليهم شاكي السلاح على خيل جياد بعدة تامة وأسلحة كاملة وقصدوهم وليس معهـــم أحد راجل وداخلهم الطمع فيهم لقلة عدتهم فانهزموا بين أيديهم وهم يقاتلونهم و يقتلون حتى أتوا الكمين فثارت عند وصولهم الابطال وصاحوا صيحة الرجل الواحد وهجموا عليه هجمة الاسود على فرائسها فثبتوا وصبروا وقاتلوا قتالا شديداً ثم ولوا منهزمين فتمكن أولياء الله منهم وأوقعوا فيهم ضرباً بالسيف حتى أفنوا منهم جمعاً عظيما واستسلم الباقون للأسر فأسروهم وأخذوا خيلهم وعددهم وجاء البشير الى العسكر الاسلامي فارتفعت الاصوات بالتهليل والتكبير وركب السلطان يتلقى المجاهدين وسار وكنت في خدمته حتى أتى تل كيسان فلقينا أوائل القوم فوقف هناك يتلقى العائدين من المجاهدين والناس يتبركون بهم و يشكرونهم على حسن صنيعهم وهو يعتبر الاسرى و يتصفح أحوالهم . وكان ممن أسر مقدم عسكر الافرنسيس فانه كان قد أنفذ نجدة قبل وصوله وأسر خازن الملك أيضاً وعاد السلطان بعد تكامل الجماعة الى مخيمه فرحاً مسروراً وأحضر الاسرى عنده وأمر منادياً ينادي من أسر أسيراً فليحضره فأحضر الناس أسراهم وكنت حاضراً ذلك المجلس . ولقد أكرم المقدمين منهم وخلع عليهم وعلى مقدم عسكر الافرنسيس فروة خاص وأمر لكل واحد من الباقين بفروة جرخية فان البرد كان شديداً وكان قد أخذ منهم وأحضر لهم طعاماً اكلوه وأمر لهم بخيمة تضرب قريباً من خيمته وكان يكارمهم في كل وقت و يحضر المقدم على الخوان في بعض الاوقات وأمر بتنفيذهم وحملهم الى دمشق فحملوا مكرمين وأذن لهم في ان

يراسلوا صاحبهم وان يحضروا لهم من عسكرهم ما يحتاجون اليه من الثياب وغيرها ففعلوا ذلك وساروا الى دمشق

﴿ ذكر عود العسكر عن الجهاد ﴾

ولما هجم الشتاء وهاج البحر وأمن العدوّ أن يضرب مصاف وطلب البلد وحصاره من شدة الامطار وتواترها أذن السلطان للعساكر في العود الى بلادهم ليأخذوا نصيباً من الراحة وتجم خيولهم الى وقت العمل . وكان أول من سار عماد الدين صاحب سنجار لما كان عنده من القلق في طلب الدستور . وكان مسيره خامس عشري شوال وسار عقيبه في ذلك اليوم ابن أخيه سنجر شاه صاحب الجزيرة هذا بعد ان أفيض عليهما من التشريف والانعام والتحف ما لم ينعم به على غيرهما . وسار علاء الدين ابن صاحب الموصل في مستهل ذي القعدة مشرفاً مكرماً معه التحف والطرائف وتأخر الملك المظفر الى أن دخلت سنة سبع وثمانين وتأخر أيضاً الملك الظاهر وسار تاسع المحرم سنة سبع وثمانين وسار الملك المظفر في ثالث صفر ولم يبق عند السلطان الا نفر يسير من الامراء والحلقة الخاصة . وفي أثناء ذي القعدة سنة ست وثمانين وفد عليه زلفندار فتلقاه وأكرم مثواه ووضع له طعاماً يوم قدومه وباسطه مباسطة عظيمة . وكانت حاجته أن يوقع له باعادة أملاك كانت في يده ثم انتزعت من أعمال نصيبين والخابور فوقع باعادتها الى يده واجراء الامر فيها بعد ذلك على وفق الشريعة المطهرة وخلع عليه وشرفه وسار فرحاً مسروراً شاكرًا لاياديه

﴿ ذكر ارتحال السلطان لادخال البدل الى البلد ﴾

ولما هاج البحر وامنت غائلة مراكب العدو ورفع ما كان له من الشواني في البحر الى البر اشتغل السلطان في ادخال البدل الى عكا وحمل البر والذخائر والنفقات والعدد اليها واخراج من كان بها من الامراء لعظم شكايتهم من طول المقام بها ومعاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلاً ونهارًا وكان مقدم البلد من البدل الداخل الامير

سيف الدين على المشطوب دخل سادس عشر المحرم من شهور سنة سبع وثمانين وفي ذلك اليوم خرج المقدم الذي كان بها وهو الامير حسام الدين أبو الهيجاء وأصحابه ومن كان بها من الامراء وأعيان الخلق وتقدم الى كل من دخل أن يصحب ميرة السنة وانتقل الملك العادل بعسكره الى حيفا على شاطيء النهر وهو الموضع الذي تحمل منه المراكب فتدخل الى البلد واذا خرجت تخرج اليه فأقام ثم يحث الناس على الدخول ويحرس الميرة والذخائر لئلا يتطرق اليها من العدو من يعترضها وكان مما دخل اليها سبع بطس مملوءة ميرةوذخائر ونفقات كانت وصلت من مصر محملة وتقدم السلطان بتعبيتها من مدة مديدة وكان دخولها ثاني ذي الحجة من السنة الخالية فانكسر منها مركب على الصخر الذي هو قريب من الميناء فانقلب كل من في البلد من المقاتلة لتلقي البطس . ولما علم العدو ذلك أخذوا غرتهم وزحفوا الى البلد في جانب البر زحفة عظيمة وقاربوا الاسوار وصعدوا في سلم وأحد فاندق بهم السلم كما شاء الله تعالى وتداركهم أهل البلد فقتلوا منهم خلقاً عظيما وعادوا خائبين خاسرين * وأما البطس فان البحر هاج هياجاً عظيما وضرب بعضها على الصخر فهلكت وهلك جميع من كان فيها * قيل كان عددهم ستين نفرا وكان فيها ميرة عظيمة لو سلمت كفت البلد سنة كاملة وذلك بتقدير العزيز العليم ودخل على المسلمين بذلك وهن عظيم وأحرج السلطان بذلك حرجاً عظيما فاستخلف ذلك في سبيل الله تعالى وما عند الله خير وأبقى وكان ذلك أول علامات أخذ البلد والظفر به * ولما كانت ليلة السبت سابع ذي الحجة من السنة الخالية قضى الله وقدر ان وقع من السور قطعة عظيمة وثقلها على الباشورة فهدمت أيضاً منها قطعة عظيمة وهي العلامة الثانية وقد أخذ العد والطمع وهاج الزحف هياجاً عظيما وجاؤا الى البلد كقطع الليل المدلهم من كل جانب وثارت همم الناس في البلد وقاتلوا العدو قتالا شديدا حتى ضرسوا وأيسوا من أن ينالوا خيرا فوقفوا على سد موضع القطعة الواقعة وجمعوا من في البلد من البنائيين والصناع ووضعوهم في ذلك الموضع وحموهم بالنشاب والمناجيق فما مرت الا ليال يسيرة حتى انتظمت وعاد بناؤها أحسن مما كان وأقوى وأتقن

﴿ ذكر الظفر بمراكب العدو ﴾

وكان قد استأمن من الفرنج خلق عظيم أخرجهم الجوع الينا وقالوا للسلطان نحن نخوض البحر في براكيس و بطس الى العدو ويكون الكسب بيننا و بين المسلمين فاذن لهم في ذلك وأعطاهم بركوساً وهو المركب الصغير فركبوا فيه وظفروا بمراكب للتجار من العدو وهي قاصدة الى عسكرهم و بضائعهم معظمها فضة مصوغة وغيرمصوغة فوقع عليها البركوس وقاتلوهم حتي أخذوهم واكتسبوا منهم مالاً عظيماً وأسروهم وأحضروهم بين يدي السلطان وذلك في ثالث عشر ذي الحجة من السنة المذكورة ولقد كنت حاضرًا ذلك المجلس وكان من جملة ما أحضروه مائدة فضة وعليها مكبة مخرمة من فضة فاعطاهم السلطان الجميع ولم يأخذ منهم شيئاً وفرح المسلمون بنصر الله عليهم بايديهم *

﴿ ذكر موت ابن ملك الالمان ﴾

وذلك ان العدو لما دخل الشتاء عليهم وتواترت الانداء واختلفت الاهواء وخم المرج وخماً عظيما وقع معه موتان عظيم وانضم الى ذلك الغلاء الزائد وانسد عليهم البحر الذي كان يجيئهم منه الميرة من كل جانب وكان يموت منهم كل يوم المائة والمائتان على ما قيل وقيل أكثر من ذلك * ومرض ابن ملك الالمان مرضاً عظيماً وعرض له مع ذلك مرض الجوف فهلك به في الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة ست وثمانين وحزن الافرنج عليه حزناً عظيما وأشعلت له نيران هائلة بحيث لم يبق له خيمة الا وأشعلت فيها الناران والثلاثة بحيث بقي عسكرهم كله نار وفرح المسلمون بذلك بمثل ما حزن الكفار بفقده وهلك منهم كبير يقال له الكند بالياط ومرض الكندهري وأشرف على الهلاك . وفي الرابع والعشرين منه أخذ منهم بركوسان فيهما نيف وخمسون نفرًا وفي الخامس والعشرين منه أخذ منهم أيضاً بركوس وجميع ما فيه وكان من جملة ما فيه ملوطة مكللة باللؤلؤ وهي من تفاصيل الملك وقيل كان في البركوس

ابن أخيه وأخذ أيضاً

﴿ ذكر غارة أسد الدين ﴾

وهذا أسد الدين هو شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير وهو صاحب حمص * وكان من حديثه ان السلطان كان قد رسم له ان يأخذ حذره من الافرنج بطرابلس و يأخذ نفسه بحراسة المسلمين والفلاحين في تلك الناحية وأنه قيل له ان أفرنج طرابلس قد أخرجوا جشارهم وخيلهم الى مرج هناك وأبقارهم ودوابهم وانه قد قرر مع عسكره قصدهم فخرج على غرة منهم وهجم على جشارهم فأخذ منهم من الخيل أربعمائة رأس ومئة من البقر فهلك من الخيل أربعون وسلم الباقي وعاد الى البلد ولم يفقد من أصحابه أحد ووصل الكتاب بذلك في رابع صفر من سنة سبع وثمانين

﴿ ذكر وقائع عدة في هذه السنة ﴾

وفي ثالث ربيع الاول كان اليزك للحلقة السلطانية وخرج من العدو اليهم خلق عظيم وجرى بينهم وقعة شنيعة وقتل فيها من العدو جماعة وقتل منهم رجل كبير على ما قيل ولم يفقد من المسلمين الا خادم للسلطان يسمى قراقوش وكان شجاعاً عظيماً له وقعات عظيمة كثيرة استشهد في ذلك اليوم * وفي تاسع الشهر بلغ السلطان ان العدوّ يخرج منه طائفة يتفسحون ليعدنا عنهم فاقتضى رأيه ان أنفذ أخاه الملك العادل وفي خدمته خلق عظيم من العساكر الاسلامية وأمره ان يكمن للعدو وراء التل الذي كانت فيه الواقعة المعروفة به فسار هو وجمع كان من كبراء أهله وأصحابه فكمن وراء تل العياضية وكان ممن كان معه من كبار أهله الملك المظفر تقي الدين وابنه ناصر الدين محمد والملك الافضل ولده ومعه صغار أولاده الملك الاشرف محمد والملك المعظم طورانشاه والملك الصالح اسماعيل وكان من المعممين الفاضل والديوان وكنت في الصحبة في ذلك اليوم وركب جماعة من الشجعان على الخيول الجياد وناوشوا العدو فلم يخرج في ذلك اليوم وكان قد وشى اليهم بحالة الامراء الا ان ذلك اليوم لم ينفك

وطرادة فيها خلق عظـيم رجال ونساء وميرة وأخشاب وآلات وغـير ذلك وفيها أربعون فارساً وكان ذلك فتحاً عظيما استبشر به المسلمون * وفي رابع جمادى الاولى زحف العدو الى البلد ونصبوا عليه مناجيق سبعة ووصلت كتب عكا بالاستنفار العظيم والتماس ـ ل العدو عنهم فاعلم السلطان العساكر بالعزم على الرحيل الى مضايقة العدو ومقاربته وأصبح على أهبة المسير الى العدو ورتب العساكر ثم أخذ من كشف حال العدو وحال خنادقهم هل فيها كمين أم لا فعادوا وأخبروا بخلوها عن الكمين فسار بنفسه في نفر يسير من مماليكه الى خنادقهم وصعد جبلا يعرف بتل المضول قريباً من العدو مشرفاً على خيمهم وشاهد المجنيقات وما يعمل منها وما هو بطال ثم عاد الى مخيمه وأنا في خدمته وفي صبيحة هذه الليلة أتاه اللصوص برضيع له ثلاثة أشهر قد أخذ من أمه سرقة *

﴿ ذكر قصة الرضيع ﴾

وذلك أنه كان للمسلمين لصوص يدخلون الى خيام العدو فيسرقون منهم الرجال وكان من قصتهم أنهم أخذوا ذات ليلة طفلا رضيعاً له ثلاثة أشهر وساروا به حتى أتوا الى خيمة السلطان وعرضوه عليه وكان كل ما يأخذونه يعرضونه عليه ويعطيهم ما أخذوه * ولما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور طول الليل حتى وصل خبرها الى ملوكهم فقالوا أنه رحيم القلب وقد أذنا لك بالخروج فاخرجي واطلبيه منه فانه يرده عليك فخرجت تستغيث الى اليزك فأخبرتهم بواقعتها فأطلقوها وأنفذوها الى السلطان فلقيته وهو راكب وأنا في خدمته وفي خدمته خلق عظيم فبكت بكاء شديداً ومرّغت وجهها في التراب فسأل عن قصتها فأخبروه فرق لها ودمعت عينه وأمر باحضار الرضيع فوجدوه قد بيع في السوق فارتده وأمر بدفع ثمنه الى المشتري واخذه منه ولم يزل واقفاً حتى أحضر الطفل وسلم اليها فأخذته وبكت بكاء شديداً وضمته الى صدرها والناس ينظرون اليها ويبكون وأنا واقف في جملتهم فأرضعته ساعة ثم أمر بها فحملت على فرس والحقت بعسكرهم مع طفلها فانظر الى هذه الرحمة الشاملة

لجنس البشر * اللهم انك خلقته رحيما فارحمه رحمة واسعة من عندك يا ذا الجلال والاكرام. وانظر الى شهادة الاعداء له بالرأفة والكرم. شعر

ومليحة شهدت لها ضراتها * والحسن ليس لحقه من منكر

وفي ذلك اليوم وصل ظهر الدين بن البلنكري وكان مقدماً عظيما من امراء الموصل وصل مفارقا لهم يطلب خدمة السلطان ولما عاد السلطان الى مخيمه لم يلبث الا ساعة حتى وصله الخبر بتجديد الزحف فعاد وركب من ساعته نحو البلد وقد انفصل الحرب بدخول الليل من الطائفتين *

﴿ ذكر انتقال السلطان الي تل العياضية ﴾

ولما كانت صبيحة الثلاثاء تاسع جمادى الاولى بلغ السلطان ان الافرنج قد ضايقوا البلد وركبوا المناجيق فأمر الجاويش أن صاح بالناس وركب لركوبه العسكر راجلهم وفارسهم حتى أتى الخروبة وقوي اليزك بتسيير جماعة من العسكر اليه فلم يخرج العدو واشتد زحفهم على البلد فضايقهم رحمه الله مضايقة عظيمة وهجم عليهم في خنادقهم ولم يزل كذلك حتى عادوا عن الزحف ظهر نهار وعاد العدو الى خيمه وقد أيس من أمر البلد وعاد السلطان الى خيمة لطيفة ضربت له هناك يستظل فيها من الشمس فنزل بها لصلاة ظهر والاستراحة ساعة وقوى اليزك وأمر الناس بالعود الى الخيم لاخذ جزء من الراحة وكنت في خدمته فبينما هو كذلك اذ وصل من اليزك من أخبر ان القوم قد عادوا الى الزحف لما أحسوا بانصرافه عنهم أشد ما كانوا أولاً فأمر من نبه الناس وأمر بالعود فتراجعت العساكر الى جهة العدو أطلاباً أطلاباً وأمر بالمبيت على أخذ لأمة الحرب وأقام هو هناك على عزم المبيت وفارقت خدمته آخر نهار الثلاثاء وعدت الى الخيم وبات هو وجميع العسكر على تعبية القتال طول الليل وأصرّ طائفة منهم على مضايقة العدو ثم سار العسكر أواخر ليلة الاربعاء عاشر الشهر الى تل العياضية قبالة العدو وضربت له عليه خيمة لطيفة ونازل العدو في ذلك اليوم أجمع بالقتال الشديد والضرب المبرح المتواتر الذي لا يفتر شغلا لهم عن الزحف وهو

يدور بين الاطلاب ويحثهم على الجهاد ويرغبهم فيه * ولما رأى العدو تلك المنازلة الهائلة خافوا من الهجوم عليهم في خيمهم فرجعوا عن الزحف واشتغلوا بحفظ الخنادق وحراسة الخيم * ولما رأى فتورهم عن الزحف عاد الى العياضية ورتب على خنادقهم من يخبره بحالهم ساعة فساعة اذا رجعوا الى الزحف كل ذلك دفعاً للعدو عن مضايقة البلد والزحف عليه *

﴿ ذكر الشروع في مضايقة البلد ﴾

ولقد بلغ من مضايقتهم البلد ومبالغتهم في طم خندقه انهم كانوا يلقون فيه موتى دوابهم بأسرها وآل الامر الى ان كانوا يلقون فيه موتاهم وكانوا اذا جرح منهم أحد جراحة مؤلمة مثخنة القوة فيه بهذا جميعه تواصلت كتب أصحابنا من البلد * وأما أهل البلد فانهم انقسموا أقساماً قسم ينزلون في الخندق يقطعون الموتى والدواب التي يلقونها فيه قطعاً ليسهل نقلها * وقسم ينقلون ما يقطعه ذلك القسم ويلقونه في البحر * وقسم يذبون عنهم ويدافعون حتى يتمكنوا من ذلك وقسم في المنجنيقات وحراسة الاسوار وأخذ منهم التعب والنصب وتواترت شكايتهم من ذلك * وهذا ابتلاء لم يبل بمثله أحد ولا يصبر عليه جلد . وكانوا يصبرون والله مع الصابرين . هذا والسلطان لا يقطع الزحف على خنادقهم بنفسه وخواصه وأولاده ليلاً ونهارا حتى أثرت فيه الاثر البين وكلما ازدادوا في قتال البلد ازداد هو في قتالهم وكبس خنادقهم والهجوم عليهم حتى خرج منهم شخص يطلب من يتحدث معه فلما أخبر السلطان بذلك قال ان كان لكم حاجة فليخرج منكم واحد فأما نحن فليس لنا اليكم حاجة ولا شغل ودام ذلك متصلا الليل مع النهار حتي وصل الانكتار *

﴿ ذكر وصول الانكتار ﴾

ولما كان يوم السبت ثالث عشر الشهر قدم ملك الانكتار بعد مصالحته لصاحب جزيرة قبرص والاستيلاء عليها وكان لقدومه روعة عظيمة ووصل في خمس وعشرين

شانية مملوءة بالرجال والسلاح والعدد وأظهر الافرنج سرورًا عظيما حتى انهم أوقدوا تلك الليلة نيرانًا عظيمة في خيامهم * ولقد كانت النيران مهولة عظيمة تدل على عدة عظيمة كبيرة وكان ملوكهم يتواعدوننا به فكان المستأمنون منهم يخبروننا عنهم انهم متوقفون فيما يريدون ان يفعلوه من مضايقة البلد حتى قدومه فانه ذو رأي في الحرب مجرب وأثر قدومه في قلوب المسلمين خشية ورهبة * هذا والسلطان يتلقى ذلك كله بالصبر والاحتساب والاتكال على الله ومن يتوكل على الله فهو حسبه *

﴿ ذكر غرق البطسة الاسلامية وهي العلامة الثالثة على أخذ البلد ﴾

ولما كان السادس عشر وصلت بطسة من بيروت عظيمة هائلة مشحونة بالآلات والاسلحة والميرة والرجال والابطال المقاتلة وكان السلطان قد أمر بتعبيتها وتسييرها من بيروت ووضع فيها من المقاتلة خلقاً عظيماً حتى تدخل البلد مراغمة للعدو وكان عدة رجالها المقاتلة ستمائة وخمسين رجلا فأغرقها الانكتار في عدة شوان قيل كان فيها أربعون قلعاً فاحتاطوا بها من جميع جوانبها واشتدوا في قتالها وجرى القضاء بأن وقف الهواء فقاتلوها قتالا عظيماً وقتل من العدو عليها خلق عظيم وأحرقوا للعدو شانياً كبيرًا فيه خلق عظيم فهلكوا عن آخرهم وتكاثروا على أهل البطسة وكان مقدمهم رجلا جيدًا شجاعاً مجرباً في الحرب فلما رأى أمارات الغلبة عليهم وانهم لا بد وان يقتلوا قال والله لا نقتل الا عن عز ولا نسلم اليهم من هذه البطسة شيئاً فوقعوا في البطسة من جوانبها بالمعاول فهدموها ولم يزالوا كذلك حتى فتحوها من كل جانب أبواباً فامتلأت ماء فغرق جميع من فيها وما فيها من الآلات والميرة وغير ذلك ولم يظفر العدو منها بشيء * وكان اسم المقدم المذكور يعقوب من رجال حلب وتلقف العدو بعض من كان فيها فأخذوه الى الشواني من البحر وخلصوه من الغرق وأنفذوه الى البلد ليخبرهم بالواقعة وحزن الناس لذلك حزناً شديدًا والسلطان يتلقى ذلك بيد الاحتساب في سبيل الله والصبر على بلائه والله لا يضيع أجر المحسنين

﴿ ذكر حريق الدبابة ﴾

وذلك ان العدو كان قد اصطنع دبابة عظيمة هائلة أربع طبقات الطبقة الاولى من الخشب والثانية من الرصاص والثالثة من الحديد والرابعة من النحاس وكانت تعلو على السور وكان يركب فيها المقاتلة وخاف أهل البلد منها خوفاً عظيماً وحدثتهم نفوسهم بطلب الامان من العدو وكانوا قد قربوها من السور بحيث لم يبق بينها وبين السور الا مقدار خمسة أذرع على مايشاهد برأي العين وأخذ أهل البلد في تولية ضربها بالنفط ليلا ونهاراً حتى قدر الله تعالى حرقها واشتعال النار فيها وظهر لها ذؤابة نار نحو السماء فاشتدت الاصوات بالتهليل والتكبير ورأوا الناس فيها لما ظهرت لها تلك النيران ولقوا جبرا من ذلك الوهن ومحوا لذلك الاثر ونعمة بعد نقمة وايناساً بعد يأس وكان ذلك في يوم غرق البطسة فوقع من المسلمين موقعاً عظيماً وكان مسلياً لحزنهم

﴿ ذكر وقعات عدة ﴾

ولما كان يوم الجمعة تاسع عشر الشهر زحف العدو على البلد زحفاً عظيماً وضايقوه مضايقة شنيعة. وكان قد استقر بيننا وبينهم أنهم متى زحف العدو عليهم دقوا كؤوسهم فضربوا بكؤوسهم فأجابت كؤوس السلطان وركبت العساكر وضايقهم السلطان من خارج وزحف عليهم حتى هجم المسلمون عليهم في خيامهم فجاوزوا خنادقهم وأخذوا القدور وما فيها وحضر من الغنيمة المأخوذة من خيامهم شيء عند السلطان وأنا حاضر ولم يزل القتل يعمل حتى أيقن العدو انه قد هجم عليهم فأخذا يتراجعون عن قتال البلد وشرعوا في قتال العساكر وانتشب الحرب بينهم ولم تزل ناشبة حتى قام قائم الظهيرة وغشى الناس من الحر أمر عظيم من الجانبين وتراجعت الطائفتان الى خيامهم وقد أخذ منهم التعب والحر

ولما كان يوم الاثنين الثالث والعشرون دق كؤوس البلد فجاوبه كؤوس السلطان

وثار القتال بين الطائفتين ولجّ العدو في مضايقة البلد ثقة منهم أن الناس لا يهجمون على خيمهم وانهم يهابونها فكذب العسكر ظنونهم وهجموا على الخيام أيضاً ونهبوا منها فتراجع العدو الى قتالهم ووقع الصياح فيهم فلحقوا من المسلمين جماعة عظيمة داخل خنادقهم وأسوارهم وجرى بينهم وقعة عظيمة قتل فيها اثنان من المسلمين وجرح جماعة وقتل جماعة من العدو . وأعجب ما في هذه الوقعة انه كان وصل في هذا اليوم رجل كبير مذكور من أهل ما زندران يريد الغزاة فوصل والحرب قائمة فلقي السلطان فاستأذنه في الجهاد وحمل حملة شديدة واستشهد في تلك الساعة . ولما رأى العدو دخول المسلمين الى خنادقهم وتوغلهم الى داخل أسوارهم داخلهم الحمية وبعثتهم النخوة فركب فارسهم وصحبه راجلهم وخرجوا الى ظاهر أسوارهم وحملوا على المسلمين حملة الرجل الواحد فثبت المسلمون لهم ثبوتاً عظيماً لم يتحركوا من أماكنهم والتحم القتال من الجانبين واشتد الضرب من الطائفتين وصبر المسلمون صبر الكرام . ودخلوا في الحرب بالتحام . فلما رأى العدو ذلك الصبر المعجب والاقدام المزعج أنفذوا رسولاً في غضون ذلك يستأذنون بالرسول في الوصول فأذن له فوصل الرسول أولاً الى الملك العادل فاستصحبه ووصل به الى الخدمة السلطانية ومعه أيضاً الملك الافضل فأدى الرسالة وكان حاصلها ان ملك الانكتار يطلب الاجتماع بالسلطان فلما سمع السلطان الرسالة أجاب عنها في الحال من غير تفكر ولا تروّ بان قال ان الملوك لا يجتمعون الا عن قاعدة ولا يحسن منهم الحرب بعد الاجتماع والمواكلة واذا أراد ذلك فلا بد من تقرير قاعدة قبل هذه الحالة ولا بد من ترجمان نثق به في الوسط يفهم كل واحد منا ما يقول الآخر فليكن بيننا ذلك الترجمان فاذا استقرت القاعدة وقع الاجتماع بعد ذلك ان شاء الله تعالى ولما كان يوم السبت الثامن والعشرون خرج العدو راجلهم وفارسهم من جانب البحر شمالي البلد وعلم السلطان ذلك فركب وركب العسكر وانتشب القتال بين الطائفتين وقتل من المسلمين بدوي وكردي وقتل من العدو جماعة وأسروا واحداً بسلاحه وفرسه ومثل بين يدي السلطان ولم يزل القتال يعمل حتى طال الليل بين الطائفتين * ولما كان الاحد التاسع والعشرون خرج العدو

برجالة كثيرة على شاطئ النهر الحلو فلقيهم طائفة من اليزك وجرى بينهم قتال عظيم ووصلت رجالة من المسلمين الى الحرب فأسروا مسلما وقتلوه وأحرقوه وأسر المسلمون منهم واحدا فقتلوه وأحرقوه ولقد رأيت النارين تشتعلان في زمان واحد * ولم تزل الاخبار تتواصل من أهل البلد بالاحتفال بامر العدو والشكوى من ملازمة قتالهم ليلا ونهارا وذكر ما ينالهم من التعب العظيم من تواتر الاعمال المختلفة عليهم من جريرة قدوم الانكتار ثم مرض مرضاً شديدا أشفى فيه على الهلاك وخرج الفرنسيس ولم يزدهم ذلك الا اصرارا وعتوًا وكان لأخت ملك الانكتار خادمان مسلمان في الباطن كانا في خدمتها في صقلية وكانت هي زوجة صاحب صقليـة فلما مات ومر أخوها بالبلد أخذها وأصحابها معه الى العسكر وهرب الخادمان الى العسكر الاسلامي فقبلهما السلطان وأنعم عليهما انعاماً عظيما

﴿ ذكر هرب المركيز الى صور ﴾

ولما كان يوم الاثنين سلخ جمادي الاولى قوي استشعار المركيس أنه ان أقام قبضوا عليه وأعطوا صور للملك القديم الذي كان قد أسره السلطان لما عاناه من الاسر في نصرة دين المسيح . ولما صح ذلك عنـده هرب الى صور فأنفذوا خلفه قسوسا ليردوه فلم يفعل وسار في البحر حتى أتى صور وشق ذلك عليهم وعظم لديهم فانه كان ذا رأي وشجاعة وخبرة *

﴿ ذكر وصول بقية عساكر الاسلام ﴾

وفي سلخ جمادى الاولى قدم عسكر سنجار يقدمه مجاهد الدين برنقش فلقيه السلطان واحترمه وكان ديناً عاقلا محباً للغزو فانزله السلطان في الميسرة بعد ان اكرمه وأنزله في خيمته وفرح بقدومه فرحاً شديداً في ذلك الوقت ثم قدم بعد ذلك قطعة عظيمة من عسكر مصر كعلم الدين كرجي وسيف الدين سنقر الدوادار وجماعة كثيرة ثم قدم بعد ذلك علاء الدين صاحب الموصل وعسكرهم فلقيه السلطان بالخروبة

ونزلوا هناك الى بكرة اليوم الثاني من جمادى الآخرة وأصبح سائرًا حتى أتى بجحفله قبالة العدو وعرض عسكره هناك وانزله السلطان في خيمته وحمل له من التحف وقدم له من الطائف ما يليق بكرمه وأنزله في الميمنة * وفي الثالث قدمت طائفة من عسكر مصر أيضاً * واشتد مرض الانكتار بحيث شغل الافرنج شدته من الزحف وكان ذلك خيرة عظيمة من الله تعالى فان البلد كان قد ضعف من فيه ضعفاً عظيماً وضاق بهم الخناق وهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامة الرجل * هذا واللصوص يدخلون الى خيامهم ويسرقون أقمشتهم ويأخذون الرجال في غفلة بان يجيئوا الى الواحد وهو نائم فيضعو على حلقه السكين ويوقظوه ويقولوا له بالاشارة ان تكلمت ذبحناك ويحملوه ويخرجوا به الى العسكر وجرى ذلك مرارًا وعساكر المسلمين تجتمع وتواتر من كل جانب حتى تكامل وصولها

﴿ ذكر وصول رسولهم الي السلطان ﴾

كنت ذكرت وصول رسول منهم يلتمس من جانب الانكتار ان يجتمع بالسلطان عن ذلك وانقطع الرسول وعاد معاودًا في المعنى وكان حديثه مع الملك العادل ثم هو يلقيه الى السلطان واستقر أنه رأى أن يأذن له في الخروج ويكون الاجتماع في المرج والعساكر محيطة بها ومعها ترجمان فلما أذن في ذلك تأخرالرسول أياماً عنده بسبب مرضه واستفاض أن ملوكهم اجتمعوا عليه وانكروا عليه ذلك وقالوا هذه مخاطرة بدين النصرانية ثم بعد ذلك وصل رسوله يقول لا تظن تأخري بسبب ما قيل فان زمام قيادي مفوض اليّ وأنا أحكم ولا يحكم عليّ غير أني في هذه الايام اعترى مزاجي التياث منعني من الحركة فهذا كان العذر في التأخير لا غير وعادة الملوك اذا تقاربت منازلهم ان يتهادوا وعندي ما يصلح للسلطان وأنا أستخرج الاذن في ايصاله اليه فقال له الملك العادل قد أذن له في ذلك بشرط قبول المجازاة على الهدية فرضي الرسول بذلك وقال الهدية شيء من الجوارح قد جلب من وراء البحر وقد ضعف فيحسن أن يحمل الينا طير ودجاج حتى نطعمها لتقوى ونحملها فداعبه الملك

العادل وكان فقيهاً فيما يحدثهم به فقال الملك قد احتاج الى فراريج ودجاج ويريد أن يأخذها منا بهذه الحجة ثم انفصل حديث الرسالة في الآخر على أن قال الرسول ما الذي أردتم منا ان كان لكم حديث فتحدثوا به حتى نسمع فقيل له عن ذلك نحن ما طلبناكم أنتم طلبتمونا فان لكم حديث فتحدثوا به حتى نسمع وانقطع حديث الرسالة الى سادس جمادى الاخرى فخرج رسول الانكتار الى السلطان ومعه انسان مصري قد أسروه من مدة طويلة وهو مسلم قد أهداه الى السلطان فقبله وأحسن اليه وأعاده مشرفاً مكرماً الى صاحبه وكان غرضه بتكرار الرسائل تعرف قوة النفس وضعفها وكان غرضنا بقبول الرسائل تعرف ما عنده من ذلك أيضاً *

﴿ ذكر قوة زحفهم على البلد ومضايقته ﴾

ولم يزالوا يوالون على الاسوار بالمناجيق المتواصلة والضرب وتنقلوا أحجارها حتى اخلخلوا سور البلد وأضعفوا بنيانه وأنهك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم وكثرة ولاعمال حتى أن جماعة منهم بقوا ليالي عدة لا ينامون أصلاً لا ليلا ولا نهاراً والخلق الذين عليهم عدد كثير يتناوبون على قتالهم وهم نفر يسير قد تقسموا على الاسوار الخنادق والمنجنيقات والسفن ولما أحس العدو بذلك وظهر لهم تخلل السور وتقلقل بنيانه شرعوا في الزحف من كل جانب وانقسموا أقساماً وتناوبوا فرقاً كلما تعب قسم استراح وقام غيره مقامه وشرعوا في ذلك شروعاً عظيماً براجلهم وفارسهم سابع الشهر * هذا مع عمارتهم أسوارهم الدائرة على خنادقهم بالرجالة والمقاتلة ليلاً ونهاراً * ولما علم السلطان ذلك باخبار من يشاهده واظهار العلامة التي بيننا و بينهم وهي دق الكؤوس ركب وركب العسكر اليهم وجرى في ذلك اليوم قتال عظيم من الجانبين وهو كالوالدة الثكلى يجول بفرسه من طلب الى طلب و يحث الناس على الجهاد * ولقد بلغنا ان الملك العادل حمل بنفسه في ذلك اليوم مرتين والسلطان يطوف بين الاطلاب بنفسه و ينادي يا للاسلام وعيناه تذرفان بالدموع وكلما نظر الى عكا وما حل بها من البلاء وما يجرى على ساكنيها من المصاب العظيم اشتد في الزحف والحث على القتال * ولم

يطعم في ذلك اليوم طعاماً البتة وانما شرب أقداح مشروب كان يشير بها الطبيب وتأخرت عن حضور هـذا الزحف لالمام مرض شوّش مزاجي لما عراني فكنت في الخيمة في تل العياضية وأنا أشاهد الجميع * ولما هجم الليل عاد رحمه الله الى الخيم بعد العشاء الآخرة وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن فنام لا عن عفو *

ولما كان سحر تلك الليلة أمر الكوُوس ان دقت وركب العساكر من كل جانب وأصبحوا على ما أمسوا عليه وفي ذلك اليوم وصلت مطالعة عن البلد يقولون فيها انا قد بلغ منا العجز الى غاية ما بعدها الا التسليم ونحن في الغد ثامن الشهر ان لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الامان ونسلم البلد ونشتري مجرد رقابنا وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكى في قلوبهم فان عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر وجميع البلاد الاسلامية واحتوت على كبار من أمراء العسكر وشجعان الاسلام كسيف الدين المشطوب وبهاء الدين قراقوش وغيرهما وكان قراقوش ملتزماً بحراستها منذ نزل العدو عليها وأصاب السلطان ما لم يصبه شيء مثله وخيف على مزاجه التشويش وهو لا يقطع ذكر الله والرجوع اليه في جميع ذلك صابراً محتسباً ملازماً مجتهداً والله لا يضيع أجر المحسنين فرأى الدخول على القوم ومهاجمتهم فصاح في العساكر الصائح وركبت الابطال فاجتمع الراجل والفارس واشتد الزحف ولم يساعده العسكر في ذلك اليوم على الهجوم على العدو فان رجالته وقفوا كالسور المحكم البنا بالسلاح والزنبورك والنشاب من وراء أسوارهم وهجم عليهم بعض الناس من بعض أطرافهم فثبتوا وذبوا غاية الذب ﴿ ولقد حكي ﴾ بعض من دخل عليهم أسوارهم انه كان هناك راجل واحد افرنجي صعد سور خندقهم واستدبر المسلمين والى جانبه جماعة يناولونه الحجارة وهو يرميها على المسلمين الذين يلاصقون سور الخندق وقال انه وقع فيه زهاء خمسين سهماً وحجراً ولا يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب والقتال حتى ضربه زراق مسلم بقارورة فأحرقه ﴿ ولقد حكى ﴾ لي شيخ عاقل جندي انه كان من جملة من دخل قال وكان داخل سورهم امرأة عظيمة عليها ملوطة خضراء فما زالت ترمينا بقوس من خشب حتى خرجت منا جماعة وتكاثرنا عليها وقتلناها وأخذنا قوسها

وحملناها الى السلطان فعجب من ذلك عجباً عظيماً ولم يزل الحرب يعمل بين الطائفتين بالقتل والجرح حتى فصل بينهم الليل *

﴿ ذكر ما آل اليه أمر البلد من الضعف ووقوع المراسلة بين أهل البلد والافرنج ﴾

ولما اشتد زحفهم على البلد وتكاثروا عليها من كل جانب وتناوب ضعف أهل البلد لما رأوه من عين الهلاك واستشعروا العجز عن الدفع وتمكن العدو من الخنادق فملكوها وتمكنوا من سور الباشورة فنقبوه وأشعلوا فيه النار بعد حشو النقب ووقعت بدنة من الباشورة ودخل العدو الباشورة وقتل منهم فيها مائة وخمسون نفرًا وصاعدا وكان فيهم ستة من كبارهم فقال لهم واحد منهم لا تقتلوني حتى أرحل الافرنج عنكم بالكلية فبادر رجل من الاكراد فقتله وقتل الخمسة الاخرى وفي الغد نادى الافرنج احفظوا الستة فانا نطلقكم كلكم بهم فقالوا قد قتلناهم فحزن الافرنج لذلك حزناً عظيماً وطلبوا الزحف بعد ذلك أياماً ثلاثة

وبلغنا أن سيف الدين المشطوب خرج بنفسه الى ملك الفرنسيس بالامان وقال له قد أخذنا منكم بلادًا عدة وكنا نهجم البلد وندخل فيه ومع هذا سألونا الامان أعطيناهم وحملناهم الى مأمنهم وأكرمناهم ونحن نسلم البلد وتعطينا الامان على أنفسنا فأجابه بأن هؤلاء الملوك الذين أخذتموهم منا وأنتم أيضاً مماليكي وعبيدي فأرى فيكم رأيي وبلغنا ان المشطوب بعد ذلك أغلظ له في القول وقال أقاويل كثيرة في ذلك المقام منها انا لا نسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ولا يقتل منا واحد حتى يقتل خمسون نفساً من كباركم وانصرف عنه *

ولما دخل المشطوب البلد بهذا الخبر خاف جماعة ممن كانوا في البلد فأخذوا بركوساً وركبوا فيه ليلاً خارجين الى العسكر الاسلامي منهم أرسل وابن الجاولي وسنقر الوشاقي فأما أرسل وسنقر فانهما تغيبا في العسكر ولم يعلم لهما مكان خشية من نقمة السلطان . وأما ابن الجاولي فظفر به ورمي في الزردخانة

وفي سحر تلك الليلة ركب السلطان مشعر أنه يواصل كبس القوم ومعه المداحي وآلات طم الخنادق فما ساعده العسكر على ذلك وتخاذلوا عن ذلك وقالوا نخاطر بالاسلام كله ولا مصلحة فى ذلك

وفي ذلك اليوم خرج من الانكتار رسل ثلاثة طلبوا فاكهة وثلجا وذكروا ان مقدم الاسبتار يخرج في الغد يتحدث فى معني الصلح غير ان السلطان اكرمهم ودخلوا سوق العسكر وتفرجوا فيه وعادوا تلك الليلة الى عسكرهم

وفي ذلك اليوم تقدم الى صارم الدين قايماز النجمي حتى يدخل هو واصحابه الى أسوارهم وترحل جماعة من امراء الاكراد كالجناح وأصحابه وهو أخو المشطوب وزحفوا حتى وصلوا أسوار الافرنج ونصب قايماز بنفسه علمه على سورهم وقاتل عن العلم قطعة من النهار ووصل في ذلك اليوم عز الدين جرديك النوري وسوق الزحف قائم فترحل هو وجماعته وقاتل قتالا شديدا واجتهد الناس اجتهاداً عظيما

وفي العاشر أصبح القوم ساكتين عن الزحف والعساكر الاسلامية محدقة بهم وقد باتوا ليلتهم شاكى السلاح راكبي ظهور خيلهم منتظرين عسي ان تمكنهم مساعدة اخوانهم القيمين بعكا ويهجموا على طرف من الافرنج فيكسروهم ويخرجوا يحمي بعضهم بعضاً ويخرج العسكر يجاوبهم من هذا الجانب فيسلم من يسلم ويؤخذ من يؤخذ فلم يقدروا على الخروج وكان قد ثبت ذاك معهم فلم يتهيأ لهم في تلك الليلة خروج بسبب أنه كان هرب منهم بعض الغلمان فأخبروا العدو بذلك فاحتاطوا بهم وحرسوهم حراسة عظيمة

ولما كان يوم الجمعة العاشر خرج منهم رسل ثلاثة واجتمعوا بالملك وتحادثوا معه ساعة زمانية وعادوا ولم ينفصل الحال وانقضى النهار على مقام المسلمين بالمرج في مقابلة العدو وباتوا على مثل ذلك .

ولما كان السبت الحادي عشر لبست الفرنج بأسرها لباس الحرب وتحركوا حركة عظيمة بحيث انهم اعتقدوا ربما كان مصاف واصطفوا وخرج من الباب الذي تحت القبة زهاء أربعين نفساً واستدعوا جماعة من المماليك وطلبوا منهم العدل الزيداني

وذكروا انه صاحب صيدا طليق السلطان لحضر العدل وجرى مبادي احاديث في معنى اطلاق العسكر الذي بعكا واشتطوا في ذلك اشتطاطاً عظيما وتصرم نهار السبت ولم ينفصل حال

﴿ ذكر كتب وصلت من البلد ﴾

ولما كان يوم الاحد ثاني عشر وصلت كتب يقولون فيها انا قد تبايعنا على الموت ولم نزال نقاتل حتى نقتل ولا نسلم هذا البلد ونحن احياء فانظروا أنتم كيف تعملون في شغل العدو عنا ودفعه عن قتالنا فهذه عزائمنا واياكم ان تخضعوا لهذا العدو وتلينوا لهم فانا نحن قد فات أمرنا وذكر العوام الواصل بهذه الكتب انه لما وقع بالليل الصوت ظن الافرنج ان عسكرًا عظيماً عبر الى عكا وسلم وصار فيها قال وجاء انسان أفرنجي فوقف تحت السور وصاح الى بعض من على السور وقال له بحق دينك الا ما أخبرتني كم عدد العسكر الذي دخل اليكم البارحة يعني ليلة السبت وكان قد وقع بالليل صوت وانزعج الطائفتان ولم يكن له حقيقة فقال له ألف فارس فقال لا لكنه دون ذلك أنا رأيتهم لابسين ثياباً خضرا

ثم تتابعت العساكر الاسلامية واندفع كيد العدو عن القوم في تلك الايام بعد ان كان قد أشرف البلد على الاخذ * وفي يوم الخميس سادس عشر وصل أسد الدين شيركوه واشتد ضعف البلد وكثرت ثغر سوره وجاهد المقيمون فيه و بنوا عوض الثلم سورًا من داخلها حتى اذا تم بناؤه اقتتلوا عليه * واشتد ثبات الافرنج على انهم لا يصالحون ولا يعطون الذين في البلد أمانا حتى يطلق جميع الاسارى الذين في أيدي المسلمين وتعاد البلاد الساحلية اليهم و بذل لهم تسليم البلد وما فيه دون من فيه فلم يفعلوا و بذل لهم أيضاً مع ذلك صليب الصلبوت فلم يفعلوا واستدعتوهم واستفحل أمرهم وضاقت الحيل عنهم ومكروا والله خير الماكرين *

﴿ ذكر مصالحة أهل البلد ومصانعتهم على نفوسهم ﴾

ولما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادي الآخرة خرج العوام من الثغر ونطقت

الكتب عنهم ان أهل البلد ضاق بهم الامر وكثرت الصعوبات وعجزوا عن الحفظ والدفع ورأوا عين الهلاك وتيقنوا انه متى أخذت البلدة عنوة ضربت أعناقهم عن آخرهم وأخذ جميع ما فيه من العدد والاسلحة والمراكب وغير ذلك فصالحوهم على انهم يسلمون اليهم البلد وجميع ما فيه من الآلات والعدد والمراكب ومئتي ألف دينار وألف وخمسمائة فارس أسير مجاهيل الاحوال ومائة فارس معينين من جانبهم يختارون وصليب الصلبوت و يخرجون بأنفسهم سالمين وما معهم من الاقمشة المختصة بهم وذراريهم ونسائهم وضمنوا للمركيس عشرة آلاف دينار لانه كان واسطة ولاصحابه أربعة آلاف دينار واستقرت القاعدة على ذلك

﴿ ذكر استيلاء العدو على عكا ﴾

ولما وقف السلطان على كتبهم وعلى مضمونها أنكر ذلك انكارًا عظيما وعظم عليه هذا الامر وجمع أرباب المشورة وشاورهم فيما يصنع واضطرب الامراء وتقسم فكره وتشوش وعزم على ان يكتب في الليلة مع العوام و ينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه وهو في مثل هذا الحال فما أحس المسلمون الا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشماره وناره على أسوار البلد وذلك في ظهر نهار الجمعة سابع عشر جمادي الاخرى سنة سبع وثمانين وخمسمائة وصاح الافرنج صيحة واحدة وعظمت المصيبة على المسلمين واشتد حزن الموحدين وانحصر كلام العقلاء من الناس في تلاوة انا لله وانا اليه راجعون وغشي الناس بهتة عظيمة وحيرة شديدة ووقع في العسكر الصياح والعويل والبكاء والنحيب وكان لكل قلب حظ في ذلك قدر ايمانه ولكل انسان نصيب من هذا الخطب على مقدار ديانته ونخوته وانقشعت الحال على انه قد استقرت القاعدة بين أهل البلد وبين الافرنج على ذلك الحال المتقدم وان المركيس دخل البلد ومعه أعلام الملوك فنصب علما على القلعة وعلما علي مأذنة الجامع في يوم الجمعة وعلما على برج القتال عوضاً عن علم الاسلام وحيز المسلمون الى بعض أطراف البلد وجرى على أهل الاسلام المشاهدين لذلك الحال ما كثر التعجب من الحياة معه * ومثلت في خدمة السلطان وهو أشد

حالة من الوالدة الثكلى * وموطــة الحراء فسليته بما تيسر من التسلية وأذكرته في الفكر فيما يستقبله من الامر في معنى البلاد الساحلية والقدس الشريف وكيفية الحال في ذلك وأعمال الفكر في خلاص المسلمين المأسورين في البلد وذلك في ليلة السبت الثامن عشر وانفصل الحال على ان رأي التأخير عن تلك المنازلة مصلحة فانه لم يبق في المضايقة معنى فتقدم بنقل الاثقال ليلاً الى المنزلة التي كان عليها أولا بشفر عم وأقام هو جريدة في مكانه لينظر ماذا يكون من أمر العدو وحال أهل البلد وأقام هو راضياً راجياً من الله تعالى انه ربما حملهم غرورهم بالخروج اليه والهجوم عليه فينال منهم غرضاً ويلقي نفسه عليهم و يعطي الله النصر لمن شاء فلم يفعل العدو شيئاً من ذلك واشتغلوا بالاستيلاء على البلد والتمــكن منه فأقام الى بكرة التاسع عشر من الشهر وانتقل الى الثقل وفي ذلك اليوم خرج منهم ثلاثة نفر مــع الحاجب قوس صاحب بهاء الدين قراقوش وكان رجلا عاقلا مستخبرين ما وقع عقد الصلح عليه من المال والاسرى فأقاموا ليلة مكرمين وساروا الى دمشق يبصرون الاسارى في الحادي والعشرين وأنفذ السلطان رسولا الى الفرنج يسألهم كيف جرت الحال ويستعلم كم مدة تحصيل ما وقعت عليه المصالحة واستقرت عليه المهادنة *

﴿ ذكر وقعة جرت في اثناء ذلك ﴾

ولما كان سلخ الشهر خرج الافرنج من جانب البحر شمالي البلد وانتشروا انتشاراً عظيماً راجلهم وفارسهم وضربوا أطلاباً للقتال فأخبر اليزك بذلك السلطان فدق الكوس وركب وأنفذ الى اليزك وقواه برجال كثيرة وتوقف حتى ركبت العساكر الاسلامية واجتمعوا فوقع بين اليزك وبين العدو وقعة عظيمة وقتال شديد قبل اتصال العساكر باليزك وكان اليزك قد قوى بما أنفذ اليه فحملوا على العدو حملة عظيمة فانكسر العدو من بين أيديهم وانهزمت الخيالة وسلمت الرجالة وظنوا ان وراء اليزك كميناً فارتدوا نحو خيامهم ووقع الــيزك في الرجالة فقتل منهم زهاء خمسين نفرا ولم يزل السيف يعمل فيهم حتى دخلوا خنادقهم *

وفي ذلك اليوم وصل الافرنج الذين ساروا الى دمشق ليتفقدوا حال أسراهم ووصل معهم من مميزي أسراهم أربعة نفر ووصل في عشيته أيضاً رسل السلطان في تحرير أمر الاسارى المسلمين الذين كانوا بعكا ولم تزل الرسل تتردد بين الطائفتين حتى كان تاسع رجب

﴿ خروج ابن باريك ﴾

وفي ذلك اليوم خرج حسام الدين حسين بن باريك المهراني ومعه اثنان من أصحاب الانكتار فأخبر أن الملك افرنسيس سار الى صور وذكروا في تحرير أمر الاسارى وطلبوا أن يشاهدوا صليب الصلبوت وانه في العسكر أو حمل الى بغداد فأحضر صليب الصلبوت وشاهدوه وعظموه ورموا نفوسهم الى الارض ومرغوا وجوههم على التراب وخضعوا خضوعاً عظيماً لم ير مثله وذكروا أن الملوك قد أجابوا السلطان أن يكون ما وقع عليه القرار تروم ثلاثة كل شهر ترم * ثم أرسل السلطان رسولا الى الفرنسيس سار اليه الى صور بهدايا سنية وطيب كثير وثياب جميلة *

وفي صبيحة العاشر من رجب انتقل السلطان بحلقته وخواصه الى تل ملاصق لشفرعم ونزلت العساكر في منازلها على حالهم قريباً من منزلته الاولى ليس بينهما الا الوادي ولم تزل الرسل تتواتر في تحرير القاعدة وتنجيزها حتى حصل لهم ما كانوا التمسوه من الاسرى والمال المختص بذلك الترم وهو الصليب ومائة الف دينار وستمائة أسير وأنفذوا ثقاتهم وشاهدوا الجميع ما عدا الاسارى المعينين من جانبهم فانهم لم يكونوا فرغوا من تعيينهم ولم يكاوهم حتى يحصلوا ولم يزالوا يطاولون ويقصرون الزمان حتى انقضى الترم الاول في ثامن عشر رجب ثم أخذوا في ذلك اليوم يطلبون ذلك فقال لهم السلطان اما أن تنفذوا الينا أصحابنا وتستلموا الذي عين لكم من هذا الترم ونعطيكم رهائن على الباقي تصل اليكم في ترومكم الباقية وأما ان تعطونا رهائن على ما نسلم اليكم الى ان يخرج الينا أصحابنا فقالوا لا نفعل شيئاً من ذلك بل تسلمون الينا ما يقتضيه هذا الترم وتقنعون بأيماننا حتى نسلم اليكم أصحابكم فأبى السلطان ذلك لعلمه أنهم ان

تسلموا المال والصليب والاسرى وأصحابنا عندهم لا يؤمن غدرهم ويكون وهن الاسلام عند ذلك وهناً عظيماً لا يكاد ينجبر *

﴿ ذكر قتل المسلمين الذين كانوا بعكا رحمهم الله ﴾

ولما رأى الانكتار الملعون توقف السلطان بذل المال والاسرى والصليب غدر بأسرى المسلمين وكان قد صالحهم وتسلم البلد منهم على أن يكونوا آمنين على نفوسهم على كل حال وانه ان دفع السلطان اليهم ما استقر أطلقهم بأموالهم ونسائهم وان امتنع من ذلك ضرب عليهم الرق وأخذهم أسرى فغدرهم الملعون وأظهر ما كان أبطن وفعل ما أراد ان يفعله بعد أخذ المال والاسرى على ما أخبر به عنه أهل ملته فيا بعد وركب هو وجميع العسكر الافرنجية راجلهم وفارسهم والتراكيل في وقت العصر من يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب وساروا حتى أتوا الآبار التي تحت تل العياضية وقدموا خيامهم اليها وساروا حتى توسطوا المرج بين تل كيسان وبين العياضية ثم أحضروا من أسارى المسلمين من كتب الله شهادته في ذلك اليوم وكانوا زهاء ثلاثة آلاف في الحبال وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد فقتلوهم ضرباً وطعناً بالسيف واليزك الاسلامي يشاهدون ولا يعلمون ما ذا يصنعون لبعدهم عنهم وكان اليزك قد أنفذ الى السلطان وأعلموه بركوب القوم ووقوفهم فأنفذ الى اليزك من قواه وبعد ان فرغوا منهم حمل المسلمون عليهم وجرت بينهم حرب قتل فيها وجرح من الجانبين ودام القتال الى ان فصل الليل بين الفريقين وأصبح المسلمون يكشفون الحال فوجدوا الشهداء في مصارعهم وعرفوا من عرفوه منهم فغشي المسلمين من ذلك حزن عظيم وكآبة شديدة ولم يبقوا الا رجلا معروفاً مقداماً أو قوي يد لعمائرهم * وذكر لقتلهم أسباب منها انهم قتلوهم في مقابلة من قتل منهم وقيل ان الانكتار كان قد عزم على السير الى عسقلان للاستيلاء عليها فما رأى أن يخلف تلك العدة في البلد وراءه والله أعلم

﴿ ذكر مسير العدو الى عسقلان وانتقاله الى ﴾
﴿ طرف البحر من جانب الغرب ﴾

ولما كان التاسع والعشرون من رجب ركب الافرنج بأسرهم وقلعوا خيامهم وحملوها على دوابهم وساروا حتى قطعوا النهر الى الجانب الغربي وضربوا الخيام على طريق عسقلان وأظهروا العزم على المسير على شاطيء البحر وأمر الانكتار باقي الناس أن يدخلوا الى البلد وكانوا قد سدوا ثغره وثلمه وأصلحوا ما انهدم منه وكان مقدم العسكر الخارج السائر الانكتار وجمع عظيم من الرجالة والخيالة * ولما كان مستهل شعبان اشتعلت نيران العدو في سحر ذلك اليوم وعادتهم انهم اذا أرادوا الرحيل أشعلوا نيرانهم وأخبر اليزك بحركتهم فأمر السلطان الثقل أن يرفع حتي يبقى الناس على ظهر ففعل الناس ذلك وهلك من الناس قماش كثير وحوائج كثيرة من السوقة لم تكن معهم خيل ولا ظهر يحمل جميع ما عندهم لان كل انسان كان يحصل ما يحتاج اليه في أشهر وكل واحد من السوقة عنده ما ينفذ من منزل الى منزل في مرار متعددة لكن هذا المنزل لم يمكن أن يتخلف فيه أحد لقربه من الافرنج الذين بعكا والخوف منهم * ولما أن علا النهار شرع العدو في السير على جانب البحر وتفرقوا قطعاً كثيرة كل قطعة تحمي عن نفسها وقوي السلطان اليزك وأنفذ معظم العساكر قبالتهم فمضوا وقاتلوهم قتالا شديدا وأنفذ ولده الملك الافضل يخبر انه قطع طائفة منهم عن المواقفة ولقد نازلناهم بالقتال ولو قوينا لأخذناهم فسير السلطان خلقاً عظيما من العسكر وسار هو بنفسه وأنا في خدمته حتى أتي أوائل الرمل فلقينا الملك العادل فأخبر أخاه أن تلك الطائفة قد التجأت بالطائفة الاولى ومعظم القوم عبروا نهر حيفا وقد نزلوا والباقون قد لحقوا بهم وليس للمسير وراءهم حاصل الا اتعاب العسكر وضياع النشاب لا غير فتراجع السلطان عن القوم لما تحقق ذلك وأمر طائفة من العسكر أن تسير وراء الثقل تلحق ضعيفهم بقويهم ويكف عنهم من يلحق بهم من العدو والطماعة وسار هو حتى وصل الى القيمون عصر ذلك النهار فنزل، وضرب له الدهليز وشقة دائرة حوله لا غير

واستحضر الجماعة فأكلوا شيئاً واستشارهم فيما يفعل

المنزل الثاني ٠ اتفق رأي جماعة على أنهم يرحلون بكرة غد ٠ هذا وقد رتب حول الافرنج يزكاييتون حوله يرقبون أمره ٠ ولما كان صباح ثاني شعبان رحل السلطان الثقل وأقام هو يترصد أخبار العدو فلم يصل منهم شيء الى ان علا النهار فسار في أثر الثقل حتى أتى قرية يقال لها الصياغين فجلس ساعة يترقب أخبار العدو وكان قد خلف جرديك قريب العدو وتعقب خلق عظيم باتوا قريب العدو فلم يصله خبر أصلاً فسار حتى أتى الثقل في منزلة يقال لها عيون الاوساد ولما بلغنا المنزل رأى خياماً فسأل عنها فقيل انها خيام الملك العادل فعدل لينزل عنده فأقام عنده ساعة ثم أتى خيمته وفقد الخبز في هذه المنزلة بالكلية وغلا الشعير حتى بلغ درهماً و بلغ رطل البقسماط درهمين ثم أقام السلطان حتى عبر وقت الظهر وركب وسار الى موضع يسمى الملاحة يكون منزلاً للعدو اذا رحلوا من حيفا وكان قد سبق ليتفقد المكان هل يصلح للمصاف أم لا و يتفقد أراضي قيسارية باسرها الى الشعرا وعاد الى المنزل بعد دخول وقت العشاء الآخرة وقد أخذ منه التعب وسألته عما بلغه من خبر العدو فقال وصل الينا من أخبرنا انه ما رحل من حيفا الى عصر يومنا هذا يعني ثاني شعبان وها نحن مقيمون مرتقبون أخبارهم و يكون العمل بمقتضاها و بات تلك الليلة وأصبح مقيماً بتل الزلزلة ينتظر العدو ونادى الجاويش بالعسكر للعرض فركب الناس على ترتيب المصاف وأهبته ٠ ولما علا النهار نزل السلطان في خيمته وأخذ نصيباً من الراحة بعد الغداء ٠ ومثول جماعة من الامراء الى خدمته وأخذ رأيهم فيما يصنعون ثم صلى الظهر وجلس يطلق أثمان الخيول المجروحة وغيرها الى العشاء الآخرة من مائة دينار الى مائة وخمسين ديناراً وزائد وناقص فما رأيت أفسح صدراً منه ولا أبسط وجهاً في العطاء واتفق الرأي على رحيل الثقل في عصر ذلك اليوم الى مجدل يافا *

المنزل الثالث * وأقام هو جريدة بالمنزل الى الصباح رابع الشهر وركب وسار في رأس النهر الجاري الى قيسارية ونزل هناك و بلغ رطل البقسماط أربع دراهم ورب الشعير درهمين ونصفاً والخبز لم يوجد أصلا ونزل في خيمة وأكل خبزا وصلى الظهر

وركب الى طريق العدو لتجديد ارشاده في ضرب المصاف ولم يعد الى ان دخل وقت العصر فجلس ساعة وأخذ جزأ من الراحة ثم عاد وركب وأمر الناس بالرحيل ورمى خيمته ورمى الناس خيامهم في أواخر النهار *

المنزل الرابع * وكان الرحيل الى راية متأخرة عن تلك الراية وفي ذلك المنزل أتي باثنين من الافرنج قد تخطفهم اليزك فأمر بضرب رقابهما فقتلا وتكاثر الناس عليهما بالسيوف تشفيا ثم بات هناك وأصبح مقيا بالمنزلة لانه لم يصح عن العدو رحيل وأنفذ الى الثقل حتى يعود اليه في تلك الليلة مما طرأ على الناس من الضيق في للآ كل والقضم وركب في وقت عادته الى جهة العدو وأشرف على قيسرية وعاد الى الثقل قريب الظهر وقد وصل الخبر ان العدو لم يرحل بعد من الملاحة وأحضر عنده اثنان أيضاً قد أخذا من أطراف العدو فقتلا شر قتلة وكان في حدة الضيقة لما جرى على أسرى عكا ثم أخذ جزأ من الراحة وجلس بعد صلاة الظهر وحضرت عنده وقد أحضر بين يديه من العدو فارس مذكور هيئته تخبر عن انه متقدم فيهم فاحضر ترجمانا وبحث عن أحوال القوم وسأله كيف يسوى الطعام عندكم فقال أول يوم رحلنا من عكا كان الانسان يشبع بستة قراطيس فلم يزل السعر يغلو حتى صار يشبع بثمانية قراطيس وسأل عن سبب تأخرهم في المنازل فقال لانتظار وصول المراكب بالرجال والميرة فسأل عن القتلى والجرحى في يوم رحيلهم فقال كثير فسأل عن الخيل التي هلكت في ذلك اليوم فقال مقدار أربعمائة فرس فأمر بضرب عنقه ونهى عن التمثيل به فسأل الترجمان عما قال السلطان فأخبره بما قال فتغير تغيرًا عظيما وقال أنا أخلص لكم اسيرًا من عكا فقال رحمه الله بل اميرا فقال لا اقدر على خلاص امير فشفع الطمع فيه وحسن خلقه فاني ما رايت اتم خلقاً منه مع ترف في الاطراف ورفاهية فأمر ان يترك الآن ويؤخر امره فصفده وعاتبه على ما بدا منهم من الغدر وقتل الاسرى فاعترف بانه قبيح وانه لم يجر الا برضا الملك وحده وركب السلطان بعد صلاة العصر على عادته وبعد ان نزل امر بقتل الفارس المذكور واتي بعده باثنين فأمر بقتلهما وبات في ذلك المنزل المذكور * وذكر له في السحر ان العدو قد تحرك نحو قيسارية

وقارب اوائلهم البلد فرأى ان يتأخر من طريق العدو منزلا آخر *

المنزل الخامس * فرحل ورحل الناس الى قريب التل الذي كنا عليه فنزل الناس وضربت الخيام ومضى هو يرتاد الاراضي الكائنة في طريق العدو لينظر أيها أصلح للمصاف ونزل قريب الظهر واستدعى أخاه الملك العادل وعلم الدين سليمان وأخذ رأيهما فيما يصنع وأخذ جزءاً من الراحة وأذن الظهر فصلى وركب ليشرف وليكشف عن العدو ويتنسم أخباره وأتاه اثنان من الافرنج قد نهبا فأمر بقتلها فقتلا ثم أتى باثنين آخرين فقتلا أيضاً . وجيء في أواخر النهار باثنين فقتلا أيضاً وعاد من الركوب وصلى صلاة المغرب وجلس على عادته واستدعى أخاه وصرف الناس وخلى به الى هزيع من الليل ثم بات وأصبح ونادى الجاويش لعرض الحلقة لا غير وركب الى جهة العدو ووقف على تلول مشرفة على قيسارية وكان العدو قد وصل اليها نهار الجمعة سادس شعبان ولم يزل يعرض هناك الى ان علا النهار ثم نزل وأكل الطعام وركب الى أخيه وعاد بعد صلاة الظهر وأخذ جزءاً من الراحة وجلس وأتى بأربعة عشر من الافرنج وامرأة افرنجية بينهم أسيرة وهي بنت الفارس المذكور ومعها أسيرة مسلمة قد أخذتها فأطلقت المسلمة ورفع الباقون الى الزردخانة وهؤلاء أتى بهم من بيروت أخذوا في مركب من جملة عدة كثيرة فقتلوا كل ذلك في نهار السبت سابع الشهر وهو في المنزلة ينتظر رحيل العدو مجمعاً على لقائه اذا رحل *

المنزل السادس * ولما كان صبيحة الثامن ركب السلطان على عادته ثم نزل ووصله من أخيه أن العدو على حركة وكانت الاطلاب قد باتت حول قيسارية في مواضعها فأمر بمد الطعام وأطعم الناس فوصل ثان وأخبر ان القوم قد ساروا فأمر بالكؤوس فدقت وركب وركب الناس وسار وسرت في خدمته حتى أتى العدو وصف الاطلاب حوله وأمرهم بقتالهم وأخرج الجاليش فكان النشاب بينهم كالمطر وكان عسكر العدو قد رتب فكانت الرجالة حوله كالسور وعليهم اللبود الثخينة و لزرديات السابغة المحكمة بحيث يقع فيهم النشاب ولا يتأخرون وهم يرموننا بالزنبورك فيجرح خيل المسلمين وخيالتهم ولقد شاهدتهم ويتغرز في ظهر الواحد منهم الواحد والعشرة وهو يسير على

هيئته من غير انزعاج . وثم قسم آخر من الرجالة مستريح يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهم فاذا تعبت هذه المقاتلة أو أثخنتهم الجراح قام مقامهم المستريح واستراح القسم المقاتل . هذا والخيالة في وسطهم لا يخرجون عن الرجالة الا في وقت الحملة لا غير وقد انقسموا أيضاً ثلاثة اقسام . القسم الاول الملك العتيق جفرى وجماعة الساحلية معه في المقدمة والانكتار والفرنسيس معه في الوسط . وأولاد الست أصحاب طبرية وطائفة أخرى في الساقة وفي وسط القوم برج على عجلة على ما وصفته من قبل أيضاً كالمنارة العظيمة هذا ترتيب القوم على ما شاهدته وأخبر به من خرج منهم من الاسرى والمستأمنين وساروا على هذا المثال وسوق الحرب قائمة والمسلمون يرمونهم بالنشاب من جوانبهم ويحركون عزائمهم حتى يخرجوا وهم يحفظون نفوسهم حفظاً عظيماً ويقطعون الطريق على هذا الوضع و يسيرون سيراً رقيقاً ومراكبهم تسير في مقابلتهم في البحر الى ان أتوا منازلهم وكانت منازلهم قريبة لاجل الرجالة فان المستريحين كانوا يحملون اثقالهم وخيمهم لقلة الظهر عندهم . فانظر الى صبر هؤلاء القوم على الاعمال الشاقة عن غير دين ولا نفع وكانت منزلهم قاطع نهر قيسارية يسر الله فتحها *

المنزل السابع * ولما كانت صبيحة التاسع وصل من أخبر ان العدو قد ركب سائراً فركب السلطان أول الصبح وطلب الاطلاب وأخرج من كل جانب جاليشاً فسار يطلب القوم فأتاهم وهم سائرون على عادتهم ثلاثة أقسام وطاف الجاليش حولهم من كل جانب ورموهم بالنشاب وهم سائرون ثلاثة أقسام على المثال الذي حكيته وكلما ضعف قسم عاونه الذي يليه وهم يحفظ بعضهم بعضاً والمسلمون محدقون بهم من ثلاثة جوانب والقتال بينهم شديد والسلطان يقرب الاطلاب ورأيته وهو يسير بنفسه بين الجاليش ونشاب القوم يجاوزه وليس معه الا صبيان بجنيبه لا غير وهو يسير من طلب الى طلب يحثهم على التقدم ويأمرهم بمضايقة القوم ومقاتلتهم والكؤوس تخفق والبوقات تنعر والصياح بالتهليل والتكبير يعلو . هذا والقوم على أتم ثبات على ترتيبهم لا يتغيرون ولا ينزعجون وجرت حالات كثيرة ورجالتهم تجرح المسلمين وخيولهم بالزنبورك والنشاب ولم نزل حواليهم نقاتلهم ونحمل عليهم وهم يكرون بين أيدينا

ويغرون الى ان أتوا نهرا يقال له نهر القصب ونزلوا عليه وقد قامت الظهيرة وضربوا خيامهم وتراجع الناس عنهم فانهم كانوا اذا نزلوا أيس الناس منهم ورجعوا عن قتالهم وفي ذلك اليوم قتل من فرسان الاسلام شجاع اسمه إياز الطويل بعض مماليك السلطان وكان قد فتك فيهم وقتل خلقاً من خيالتهم وشجعانهم وكانت قد فاضت شجاعته بين العسكرين بحيث انه جرت له وقعات كثيرة صدقت أخبار الاوائل وصار بحيث اذا عرفه الافرنج في موضع يخافونه فتنطرت به فرسه واستشهد وحزن المسلمون عليه حزناً عظيماً ودفن على تل مشرف على البركة ونزل السلطان بالثقل على البركة وهي موضع يجتمع فيه مياه كثيرة وأقام في تلك المنزلة الى ما بعد صلاة العصر وأطعم الناس خبزا واستراحوا ساعة ثم رحل وأتى نهر القصب ونزل عليه أيضاً فشرب منه قليلا من أعلاه والعدو يشرب من أسفله ليس بيننا الا مسافة يسيرة وبلغ ربع الشعير أربعة دراهم والخبز موجود كثيرا وسعره بالرطل بنصف درهم واقام ينتظر رحيل الافرنج حتى يرحل في مقابلتهم فباتوا وبتنا ايضاً *

﴿ ذكر وقعة جرت ﴾

وذلك ان جماعة من العسكر الاسلامي كانوا مشرفين على العدو فصادفوا جماعة منهم يشرفون ايضاً على العسكر الاسلامي فظفروا بهم وهجموا عليهم وجرى بينهم قتال عظيم فقتل من العدو جماعة وأحس بهم عسكر العدو فثار اليهم منهم جماعة واتصل الحرب وقتل أيضاً من المسلمين نفران وأسر من العدو ثلاثة ومثلوا بخدمة السلطان فسألهم عن الاحوال فأخبروا ان ملك الانكتار كان قد حضر عنده بعكا اثنان بدويان وأنهما أخبراه بقلة العسكر الاسلامي وذلك الذي أطمعه حتى خرج وانه لما كان بالامس يعني يوم الاثنين رأى من المسلمين قتالا عظيما واستكثر الاطلاب وانه جرح زهاء الف نفر وقتل جماعة وان ذلك هو الذي اوجب اقامته اليوم حتى يستريح عسكره وانه لما رأى ما اصابهم من القتال العظيم وكثرة المسلمين احضر البدو بين عنده واوقفهما وضرب اعناقهما . واقمنا في ذلك اليوم في تلك المنزلة لاقامة

العدوّ بها وهو الثلاثاء العاشر من شعبان

المنزل الثامن . ولما كان ظهر اليوم المذكور رأي السلطان الرحيل والتقدم الى قدام العدو فدق الكؤس ورحل الناس ودخل في شعرا أرسوف حتى توسطها الى تل عند قرية تسمى دير الراهب فنزل هناك ودهم الناس الليل فتقطعوا في الشعرا وأصبح مقيما ينتظر بقيــة العساكر الى صباح الاربعاء الحادي عشر وتلاحقت العساكر وركب يرتاد موضعاً يصلح للقتال ولقاء العدو وأقام ذلك اليوم أجمع هناك . ومن أخبار العدو في تلك المنزلة انه أقام على نهر القصب ذلك اليوم أيضاً وانه لحقته نجدة من عكا في ثمان بطس كبار واليزك الاســلامي حوله يواصلون الاخبار المتجددة بهم وجرى بين اليزك و بين حشاشة العدو قتال وجرح من الطائفتين

﴿ ذكر مراسلة جرت في ذلك اليوم ﴾

وذلك ان العدو طلب من اليزك من يتحدث معه وكان مقدم اليزك علم الدين سليمان فانها كانت نو بته فلما مضي اليهم من سمع كلامهم كان كلامهم طلب الملك العادل حتى يتحدثوا معهُ فاستأذن ومضي و بات تلك الليلة في اليزك وتحدثوا معه وكان حاصل حديثهم انه قد طال بيننا القتال وقد قتل من الجانبين الرجال الابطال وانا نحن جئنا في نصرة أفرنج الساحل فاصطلحوا انتم وهم وكل منا يرجع الى مكانه وكتب السلطان الى أخيه في صبيحة يوم الخميس الثاني والعشرين رقعة يقول له فيها « ان قدرت ان تطاول الافرنج فلعلهم يقيمون اليوم حتى يلحقنا التركمان فانهم قد قربوا منا »

﴿ ذكر اجتماع الملك العادل والانكتار ﴾

ولما علم الانكتار وصول الملك العادل الى اليزك طلب الاجتماع به فأجابه الى ذلك فاجتمعا بفرقة من أصحابهما وكان يترجم بينهما ابن الهنفري وهو من أفرنج الساحل من كبارهم ورأيته يوم الصلح وهو شاب حسن الا انه محلوق اللحية على ما هو شعارهم .

وكان الحديث بينهما ان الانكتار شرع في ذكر الصلح وان الملك العادل قال له أنتم تطالبون الصلح ولا تذكرون مطلوبكم فيه حتى أتوسط أنا الحال مع السلطان فقال له الانكتار القاعدة ان تعود البلاد كلها الينا وتنصرفوا الى بلادكم فاخشن له الجواب وجرت منافرة اقتضت انهم رحلوا بعد انفصالهم * ولما أحس السلطان رحيلهم أمر الثقل بالرحيل ووقف هو وعبي الناس تعبية القتال وسار الثقل الصغير أيضاً حتى قارب الثقل الكبير ثم ورد أمر السلطان بعودهم اليه فعادوا ووصلوا وقد دخل الليل وتخبط الناس تلك الليلة تخبطاً عظيماً واستدعى اخاه ليعرفه ما جرى بينه و بين الملك وخلا به لذلك وذلك في ليلة الجمعة ليلة الثالث عشر * واما العدو فانه سار ونزل على موضع يسمى البركة ايضاً يشرف على البحر واصبح السلطان في يوم الجمعة متطلعاً الى اخبار العدو فأحضر عنده اثنان من الافرنج قد تخطفهما اليزك فأمر بضرب اعناقهما ووصل من اخبر ان العدو لم يرحل اليوم من منزلته تلك فنزل السلطان واجتمع بأخيه يتحدثان في هذا الامر وما يصنع مع العدو و بات تلك الليلة في تلك المنزلة

﴿ ذكر وقعة ارسوف وهي أنكت في قلوب المسلمين ﴾

ولما كان يوم السبت الرابع عشر بلغ السلطان ان العدو حرك الرحيل نحو أرسوف فركب ورتب الاطلاب للقتال وعزم على مضايقتهم في ذلك اليوم ومصادمتهم واخرج الجاليش من كل طلب وسار العدو حتى قارب شعرا ارسوف و بساتينها فأطلق عليهم الجاليش النشاب ولزتهم الاطلاب من كل جانب والسلطان يقرب بعضها و يوقف بعضها ليكون ردأ ويضايق العدو مضايقة عظيمة والتحم القتال واضطرمت ناره من الجاليش وقتل منهم وجرح فاشتدوا في السير عساهم يبلغون المنزلة فينزلوا واشتد بهم الامر وضاق بهم الخناق والسلطان يطوف من الميمنة الى الميسرة يحث الناس على الجهاد ولقيته مرارًا ليس معه الا صبيان بجنيبه لا غير ولقيت أخاه وهو على مثل هذه الحال والنشاب يتجاوزهما ولم يزل الامر يشتد بالطمع للعدو وطمع المسلمون فيهم طمعاً عظيما حتى وصل أوائل راجلهم الى بساتين أرسوف ثم اجتمعت الخيالة

وتواصلوا على الحملة خشية على القوم ورأوا انهم لا ينجيهم الا الحملة * ولقد رأيتهم وقد اجتمعوا في وسط الرجلة وأخذوا رماحهم وصاحوا صيحة الرجل الواحد وفرج لهم رجالتهم وحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها فحملت طائفة على الميمنة وطائفة على الميسرة وطائفة على القلب فاندفع الناس بين أيديهم واتفق اني كنت في القلب ففر القلب فرارًا عظيمًا فنويت التحيز الى الميسرة وكانت أقرب اليّ ووصلتها وقد انكسرت كسرة عظيمة وفرت أشد فرار من الكل فنويت التحيز لى طلب السلطان وكان ردأ الاطلاب كلها كما جرت العادة ولم يبق للسلطان فيه الا سبعة عشر مقاتلا لا غير وأخذ الباقون الى القتال لكن الاعلام كلها باقية ثابتة والكؤوس تدق لا تفتر وأما السلطان فانه لما رأى ما نزل بالمسلمين من هذه النازلة سار حتى أتى الى طلبه فوجد فيه هذا النفر القليل فوقف فيه والناس ينفرون من الجوانب وهو يأمر أصحاب الكؤوس بالدق بحيث لا يفترون وكلما رأى فارًا يأمر من يحضره عنده وفي الجملة ماقصر الناس بفرارهم فان العدو حمل حملة ففروا ثم وقف خوفًا من الكمين فوقفوا وقاتلوا ثم حمل حملة ثانيــة ففروا وهم يقاتلون في فرارهم ثم وقف فوقفوا ثم حمل حملة ثالثة حتي بلغ الى رؤوس رواب هناك وأعالي تلول ففروا الى ان وقف العدو ووقفوا وكان كل من رأى طلب السلطان واقفًا والكؤوس تدق يستحيي ان يجاوزه ويخاف غائلة ذلك فيعود الى الطلب فاجتمع في القلب خلق عظيم ووقف العــدو قبالتهم على رؤوس التلول والروابي والسلطان واقف في طلبه والناس يجتمعون عليه حتى أتت العساكر بأسرها وخاف العدو ان يكون في الشعرا كمين فتراجعوا يطلبون المنزلة وعاد السلطان الى تل في أوائل الشعرا ونزل عليه في خيمته . ولقد كنت في خدمته أسليه وهو لا يقبل السلوّ وظلل عليه بمنديل وسألناه أن يطعم شيئًا فأحضر له شيء لطيف فتناول شيئًا يسيرًا وبعث الناس للسقي فان المكان كان بعيدًا وجلس ينتظر الناس من العود من السقي والجرحى يحضرون بين يديه وهو يتقدم بمداواتهم وحملهم وقتل في ذلك اليوم رجالة كثيرة وجرح جماعة من الطائفتين . وكان ممن ثبت الملك العادل والطواشي ايماز النجمي والملك الافضل ولده وصدم في ذلك اليوم وانفتح دمل كان في وجهه

وسال منه دم كثير على وجهه وهـو صابر محتسب في ذلك كله وثبت أيضاً طاب الموصل ومقدّمة علاء الدين وشكره السلطان على ذلك وتفقد الناس بعضهم بعضاً فوجدوا ان قد استشهد جماعة من العسكر عرف منهم شخصان أمير كبير مملوك وكان شجاعاً معروفاً وقايماز العادلي وكان مذكوراً وليفوش وكان شجاعاً وجرح خلق كثير وخيول كثيرة وقتل من العدو جماعة وأسر واحد وأحضر فأمر بضرب عنقه وأخذت منهم خيول أربعة وكان قد تقدم رحمه الله الى الثقل أن يسير الى العوجاء وذكر أن المنزل يكون على العوجاء فاستأذنته وتقدمت الى المنزل وجلس هو ينتظر اجتماع العساكر وما يرد من أخبار العدو وكان العدو قد نزل على ارسوف قبليها

﴿ المنزل التاسع ﴾ وسرت بعد صلاة الظهر حتى أتيت الثقل وقد نزل قاطع النهر المعروف بالعوجاء في منزلة خضراء طيبة على جانب النهر ووصل السلطان الى المنزلة أواخر النهار وازدحم الناس على القنطرة فنزل على تل مشرف على النهر ولم يعد الى الخيمة وأمر الجاويش ان ينادي في العسكر بالعبور اليه وكان في قلبه من الوقعة أمر لا يعلمه الا الله تعالى والناس بين جريح الجسد وجريح القلب وأقام السلطان الى سحر الخامس عشر ودق الكؤوس وركب وركب الناس وسار راجعاً الى جهة العدو حتى وصل الى قريب أرسوف وصف الاطلاب للقتال رجاء خروج العدو ومسيره حتى يصاف فلم يرحل العدو في ذلك اليوم لما نالهم من التعب والجراح وأقام قبالتهم الى آخر النهار وعاد الى منزلته التي بات فيها * ولما كانت صبيحة السادس عشر دق الكؤس وركب وركب الناس وسار نحوهم ووصل خبر العدو انه قد رحل طالباً جهـة يافا فقاربهم مقاربة عظيمة ورتب الاطلاب ترتيب القتال وأخرج الجاليش وأحدق العسكر الاسلامي بالقوم وألقوا عليهم من النشاب ما كان يسد الافق وقاتلت قلوبهم قتال الحنق وقصد رحمه الله تحريك عزائمهم على الحملة حتى اذا حملوا ألقى الناس عليهم وقصدوهم و يعطي الله النصر لمن يشاء فلم يحملوا وحفظوا نفوسهم وساروا مصطفين على عادتهم حتى أتوا نهر العوجاء وهو النهر الذي منزلتنا أعلاه فنزل في اسفله وعبر بعضهم الى غربي النهر واقام الباقون من الجانب الشرقي فلما علم الناس

بتز ولم تراجع الناس عنهم وعاد السلطان الى الثقل ونزل في خيمته وأطعم الطعام وأتى بار بعة من الافرنج قد أخذتهم العرب ومعهم امرأة فرفعوا الى الزردخانات وأقام بقية ذلك اليوم يكتب الكتب الى الاطراف باستحضار بقية العساكر وحضر من أخبر انه قتل من العدو يوم أرسوف خيول كثيرة وانه تتبعها العرب وعدوها فزادت على مائة وأمر السلطان ان رحلت الجمال وتقدمت الى الرملة و بات هو بتلك المنزلة *

﴿ المنزل العاشر ﴾ ولما كان سابع عشر صلى الصبح ورحل ورحل معه الثقل الصغير وسار يريد الرملة وأتى باثنين من الافرنج فضرب أعناقهم ووصل من اليزك من أخبر ان العدو رحل من يافا وسار السلطان الى ان أتى الرملة وأتى باثنين من الافرنج أيضاً فسألهم عن أحوالهم فذكروا انهم ربما أقاموا بيافا أياماً وفي أنفسهم عمارتها وشحنها بالرجال والعدد فأحضر السلطان أرباب مشورته وشاورهم في أمر عسقلان وانها هل تخرب أو تبقى واتفق الرأي على ان يتخلف الملك العادل ومعه طائفة من العسكر مقارب العدو ليعرف أحوالهم واتصالها وان يسير هو و يخرب عسقلان خشية ان يستولى عليها الافرنج وهي عامرة فيقتلوا من بها من المسلمين و يأخذوا بها القدس الشريف و يقطعوا بها طريق مصر وخشي السلطان من ذلك وعلم عجز المسلمين عن حفظها لقرب عهدهم من عكا وما جرى على من كان مقيماً بها ويخيفوا الناس عن الدخول الى عسقلان فادخرت القوة في عسكر الاسلام لحفظ القدس المحروس فتعين لذلك خراب عسقلان فسار الثقل والجمال من أول الليل وتقدم الى ولده الملك الافضل ان سار عقيب الثقل نصف الليل وسار هو وأنا في خدمته سحر الاربعاء *

﴿ المنزل الحادي عشر ﴾ وهو على عسقلان * ولما كان يوم الاربعاء ثامن عشر الشهر وصل السلطان الى يبنا فنزل بها ضحى وأخذ الناس راحة ثم رحل وسار حتى أتى أرض عسقلان وقد ضربت خيمته بعيداً منها فبات هناك مهموماً بسبب الخراب وما نام الا قليلاً . ولقد دعاني في خدمته سحراً وكنت فارقت خدمته بعد مضي نصف الليل فحضرت و بدأ بالحديث في معنى خرابها وأحضر ولده الملك الافضل وشاوره في

ذلك وطال الحديث في المعنى . ولقد قال لي والله لأن أفقد أولادي بأسرهم أحب الي من ان أهدم منها حجرًا واحدًا ولكن اذا قضى الله ذلك لحفظ مصلحة المسلمين كان ثم استخار الله تعالى فأوقع الله في نفسه ان المصلحة في خرابها لعجز المسلمين عن حفظها فاستحضر الوالي قيصر بها وهو من كبار مماليكه وذوي الآراء منهم فأمره بجمع المال فيها ولقد رأيته وقد اجتاز بالسوق والوطاق بنفسه مستقر الناس للخراب وقسم السور على الناس وجعل لكل أمير وطائفة من الناس العسكر بدنةمعلومةو برجًا معلومًا يخربونه ودخل الناس البلد ووقع الضجيج والبكاء وكان بلدًا نضرًا خفيفًا على القلب محكم الاسوار عظيم البناء مرغوبًا في سكناه فلحق الناس عليه حزن عظيم وعظم عويل أهله على مفارقة اوطانهم وشرعوا في بيع مالا يمكن حمله فبيع ما يساوي عشرة دراهم بدرهم واحد واختبط البلد وخرج اهله الى العسكر بذراريهم ونسائهم خشية انيهجم الافرنج و بذلوا في الكراء اضعاف ما يساوي قوم الىمصر وقوم الى الشام وقوم يمشون اذ لم يقع لهم كراء وجرت امور عظيمة وفتنة هائلة لعلها لم تختص بالذين ظلموا وكان هو بنفسه وولده الملك الافضل يستعملان الناس في الخراب والحث عليه خشية ان يسمع العدو فيحضر ولا يمكن خرابها و بات الناس في الخيام على اتم حال من التعب والنصب . وفي تلك الليلة وصل من جانب الملك العادل ان الافرنج تحدثوا معه في الصلح وانه خرج اليه ابن الهنفري وتحدث معه وانه طلب جميع البلاد الساحليةفرأى السلطان ان ذلك مصلحة لما رأى في انفس الناس من الضجر والسآمة من القتال والمصابرة وكثرة ما علاهم من الديون وكتب اليه يسمح في الحديث فيذلك وفوّض امر ذلك الى رأيه واصبح في المشرين على الاصرار على الخراب واستعمال الناس فيه وحثهم عليه واباحهم الهري الذي كان ذخيرة في البلد للعجز عن نقله وضيق الوقت والخوف من هجوم الافرنج وامر بحريق البلدفأضرمت النار في بيوته ودرره ورفض اهله بواقي الاقمشة للعجز عن نقلها والاخبار تتواتر من جانب العدو بعمارة يافا وكتب الملك العادل يخبر ان القوم لم يعلموا بخراب البلد وان سوّف القوم وطوّل الحديث لعلنا نتمكن من الخراب وامر بحشو ابراج البلد بالاحطاب وان تحرق واصبح الحادي

والعشرون فركب يحث الناس ودام يستعملهم على التخريب و يطوف عليهم بنفسه حتى الثالث مزاجه التياثا قويا امتنع بسببه من الركوب والغذاء يومين واخبار العدو تتواصل اليه في كل وقت و يجري بينهم و بين اليزك والعسكر وقعات وقلبات وهو مواظب على الحث على الخراب ونقل الثقل الى قريب البلد ليعاونوا الغلمان والحمالين وغيرهم في ذلك فخرب من السور معظمه وكان عظيم البناء بحيث انه كان عرضه في مواضع تسعة أذرع وفي مواضع عشرة أذرع وذكر بعض الحجارين للسلطان وأنا حاضر ان عرض السور الذي ينقبون فيه مقدار رمح ولم يزل التخريب والحريق في البلد وأسواره الى سلخ شعبان وعند ذلك وصل من جرديك كتاب يذكر فيه أن القوم يتفسحون وصاروا يخرجون من يافا يغيرون على البلاد القريبة منها فتحرك السلطان لعله يبلغ منهم غرضا في غرتهم فعزم على الرحيل وعلى أن يخلف في عسقلان حجارين ومعهم خيل تحميهم ويستنهضونهم في الخراب ثم رأى ان يتأخر بحيث يحرق البرج المعروف بالاسبتار وكان برجا عظيما مشرفا على البحر كالقلعة المنيعة ولقد دخلته وطفته فرأيت بناءه أحكم بناء يقرب من أن لا تعمل فيه المعاول وانما أراد ان يحرقه حتى يبقى بالحريق قابلا للخراب ويعمل الهدم فيه . وأصبح مستهل رمضان فأمر ولده الملك الافضل أن يباشر ذلك بنفسه وخواصه * ولقد رأيته يحمل الخشب هو وخواصه لحريق البرج ولم يزل الناس ينقلون الخشب و يحشونه في البرج حتى امتلأ ثم أطلقت فيه النار فاشتعل الخشب وبقيت النار تشتعل فيه يومين بلياليهما ولم يركب السلطان في ذلك اليوم تسكينا لمزاجه وعرض لي أيضا تشوش مزاج اقتضى انقطاعي عنه في ذلك اليوم ولقد تردد الى من سأل عن مزاجي من عنده ثلاث مرات مع اشتغال قلبه بذلك المهم . فالله تعالى يرحمه لقد ماتت محاسن الاخلاق بموته *

﴿ ذكر رحيله الى الرملة ﴾

ثم رحل السلطان ثاني رمضان نصف الليل خشية على مزاجه من الحر ووصل يبنا ضحوة النهار ونزل في خيمة أخيه واستعلم منه أخبارهم ساعة ثم ركب ونزل في خيمته

وبات في تلك المنزلة وأصبح ثالث الشهر راحلا الى جهة الرملة فسار حتى أتاها ضحوة النهار ونزل بالثقل الكبير نزول اقامة ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلباً وأطعم الناس الطعام وأخذ جزءاً من الراحة وركب بين صلاتي الظهر والعصر وسار الى لدّ ورآها ورأى يعمّها وعظم بنائها فأمر بخرابها وخراب قلعة الرملة فوقع الخراب في الموضعين في ذلك اليوم وفرق الناس فرقاً لتخريب المكانين وأباح ما فيها من التبن والشعير في الاهراء السلطانية وأمر من كان فيها من المقيمين بالانتقال الى المواضع العامرة وما كان بقي في المكانين الا نفر يسير وظلّ الناس يخربون الى ان أمسى المساء ثم عاد الى خيمته وأصبح رابع رمضان فأقام الحجارين في المكانين ورتب عليهم من يستنجزهم في ذلك وهو يتردد عليهم في الاصائل حتى جاء وقت المغرب فمد الطعام وأفطر الناس وانفصلوا الى خيمهم ووقع له أن يسير خفية في نفر يسير يشاهد أحوال القدس فسار من أول الليل حتى أتى بيت نوبة فبات فيها حتى اتى الصباح وصلى ثم سار حتى اتى القدس في خامس الشهر وخلف اخاه في العسكر يحث الناس على الخراب واقام ذلك اليوم يتصفح احوال القدس في عمارته وميرته وعدته ورجاله وغير ذلك وظفر في ذلك غلمان الطواشي قايماز بنفر من النصارى ومعهم كتب قد كتبها الوالي الى السلطان قريبة التاريخ يذكر فيها اعواز البلد الغلة والعدة والرجال فوقف على الكتب وضربت رقاب كل من كان معهم وما زال يتصفح احوال المكان ويأمر بسد خلله الى الثامن وخرج سائراً الى العسكر بعد صلاة الظهر فبات في بيت نوبة . وفي هذا اليوم وصل عز الدين قيصر شاه صاحب ملطية ابن قليج ارسلان وافداً عليه مستنصراً به على اخوته وابيه فانهم كانوا يقصدون اخذ بلده منه فلقيه الملك العادل قاطع لدّ فاحترمه واكرمه ثم لقيه الملك الافضل وضربت خيمته قريباً من لدّ . وفي ذلك اليوم خرج من العدو الحشاشة فحمل عليهم اليزك ووصل الخبر الى معسكرهم فخرج الى نصرتهم خيالة وجرى بينهم وبين اليزك قتال وذكر بعض الاسرى انه كان معهم الانكتار وان مسلماً قصد طعنه فحال بينه وبينه افرنجي فقتل الافرنج وجرح هو هكذا ذكروا والله اعلم *

ولما كان التاسع وصل رحمه الله الى المعسكر ولقيه الناس مستبشرين بقدومه ولقيه ابن قليج ارسلان فنزل له واحترمه واكرمه ونزل في خيمته واقام يحث الناس على التخريب وتتواصل اخبار العدو اليه ويقع بينهم و بين اليزك وقعات و يسرق العرب من خيولهم ويقاتلهم رجالهم *

﴿ ذكر وصول رسول مركيس ﴾

وفي غضون ذلك وصل رسول المركيس يذكر انه يصالح الاسلام بشرط ان يعطى صيدا و بيروت على ان يجاهر الافرنج بالمداوة و يقصد عكا و يحاصرها و يأخذها منهم واشترط ان يبذل السلطان اليمين على ذلك ابتـداء فسير العدل النجيب وحمله الاجابة الى ملتمسه لقصد فصله عن الافرنج فانه كان خبيثاً ملعوناً وكان قد استشعر منهم أخذ بلده وهي صور فانحاز عنهم واستعصم بصور وهي منيعة فقال ذلك القول لهذا السبب وسار النجيب العدل مع رسوله في الثاني عشر واشترط عليه ان يبدأ بمجاهرة القوم وحصار عكا وأخذها واطلاق من بها و بصور من الاسرى وعنـد ذلك يسلم اليه الموضعان

وفي عشية ذلك اليوم خرج رسول ملك الانكتار الى الملك العادل في تحريك سلسلة الحديث في الصلح *

ولما كان الثالث عشر من رمضان رأى السلطان ان يتأخر العسكر الى الجبل ليتمكن الناس من انفاذ دوابهم الى العلوفة فانا كنا على الرملة قريبين من العدو ولا يمكن التفريط في الدواب خشية المهاجمة فرحل ونزل على جبل متصل بجبل النطرون بالثقل الكبير وجميع العساكر ما عدا اليزك على العادة وذلك بعد خراب الرملة ولد ولما نزل هناك دار حول النطرون وأمر بخرابها وكانت قلعة منيعة حصينة من القلاع المذكورة فشرع في خرابها

وترددت الرسل بين الملك العادل والانكتار يذكرون انه قد سلم أمر الصلح الى الملك العادل وأخلد اليه وخرج في عشرة أنفس الى اليزك فاخبروه باخبار طيبة

وكتب بها الى السلطان في السابع عشر وكان مما أخبره به أخوه ان الملك أفرنسيس مات وكان موته بانطاكية عن مرض عرض له وان الانكتار عاد الى عكا وكان سبب عوده انه صح عنده مراسلة المركيس للسلطان و بلغه ان المركيس قد انتظم الحال بيننا و بينه وانه قد استقرت القاعدة على عكا فعاد هو الى عكا لفسخ هذه المصالحة واسترجاع المركيس اليه فركب السلطان الى اليزك واجتمع باخيه في لد وسأله عن الاخبار وعاد الى المخيم وقت العصر وأتى باثنين من الافرنج قد تخطفهم اليزك فاخبروا بصحة موت الافرنسيس وعود الانكتار الى عكا *

﴿ ذكر مسير الملك العادل الى القدس ﴾

ولما كان التاسع عشر اقتضى الحال تفقد القدس والنظر في عمارته وكان الملك العادل قد عاد من اليزك وعلم بعد مسير مقدمي الافرنج عنا فرأى ان يكون هو الذي يسير فسار في هذا اليوم لهذا الغرض

وفي تاريخ هذا اليوم وصل كتاب من تقي الدين يخبر فيه ان قزل صاحب ديار العجم ابن يلدكز قفز عليه أصحابه فقتلوه وقيل ان ذلك كان من تحت يد زوجته تعصباً للسلطان طغريل وجرى بسبب قتله خبط عظيم في بلاد العجم وكان قتله في أوائل شعبان من هذه السنة *

ولما كان الحادي والعشرون من رمضان قدم الملك العادل من القدس وفي هذا التاريخ وصل كتاب من الديوان العزيز النبوي يذكر فيه قصد الملك المظفر تقي الدين خلاط ويذكر فيه العناية التامة بيكتمر و يشفع في حسن ابن قفجاق والتقدم باطلاقه وكان قد قبض عليه مظفر الدين بن زين الدين بار بل و يتقدم بمسير القاضي الفاضل الى الديوان لبث حال وفصل أمر وسير الكتاب الى الفاضل ليقف عليه و يكتب الى تقي الدين *

ذكر أخبار يزك كان على عكا ولصوص دخلوا في خيام العدو

ولما كان الثاني والعشرون أحضر لصوص فرسا و بغلة قد دخلوا الى خيم العدو وسرقوها وكان قد رتب رحمه الله ثلاثمائة لص من شاوح العرب يدخلون و يسرقون منهم أموالهم وخيولهم و يسرقون الرجال أحيانا وذلك انه يكون الواحد منهم نائما فيوضع على حلقه الخنجر ثم يوقظ فيرى الشلح وقد وضع الخنجر على نحره فيسكت ولا يتجاسر ان يتكلم فيحمل وهو على هـذا الوضع الى ان يخرج من الخيم و يؤخذ أسيرًا وتكلم منهم جماعة فنحروا فصار من أصابه ذلك لا يتكلم واختاروا الاسر على القتل وداموا على ذلك مدة طويلة الى انتظام الصلح *

وفي ذلك اليوم وصل من اليزك من أخبر انهم خرجوا من عكا يتفسحون وان اليزك حمل عليهم فأسر منهم احدا وعشرين نفسا وان الاسرى أخبروهم بصحة عود الانكتار الى عكا وانه مريض بها وأخبروا عن ضعف أهل عكا وفقرهم وقلة الميرة عندهم * وفي هذا التاريخ وصل للعدو مراكب عدة قيل انها وصلت من عكا وان فيها الانكتار قد عاد بجماعة عظيمة ليقصد عسقلان و يعمرها وقيـل يقصد القدس والله أعلم

ولما كان الرابع والعشرون وصل الاسرى المذكورون من الزيب وكان وصولهم فرحا للمسلمين مبشرًا بكل خير وفيـه وصل رسول قزل وكان قد سيره قبل وفاته ورسول ابن أخيه ايناج وفي عشيته وصل رسول من الانكتار معه حصان الى الملك العادل في مقابلة هدية كان أنفذها اليه . وفيه وصل خبر وفاة حسام الدين لاجين بدمشق لمرض كان اعتراه فصعب على السلطان موته وشق عليه وفيه وصل كتاب من سامة يذكر فيه ان البرنس أغار على جبلة واللاذقية وانه كسر كسرة عظيمة وقتل منه جماعة وعاد الى انطاكية

ذكر رسول الملك العادل الى الانكتار

ولما كان السادس والعشرون كان اليزك للعادل فطلب الانكتار رسوله فأنفذ

اليه الصنيعة وهو كاتبه . وكان شاباً حسناً فوصل اليه وهو في بازور قد خرج في جمع كثير من الرجالة وانبثوا في تلك الارض فاجتمع به وسار معه زمناً طويلا وحادثه في معنى الصلح وقال لا أرجع عن كلام أتحدث به مع اخي وصديقي يعني العادل وذكر له كلاماً وعاد وأخبر به فكتبه الملك العادل في رقعة وأنفذها الى السلطان وكان يتضمن انك تسلم عليه وتقول له ان المسلمين والافرنج قد هلكوا وخربت البلاد وخرجت من يد الفريقين بالكلية وقد تلفت الاموال والارواح من الطائفتين وقد أخذ هذا الامر حقه وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد . والقدس متعبدنا ما ننزل عنه ولو لم يبق منا الا واحد * وأما البلاد فيعاد الينا ما هو قاطع الاردن وأما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار له وهو عندنا عظيم فيمن به السلطان علينا ونصطلح ونستريح من هذا التعب * ولما وقف السلطان على هذه الرسالة استدعى أرباب المشورة في دولته واستشارهم في الجواب . والذي رآه السلطان ان قال القدس لنا كما هو لكم وهو عندنا أعظم مما هو عندكم فانه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة فلا تتصور أن ننزل عنه ولا نقدر على التفريط بذلك بين المسلمين وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الاصل واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف من كان فيها من المسلمين في ذلك الوقت وما يقدركم الله على عمارة حجر منها مادام الحرب قائماً وما في أيدينا منها نأكل بحمد الله مغله وننتفع به * وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة لا يجوز لنا أن نفرط فيها الا لمصلحة راجعة الى الاسلام هي أوفى منها وسار هذا الجواب اليه مع الواصل منه

﴿ ذكر هرب شيركوه بن باخل الكردي من عكا وكان أسيراً ﴾

ولما كان آخر السادس والعشرين وصل شيركوه بن باخلي وهو من جملة الامراء المأسورين بعكا وكان من قصته انه هرب ليلة الحادي والعشرين وذلك انه كان ادّخر له حبلا في مخدته وكان الامير حسن بن باريك ادّخر له حبلا في بيت الطهارة واتفقا على الهرب ونزلا من طاقة كانت في بيت الطهارة وانحدرا من السور الاول

وعبر شيركوه من الباشورة أيضاً وكان ابن باريك حالة نزوله انقطع به الحبل ونزل شيركوه سليما فرآه وقد تغير من الوقعة فكلمه فلم يجبه وحركه فلم يتحرك فهزه لعله ينشط فيسير معه فلم يقدر فعلم انه اذا أقام عنده أخذا جميعاً فتركه وانصرف واشتد هربا في قيوده حتى أتى تل العياضية وقد طلع الصبح فأكمن في الجبل حتى علا النهار وكسر قيده وسار وستر الله حتى أتى المعسكر ومثل بخدمة السلطان وكان من أخباره ان سيف الدين المشطوب ضيق عليه وانه قطع على نفسه قطيعة عظيمة من خيل وبغال وأنواع الاموال وان الملك الانكتار أتى عكا وأخذ كل ماله بها من خدمه ومماليكه وأقمشته ولم يبق له منها شيئا وأن فلاحي الجبل يمدونه بالميرة مدداً عظيما وأن طغرل السلحدار أخذ خواص مماليك السلطان وهربوا قبل هروبه

﴿ ذكر رسالة سيرني فيها الملك العادل الى السلطان مع جماعة من الامراء ﴾

وذلك انه لما كان التاسع والعشرون من رمضان استدعاني الملك العادل في صحبته وأحضر جماعة من الامراء علم الدين سليمان وسابق الدين وعز الدين بن المقدم وحسام الدين بشارة وشرح لنا ما عاد به رسوله من الانكتار من الرسالة والكلام وذلك انه ذكر انه قد أراد أن يتزوج الملك العادل بأخت الانكتار وكان قد استصحبها معه من صقلية فانها كانت زوجة صاحبها وقد مات فأخذها أخوها لما اجتاز بصقلية فاستقرت القاعدة على أن يكون مستقر ملكها بالقدس وأن أخاها يعطيها بلاد الساحل التي بيده من عكا الى يافا وعسقلان الى غير ذلك ويجعلها ملكة الساحل ويجعله ملك الساحل ويكون ذلك مضافا الى ما في يده من البلاد والاقطاع وانه يسلم اليه صليب الصلبوت وتكون القرى للداوية والاسبتار والحصون لهما وأسرانا تفك وكذلك أسراهم وأن الصلح يستقر على هذه القاعدة ويرحل الانكتار طالباً بلاده في البحر وينفصل الامر هكذا ذكر رسول العادل عن الانكتار. ولما عرف ذلك العادل بنى عليه أن استحضرنا عنده وحملنا هذه الرسالة الى السلطان وجعلني المتكلم فيها والجماعة يسمعون ونعرض عليه هذا الحديث فان استصوبه ورآه

مصلحة للمسلمين شهدنا عليه بالاذن في ذلك والرضا به وان أباه شهدنا عليه أن الحال في الصلح قد انتهى الى هذه الغاية وأنه هو الذي رأى أبطاله فلما مثلنا بالخدمة السلطانية عرضت عليه الحديث وتلونا عليه الرسالة بمحضر من الجماعة المذكورين فبادر الى الرضا بهذه القاعدة معتقدًا ان الانكتار لا يوافق على ذلك أصلاً فان هذه منه مكر وهزل فكررت عليه الرضا بذلك ثلاث مرات وهو يقول نعم ويفرح و يشهد على نفسه به فلما تحققنا منه ذلك عدنا الى الملك العادل فعرفناه بما قال وعرّفه الجماعة اني كررت عليه الحديث في تقييد الشهادة عليه وانه أصر على الاذن في ذلك واستقرت القاعدة عليه *

﴿ ذكر عود الرسول الى الانكتار بالجواب عن هذه الرسالة ﴾

ولما كان ثاني شوال سار ابن النحال رسولا من جانب السلطان ومن جانب الملك العادل فلما وصل الى مخيم العدو وأنفذ من عرف الملك بقدومه أنفذ اليه من قال له ان الملكه عرض عليها أخوها النكاح فسخطت من ذلك وغضبت بسببه وأنكرت ذلك انكارًا عظيما وحلفت بدينها المغلظ من يمينها انها لا تفعل ذلك وكيف تمكن مسلمًا من غشيانها ثم قال أخوها ان الملك العادل يتنصر وأنا أتمم ذلك وترك باب الكلام مفتوحًا *

ولما كان خامس شوال وصل الخبر ان الاسطول الاسلامي استولى على مراكب الافرنج وفيها مركب يعرف بالسطح قيل ان كان فيه خمسمائة نفر وزائد على ذلك وأنه قتل منهم خلق عظيم واستبقى منهم أربعة مذكورون وسر المسلمون بذلك وضربت بشائر النصر ونعق بوق الظفر فلله الحمد والمنة *

ولما كان سادس شوال جمع السلطان أكابر الامراء وأرباب الآراء من دولته وشاورهم كيف يصنع ان خرج العدو وكان قد تواصلت الاخبار عنهم انهم قد اتفقوا على الخروج الى العسكر الاسلامي فانفصل الرأي بين ذوي الآراء على أنهم يقيمون بمنزلتهم بعد تخفيف الاثقال فان خرج الافرنج كانوا على لقائهم *

وفي عشية ذلك اليوم استأمن من الافرنج اثنان على فرسين وأخبرا أن العدو على عزم الخروج وانهم زهاء عشرة آلاف فارس وذكرا انهم لا يعرفون قصدهم وهرب أسير مسلم من جانبهم وأخبر انهم قد أظهروا الخروج الى الرملة ثم فيما يتفقون على موضع يقصدونه * ولما تحقق السلطان أمر الجاويش ان ينادي في العسكر حتى يتجهز جريدة وشدت الرايات واتفق على انه يقف قبالة القوم ان خرجوا وسار في السابع مؤيداً منصوراً حتى أتى قبلي كنيسة الرملة ليلا فخيم هناك ليلته *

﴿ ذكر خروج الافرنج من يافا ﴾

ولما كانت صبيحة الثامن رتب الابطال للقتال وسلم اليزك للملك العادل وتبعه من يريد من الغزاة وكان قد وصل جماعة من الروم يريدون الغزاة فخرجوا من جملة من خرج فلما وصلوا الى خيام الافرنج هجم عليهم المماليك السلطانية لقوة جاشهم وأنسهم بقتالهم وثقتهم بمراكبهم ورموا عليهم النشاب فرآهم الغزاة والواصلون من الروم فاغتروا بأقدامهم ووافقوهم في فعلهم وقاربوا عسكر العدو فلما رأى الافرنج تلك المضايقة والمنازلة ثارت هممهم وحركتهم نخوتهم فركبوا من داخل الخيام وصاحوا صيحة الرجل الواحد وحملوا في جمع كثير فنجا من سبق به جواده وقدر في القدم نجاته وظفروا بجماعة فقتل منهم ثلاثة نفر ونقلوا خيامهم الى بازور وأقام السلطان في تلك الليلة بمنزلته الى الصباح

﴿ ذكر وفاة تقي الدين الملك المظفر ﴾

ولما كان الحادي عشر ركب السلطان الى جهة العدو فاشرف عليهم ثم عاد وأمرني بالاشارة الى أخيه بان يحضر معه علم الدين سليمان وسابق الدين وعز الدين ابن المقدم فلما مثل الجماعة بين يديه أمر خادماً ان يخلي المكان عن غير الحاضرين وكنت في جملتهم وأمره بابعاد الناس عن الخيمة ثم أخرج كتاباً من قباه وفضه ووقف عليه وبدت دموعه وغلبه البكاء والنحيب حتى وافقناه من غير ان نعلم السبب

ما هو وفي اثناء ذلك ذكر انه يتضمن وفاة الملك المظفر فأخذ الجماعة في البكاء حتى أتوا بوظيفته ثم ذكرته الله تعالى وانتهاء قضاءه وقدره فقال استغفر الله انا لله وانا اليه راجعون ثم قال المصلحة كتم ذلك واخفاؤه لئلا يتصل بالعدو ونحن نازله ثم أحضر الطعام فأكل الجماعة وانفصلوا وكان الكتاب الواصل المتضمن نعيه هو غير الكتاب الواصل الى حماة بنعيه في طي كتاب وصل من النائب بها وكانت وفاته بطريق خلاط عائدًا الى ميافارقين فحمل ميتاً الى ميافارقين ثم عملت له تربة عليها مدرسة مشهورة بارض حماة وحمل اليها وزرت ضريحه وكانت وفاته تاسع عشر رمضان سنة سبع وثمانين *

﴿ذكر كتاب وصل من بغداد﴾

ولما كان الثاني عشر من شوال، وصل من دمشق كتاب من النواب بها في طيه كتاب، من بغداد من الديوان العزيز النبوي مجده الله يتضمن فصولا ثلاثة الاول الانكار على الملك المظفر في مسيره الى بكتمر وبولغ فيه حتى قيل ان الديوان العزيز لا يسلمه. والفصل الثاني يتضمن الانكار على مظفر الدين في امساك حسن بن قفجان والامر باعادته الى الكرخاني وبولغ فيه حتي قيل ان الديوان العزيز لم يأذن لغيره في سكناها وكانت قصة حسن ابن قفجان أنه قصد أرمية الى السلطان طغريل فانه كان قد نزل به في معونته لما هرب من ديار العجم واستنصر به وزوج اخته ووقع في ذهنه أنه يكون أتابكه ويملك به البلاد فقصد أرمية فقتل اهلها على ما قيل وسبي نساءهم وذراريهم وتعرض للقوافل وكانت معقلة الكرخاني فلما وجد السلطان طغريل قوته تركه وانصرف عنه وعاد الى بلاده وأظهر الفساد في الارض والتعرض للقوافل على ما قيل فاستعطفه مظفر الدين صاحب اربل حتى عاد اليه وانخرط في سلك أصحابه وقبض عليه وأنفذ الى الديوان العزيز ذلك وفي معناه استيلاء مظفر الدين على بلاده ولعله تشفع الى الديوان فاقتضت عاطفته ذلك في حقه. واما الفصل الثالث فكان يتضمن التقدم باحضار القاضي الفاضل في الديوان رسولا لتقرر عليه قواعد

ويسر اليه اسباب هكذا كان مضمون الكتاب وأما الجواب عنه فان السلطان اجاب عن الفصل الاول بأنا لم نأمره بشيء من ذلك وانما عبر ليجمع العساكر ويعود الى الجهاد فاتفقت اسباب اقتضت ذلك وقد أمرنا بالعود. واما الفصل الثاني فأجاب عنه بانه عرفهم حال ابن قفجان وما تصدى له من الفساد في الارض وانه قد تقدم الى مظفر الدين حتى يحضره معه الى الشام فيقطعه فيه ويكون ملازماً للجهاد. وأما الفصل الثالث فانه اعتذر عن القاضي الفاضل بأنه كثير الامراض وقوته تضعف من الحركة الى العراق فهذا كان حاصل الجواب

﴿ذكر وصول صاحب صيدا رسولا من جانب المركيس﴾

ولما كان ثالث عشر شوال وصل من اخبر بوصول صاحب صيدا من جانب المركيس صاحب صور وكان قد جرى بيننا و بينه أحاديث مترددة حاصلها أنهم ينقطعون عن الافرنج ونصرتهم و يصيرون ممنا عليهم بناء على فتنة كانت جرت للمركيس مع الملوك بسبب امرأة تزوجها كانت زوجة لاخي الملك جفري وقبح نكاحها بأمر اقتضاه دينهم فاضطربت آراؤهم فيه فخاف المركيس على نفسه فأخذ زوجته وهرب تحت الليل الى صور وأخلد الى السلطان والاعتضاد به وكان في ذلك مصلحة للمسلمين لانقطاع المركيس عن الافرنج فانه كان أشدهم بأساً. وأعظمهم للحرب مراساً. واثبتهم في التدبير أساساً. وحيث اتصل خبر وصول هذا الرسول بالسلطان أمر باجلاله واحترامه فضربت خيمة وضرب حولها شقة ووضع فيها من الطرح والفرش ما يليق بعظمائهم وملوكهم وأمر بانزاله في التقل يستريح ثم يجتمع به *

﴿ذكر واقعة الكمين الذي استشهد فيه اياس المهراني﴾

ولما كان سادس عشر شوال أمر السلطان الحلقة ان كمنت للعدو في بطون أودية هناك واستصحبوا جماعة من العرب فلما استقر الكمين في موضعه ظهرت العرب على جاري عادتها في مناوشتها العدو وكان العدو تخرج منه جماعة للاحتشاش والاحتطاب

قريباً من مخيمه تضرب العرب وتضرب العرب عليهم فضربوا عليهم ووقع الحرب بينهم وثار الصياح وسمع العدو فركب منهم جمع من الخيالة وطلبوا جهة العرب فانهزم العرب بين أيديهم الى جهة الكمين والعدو يتبعهم طمعاً حتى قاربوا الكمين فخرج الكمين عليهم وصاحوا بهم صيحة الرجل الواحد فانهزموا بين أيديهم نحو خيامهم واتصل الخبر بالعدو فركب منهم خلق عظيم وقصدوا نحو الوقعة والتحم القتال واشتد الامر وقتل جمع من الطائفتين وأسر وجرح جمع من العدو وأخذ منهم خيل كثيرة وكان سبب انفصال الحرب ان السلطان أحس بهذه الوقعة فأنفذ أمراء أخر أسلم وسيف الدين يازكج ومن يجري مجراهما رداً للمسلمين وقال اذا رأيتم الغلبة على الكمين فأظهروا فلما رأوا الكثرة من جانب العدو خرجوا بخيلهم ورجلهم ولما رأى العدو الاطلاب الاسلامية قد صوبت نحوه أعنة خيلها ولوا الادبار نحو خيامهم والسيف يعمل في أقفيتهم حتى دخلوا الخيام وانفصل الحرب قبيل الظهر وكان السلطان قد ركب متشوقاً أخبار الكمين وكنت في خدمته وكان أول من دخل من الوقعة ووصل جماعة العرب ومعهم خمس رؤس من الخيل قد أخذوها وانفصلوا قبل انفصال الحرب وما زالت الطلائع تتواتر والبشائر تتواصل وقتل من العدو زهاء ستين نفراً وجرح من المسلمين جماعة منهم اياس المهراني وكان شجاعاً معروفاً وجاولي غلام القيدي وأسر من العدو فارسان معروفان واستأمن اثنان بخيولهما وعدتهما وعاد السلطان الى خيمته فرحاً مسروراً معوضاً من قتل فرسه متلطفاً بالجريح مترحماً على الشهيد *

وفي بقية هذا اليوم وصل رسول الانكتار الى الملك العادل يعتبه على الكمين ويطلب الاجتماع به *

﴿ ذكر ما جرى للملك العادل والانكتار واجتماعهما ﴾

ولما كان الثامن عشر سار الملك العادل الى اليزك وضربت له قبة عظيمة وسار ومعه من الاطعمة والحلاوات والتجملات والتحف ما جرت العادة ان يحمل من ملك الى ملك وهو اذا تجمل في ذلك لا يطلب وسار الانكتار الى خيمته وحضر عنده

فاحترمــه احتراماً عظيما ووصل مع الانكتار الى خيمته وأحضر من طعامهم الذي يختصون به ما أتحف به الملك العادل على وجه المطايبة فتناول منه الملك العادل وتناول هو وأصحابه الواصلون معه من طعام الملك العادل وتحادثا معظم ذلك النهار وتفاصلا على تواد ومحبة أكيدة *

﴿ ذكر الرسالة التي أنفذها الانكتار الى السلطان ﴾

وفي ذلك اليوم سأل الانكتار الملك العادل ان يلتمس من السلطان الاجتماع به والمثول بين يديه . ولما وصلت هذه الرسالة شاور السلطان الجماعة في الجواب فمامنهم من وقع له ما وقع للسلطان . وذلك انه قال الملوك اذا اجتمعوا يقبح منهم المخاصمة بعد ذلك فاذا انقطع أمر حسن الاجتماع والاجتماع لا يكون الا لمفاوضة في مهم وأنا لا أفهم بلسانك وأنت لا تفهم بلساني ولا بد من ترجمان بيننا نثق أنا وأنت به فليكن ذلك الترجمان رسولا حتى يستقر أمر وتستتب قاعدة وعند ذلك يكون الاجتماع الذي يعقبه الوداد والمحبة . قال الرسول ولما سمع الانكتار هذا الجواب استعظمه وعلم انه لا يقدر على بلوغ غرض الا بالدخول تحت المراضي السلطانية

﴿ ذكر حضور صاحب صيدا بين يدي السلطان ﴾

ولما كان التاسع عشر جلس السلطان واستحضر صاحب صيدا لسماع رسالتــه وكلامه فحضر وحضر معه جماعة وصلوا معه وكنت حاضر المجلس فأكرمه اكراماً عظيما وحادثهم وقدم بين أيديهم ما جرت به العادة . ولما فرغ الطعام خلا بهم وكان حديثهم في أن السلطان يصالح المركيس صاحب صور وكان قد انضم اليه جماعة من اكابر الافرنجية منهم صاحب صيدا وغيره من المعروفين وقد سبقت قصته وكان من شروط الصلح معه اظهار عداوة الافرنج البحرية وكان سبب ذلك شدة خوفه منهم وواقعة وقعت له معهم بسبب الزوجة وبذل له السلطان الموافقة على شروط قصد بها الايقاع بينهم وأن يقتل بعضهم بعضاً فلما سمع السلطان حديثه وعد أن يرد عليه

الجواب فيما بعد وانصرف عنه في ذلك اليوم

﴿ ذكر وصول رسول الانكتار وهو ابن الهمفري وهو من اكابرهم وملوكهم ومن اولاد ملوكهم ﴾

وصل وفي صحبته شيخ كبير ذكروا ان عمره مائة وعشرون سنة فأحضره السلطان عنده وسمع كلامه . وكانت رسالته ان الملك يقول اني أحب صداقتك ومودّتك وانك ذكرت انك أعطيت هـذه البلاد الساحلية لأخيك فاريد أن تكون حكما بيني و بينه ولا بد ان يكون لنا علقة بالقدس الشريف ومقصودي ان تقسم بحيث لا يكون عليه لوم من المسلمين ولا عليّ لوم من الافرنجية فأجابه في الحال بوعد جميل ثم أذن له في العود في الحال وتأثر بذلك تأثرًا عظيماً وأنفذ وراءهم من سألهم عن حديث الاسارى وكان منفصلاً عن حديث الصلح فقال ان كان صلح فعلى الجميع وان لم يكن صلح فلا يكون من حديث الاسارى شيءٌ وكان غرضه رحمـه الله ان يفسخ قاعدة الصلح فانه التفت اليّ في آخر المجلس بعد انفصالهم وقال متى صالحناهم لا تؤمن غائلتهم فانني لو حدث بي حادث الموت ما تكاد تجتمع هـذه العساكر وتقوى الافرنج فالمصلحة ان لا تزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل أو يأتينا الموت هذا كان رأيه قدس الله روحه وانما غلب على الصلح

﴿ ذكر مشورة ضربها في التخيير بين الصلحين بين الانكتار والمركيس ﴾

ولما كان حادي عشر شوال جمع السلطان الامراء والاكابر وأرباب المشورة وذكر لهم القاعدة التي التمسها المركيس واستقر الامر من جانبه عليها وهي أخذ صيدا وان يكون معنا على الافرنج و يقاتلهم ويجاهرهم بالعدوان وذكر ما التمسه الملك من تقرير قاعدة الصلح وهي ان تكون لنا من القري الساحلية مواضع معينة وتكون لنا الجبليات باسرها أو تكون القرى كلها مناصفة وعلى هذين القسمين يكون لهم قسوس في بيع القدس الشريف وكنائسه . وكان الانكتار قد خيرنا بين هذين القسمين

فشرح قدس الله روحه الحال في القاعدتين للامراء واستنبط آراءهم في ترجيح أحد الحالين الانكتار والمركيس وترجيح أحـد القسمين المذكورين من جانب الملك فرأى أرباب الرأي انه ان كان صلح فليكن مع الملك فان مصافات الافرنج المسلمين بحيث يخالطونهم بعيدة غـير مأمونة الغائلة وأنفض الناس و بقي الحديث متردداً في الصلح والرسل تتواصل في تقرير قواعد الصلح . وأصل القاعد ان الملك قد بذل أخته للملك العادل بطريق التزويج وان تكون البلاد الساحلية الاسلامية والافرنجية لها فاما الافرنجية فلها من جانب أخيها والاسلامية له من جانب السلطان وكان آخر الرسائل من الملك في المعنى ان قال ان معاشر دين النصرانية قد أنكروا عليّ وضع أختي تحت مسلم بدون مشاورة البابا وهو كبير دين النصرانية ومقدمه وها أنا أسير اليـه رسولاً يعود في ستة أشهر فان أذن فبها ونعمت والا زوجتك ابنة أخي وما أحتاج الى اذنه في ذلك . هذا كله وسوق الحرب قائم * والقتال عليهم ضربة لازم * وصاحب صيدا يركب مـع الملك العادل في الاحيان و يشرف على الافرنج وهم كلما رأوه تحركوا لطلب الصلح خوفاً من ان ينضاف المركيس الى المسلمين وعنـد ذلك تنكسر شوكتهم ولم يزل الحال كذلك الى خامس عشر شوّال

﴿ ذكر رحيله رحمه الله الى تل الجزر ﴾

ولما كان ذلك اليوم أصبح السلطان على عزم الرحيـل وأحضر أرباب الرأي وشاورهم في جواب رسالة القوم وعرض عليهم حديثه وذكر ما عندهم في ذلك وأحضر الرسل وكان ابن المنفري يترجم بينه و بين الجحر بين واستقرت القاعدة على ان ينفذ معهم رسولين رسولا من جانبه ومن جانب العادل الآخر لان الحديث كان يتعلق به وكان من جملة رسالتهم ان البابا ان اذن في هذا العقد تم وان لم يأذن زوجنا الملك العادل بابنة أخي الملك وهي بكر وذكروا ان من دينهم ان البابا انما يحتاج الى اذنه في تزويج الثيب من بنات الملوك وأما الابكار فيزوجها أهلها وانفصل الحال على ذلك وسارت الرسل الى خيم الملك العادل ليجهز رسول السلطان و يلحقه ثم وصل بعد ذلك

من اليزك من أخبر ان الفرنج قد انتشر منهم راجل كثير وخرجوا عن الاسوار التي لهم ولم يظهر لخروجهم غائلة وسار رحمة الله عليه الى تل الجزر لارتياد اليزك وتبعه الناس في الرحيل فما كان الظهر الا ورحل الناس الى السلطان ونزلنا بتل الجزر. ولما عرف الافرنج بعود السلطان رحلوا عائدين وأقام السلطان بتل الجزر ثم رحل الى جهة القدس الشريف ورحل الافرنج الى جهة بلادهم واشتد الشتاء وعظمت الامطار وسار السلطان الى القدس الشريف وأعطى العسكر دستورا واقمنا بالقدس في ذلك الشتاء أجمع وعاد العدو الى بلاده ووصل الانكتار عساكره الى يافا وعاد الى عكا ينظر في أحوالها فأقام مدة ثم وصل منه رسول يقول اني أوثر الاجتماع بالملك العادل ففيه مصلحة تعود على الطائفتين فقد بلغني ان السلطان فوّض أمر الصلح الى أخيه الملك العادل فاتفق الرأي في مضي الملك العادل على أنه يمضي بحيث يجتمع بعساكرنا التي في الغور وكوكب وتلك النواحي و يحدثه ويقول له ان الحديث جرى بيننا مرارًا وما أسفر عن مصلحة فان كانت هذه الدفعة كتلك الدفعات فلاحاجة الى الحديث * وان كان الغرض بت حال فقارب الحال وأنا لا أجتمع بك الا أن أرى ما يقارب فصل الحال وقرر مع الملك العادل ان رأى مايمكن معه فصل الحال والا طاوله وماطله الى أن تصل العساكر من الاطراف فالتمس الملك العادل تذكرة تتضمن انهاء ما ينفصل الحال عليه فكتب تذكرة فيها المناصفات وذكر فيها من أمر بيروت انه أصر على طلبها وأن نعطي صليب الصلبوت و يكون لهم في القمامة قس و يفتح لهم باب زيارتها بشرط أن لا يحملوا السلاح وكان الحامل على ذلك ما أخذ الناس من تعب مواظبة الغزاة وكثرة الديون والبعد عن الاوطان فان من الناس من كان لا يفارق السلطان ولا يمكنه طلب دستور منه

﴿ ذكر مسير الملك العادل ﴾

وكان مسيره من القدس الشريف عصر الجمعة رابع ربيع الاول سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ثم وصل كتابه من كيسان يخبر انه لقيه المنغري مع الحاجب أبي بكر

رسولا من الانكتار يقول انا قد وافقنا على قسمة البلاد وان كل من في يده شيء فهوله فان كان ما في أيدينا زائداً أخذتم في مقابلته ما يقابل الزيادة مما يخصنا وان كان مافي أيديكم اكثر فعلنا كذلك ويكون القدس لنا ولكم فيه الصخرة هكذا كان مضمون لكتاب فأوقف السلطان عليه الامراء فاستصوب ذلك الامير أبو الهيجاء ورأوا من حال هذا المقال أن يوافق عليه الملك العادل وهو مصلحة وسار الجواب الى الملك العادل في ذلك *

ولما كان حادي عشر ربيع الاول وصل الحاجب أبو بكر صاحب الملك العادل يخبر ان الانكتار سار الى يافا من عكا وأن الملك العادل ما رأى أن يجتمع به الا عن قاعدة منفصلة وانه جرى بين هذا الحاجب وبين الانكتار مفاوضات كثيرة حاصلها انه نزل على أن تكون الصخرة لنا والقلعة في أيدينا والباقي مناصفة وأن لا يكون في البلد منهم مذكور وان تكون قرى القدس و باطنه مناصفة ثم قدم الملك العادل في سادس عشر ربيع الاول من الغور ولقيه السلطان وحكى ماسبق من الخبر *

وفي بقية ذلك اليوم وصل من أخبر ان الافرنج أغاروا على حلة عرب قريبة من الداروں وأنهم أخذوا منهم جماعة وانهم أخذوا منهم زهاء الف رأس غنم فعظم ذلك على السلطان وشق عليه فسير جماعة فلم تلحقهم

﴿ ذكر انفصال رسول المركيس ﴾

وكان قد وصل يوسف غلام صاحب صيدا رسولا من جانب المركيس يلتمس الصلح من المسلمين فاشترط رحمة الله عليه شروطاً منها ان يقاتل جنسه ويباينهم . ومنها ان ما يأخذه من البلاد الافرنجية بعد الصلح بانفراده يكون له وما نأخذه نحن بانفرادنا يكون لنا وما نتفق نحن وهو على أخذه تكون له نفس البلد ويكون لنا مافيه من أسرى المسلمين وغير ذلك من الاموال . ومنها أن يطلق لنا كل أسير مسلم في مملكته . ومنها ان فوض الانكتار اليه أمر البلاد لأمر يجري بينهم كان الصلح بيننا وبينه على ما استقر بيننا وبين الانكتار ماعدا عسقلان وما بعدها فلا يدخل في الصلح

وتكون الساحليات له وما في أيدينا لنا وما في الوسط مناصفة وسار رسوله على هذه القاعدة *

ولما كان يوم الاثنين الثامن والعشرون من ربيع الاول وصل أسد الدين شيركوه ابن محمد ابن شيركوه ووصل جريدة مقدماً على عسكره *

﴿ ذكر خروج سيف الدين المشطوب من الاسر ﴾

وكان وصوله الى القدس الشريف يوم الخميس مستهل جمادي الاخرى دخل على السلطان بغتة وعنده أخوه الملك العادل فنهض له واعتنقه وسر به سروراً عظيما وأخلى المكان وتحدث معه بطرف من أحاديث العدو وسأله عن حديث الصلح فذكر أن الأنكتار سكت عنه *

وفي هذا اليوم كتب السلطان الى ولده الملك الافضل أن يسير الى قاطع الفراة ويستلم البلاد من الملك المنصور بن الملك المظفر وكان قد أظهر العصيان بسبب الخوف من السلطان على نفسه وأظهر ذلك ودخل في أمره الملك العادل وسير الى الملك العادل حتى يتحدث في أمره . وكان ذلك قد شق على السلطان وأثار منه غيظاً عظيما كيف يكون هذا الامر من أهله ولم يكن أحد من أهله خاف منه ولا طلب يمينه وهذا كان السبب في توقف الأنكتار في الصلح فانه ظن ان خلافه يكدر للسلطان شرب الفراة ويحوجه الى الموافقة على ما يرضاه فأنفذ الى الملك الافضل أن يسير الى البلاد وكتب الى الملك الظاهر بحلب المحروسة ان أخاه ان احتاج الى معونة عاونه وجهزه بجملة كبيرة وسار باحترام عظيم حتى وصل الى حلب وأكرمه أخوه الملك الظاهر اكراماً عظيما وعمل له ضيافة تامة وقدم بين يديه تقدمة سنية . وعدنا الى حديث العدو *

﴿ ذكر عود رسول صور ﴾

ولما كان سادس ربيع الآخر من سنة ثمان وثمانين وخمسمائة وصل يوسف من

جانب المركيس يجدد حديث الصلح ويقول قد انفصل الحال على شيء بينه وبين الافرنجية فان نجز في هذه الايام سارت الفرنسيسية في البحر وان تأخر بطل الحديث في الصلح بالكلية فرأى السلطان الصلح مع المركيس مصلحة لاشتغال قلبه من جانب الشرق وخاف أن يتصل ابن تقي الدين بكتمر فيحدث من ذلك ما يشغل الخاطر من الجهاد فأجاب الى ملتمس المركيس وكتب مع صاحبه مواضعة على نعت ما تقدم وسار يوسف الرسول بالجواب تاسع ربيع الآخر *

﴿ ذكر قتل المركيس ﴾

ولما كان السادس عشر من الشهر وصل من الرسول المنفذ الى المركيس كتاب ان المركيس قتل وعجل الله بروحه الى النار وكانت صورة قتله انه تقدم يوم الثلاثاء ثالث عشر عند الاسقف ثم خرج فقفز عليه اثنان من أصحابه بالسكاكين وكان خفيفاً من الرجال فما زالا يضربانه حتى عجل الله بروحه الى النار وأمسك الشخصان وسئلا عن هذا الامر ومن حضهما عليه فقالا ان الانكتار حملنا عليه وقام بالامر اثنان فحفظا القلعة الى أن اتصل الخبر بالملوك واستقد الامر وتدبر المكان *

﴿ ذكر تتمة خبر الملك المنصور وما جرى له ﴾

وذلك انه لما بلغه مؤاخذة السلطان أنفذ الى الملك العادل رسولا يشفع به ليطيب قلب السلطان ويقترح عليه أحد قسمين إما حران والرها وسميساط واما حماه ومنبج وسلمية والمعرة مع كفالة اخوته فراجع الملك العادل السلطان مرارا فلم يجبه الى شي من ذلك فكثرت الشفاعة اليه من جميع الامراء وهزت شجر رأفة منه فرجع خلقه النبوي وحلف له على حران والرها وسميساط على انه اذا عبر الفرات أعطى المواضع أفراجها وتكفل اخوته ويتخلى عن تلك المواضع التي في يده ودخلت تحت ضمان الملك العادل ثم التمس الملك العادل خط السلطان ثانياً ولج عليه فرقق نسخة اليمين في التاسع والعشرين من ربيع الآخر وانفصل الحال وانقطع الحديث وكنت المتردد

بينهما في ذلك وأخذ الغيظ السلطان كيف يخاطب بمثل ذلك من جانب أولاد أولاده *

﴿ ذكر قدوم رسول ملك الروم ﴾

ولما كان مستهل جمادي الاولى وصل رسول من قسطنطينية الكبرى والتقى بالاحترام والاكرام ومثل بالخدمة السلطانية في ثالث الشهر وكانت رسالته تشتمل على مطالب . منها صليب الصلبوت . ومنها أن تكون القمامة بيد قسوس من جانبه وكذا سائر كنائس القدس . ومنها أن يكون الاتفاق معه على ان يكون عدو من عاداه وصديق من صادقه وان يوافق على قصد جزيرة قبرص فأقام عنده يومين ثم سير معه رسولا يقال له ابن البزاز من الديار المصرية وأجيب بالمنع عن جميع مقترحاته وقيل ان الصليب قد بذل فيه الملك الكرج مئتي الف دينار فلم يجب الى ذلك *

﴿ ذكر ما جرى للملك العادل فى البلاد التي هي قاطع الفرات ﴾

وذلك انه لما سار الملك الافضل رقق الملك العادل قلب السلطان على ابن تقي الدين وقد كثر الحديث في معناه وأنفذني السلطان لمشاورة الامراء في خدمة الملك العادل في أمره فجمعهم في خدمته فذكرت لهم ما أرسلني فيه اليهم فانتدب الامير حسام الدين أبو الهيجاء للجواب وقال نحن عبيده ومماليكه وذلك صبي وربما حمله خوفه أن انضاف الى جانب آخر ونحن لا نقدر على الجمع بين قتال المسلمين والكفار فان أراد اننا نقاتل المسلمين صالحنا الكفار وسرنا الى ذلك الجانب وقاتلنا بين يديه وان أراد منا ملازمة الغزاة صالح المسلمين وسامحهم . وهذا كان جواب الجميع فرق السلطان وجدد نسخة يمين لابن تقي الدين وحلف له بها وأعطاه خطه بما استقر من القاعدة * ثم ان الملك العادل التمس من السلطان البلاد التي كانت بيد ابن تقي الدين بعد استقلاله وجرت مراجعات كثيرة في العوض عنها وكنت الرسول بينهما وكان آخر ما استقر انه يسلم تلك البلاد وينزل عن كل ما هو شامي الفرات ما عدا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء وحاصه بمصر بعد النزول عن الجيزة وعليه في كل سنة ستة الاف غرارة

غلة تحمل للسلطان من الصلت والبلقاء الى القدس والمغل في السنة المذكورة في مواضعه له ومغل قاطع الفرات في هذه السنة للسلطان أيضاً وأخذ خط السلطان بذلك وسار بنفسه يصلح أمر تقي الدين ويطيب قلبه وكان مسيره في ثامن جمادي الاولى *

﴿ ذكر استيلاء الفرنج على الدارون ﴾

وكان الافرنج خذلهم الله تعالى لما رأوا أن السلطان قد أعطى العساكر دستوراً وتفرقت العساكر عنه نزلوا على الدارون طمعاً فيه وكان بيد علم الدين قيصر وفيه نوابه . ولما كان يوم تاسع جمادي الاولى اشتد زحف العدو على المكان راجلا وفارساً وكان الانكتار قد استنفذ من نوبة عكا نقابين جبليين فتمكنوا من نقب المكان وأحرقوا النقب وطلب أهل الحصن مهلة بحيث يشاورون السلطان فلم يمهلوهم واشتدوا في القتال عليه فأخذوه عنوة واستشهد فيه من قدر الله له ذلك وأسر من قدر له ذلك وكان ذلك قدراً مقدورا

﴿ ذكر قصدهم لمجدل يابا ﴾

ولما استولى الافرنج على الدارون ساروا بعد ان قرروا أمره ووضعوا فيه من اختاروا حتي نزلوا على منزلة يقال لها الحسي وهي قريب من جبل الخليل عليه السلام وذلك في رابع عشر جمادي الاولى فأقاموا عليه ثم تأهبوا بقصد حصن يقال له مجدل يابا فأتوه جريدة وخلفوا خيامهم في منزلتهم وكان بها عسكر اسلامي فلقيهم وجرى بينهم قتال عظيم وقتل من العدو كند مذكور واستشهد من المسلمين فارس واحد كان سبب قتله انه وقع رمحه فنزل ليأخذه فنمه فرسه الركوب فبادروه وقتلوه وعادوا الى خيامهم بقية اليوم خائبين ولله الحمد

﴿ ذكر وقعة جرت في صور ﴾

ولما كان سادس عشر جمادى وصل كتاب من حسام الدين بشارة يذكر انه

تخلف في صور مائة راكب وانضم اليهم من عكا خمسون وطمعوا فخرجوا لشن الغارات على البلاد الاسلامية فوقع عليهم العسكر المرصد لحفظ البلاد من ذلك الطرف وجرى بينهم قتال شديد وقتل من العدو خمسة عشر نفرا ولم يقتل من المسلمين أحد وعادوا خائبين ولله الحمد

﴿ ذكر قدوم العساكر الاسلامية للجهاد ﴾

ولما رأى السلطان ما جرى من العدو من التنبط سير الى العساكر من سائر الاطراف أن يسابقوا الى الحضور وكان أول قادم بدر الدين دلدرم مع خلق كثير من التركمان فلقيه السلطان واحترمه ووصل بعده عز الدين بن المقدم في سابع عشر جمادي الاولى بعسكر حسن وآلات جميلة ففرح به السلطان

وأما العدو فانه رحل من الحسي ونزل علي مفرق طرق منها طريق عسقلان وطريق الى بيت جبرين والى غير ذلك من الحصون الاسلامية . ولما بلغ السلطان ذلك أمر العساكر ان سارت نحوه فخرج أبو الهيجاء السمين و بدر الدين دلدرم وابن المقدم وتتابعت العسكر وتخلف هو في القدس لنوع التيات كان عرض له فلما أحس العدو المخذول بظهور العساكر الاسلامية عاد خائبا خاسرًا ناكصا على عقبيه ووصلت الكتب من الامراء مخبرين برحيل العدو الى عسقلان

﴿ ذكر تعبية العدو لقصد القدس الشريف ﴾

ولما كان يوم السبت الثالث والعشرين من جمادي الاولى وصل قاصد من العسكر يخبر ان العدو قد خرج في راجله وفارسه وسواد عظيم وخيم على تل الصافية فسير السلطان الى العساكر الاسلاميـة ينذرها و يحذرها واستدعى الامراء جريدة اليه ليعقدوا رأيا فيما يقع العمل بمقتضاه فوصل ورحل العدو من تل الصافية الى جانب النطرون فنزل سماليه وذلك في السادس والعشرين من جمادي الاولى وكانت قد سارت من عرب الاسلام جماعة للغارة علي يافا فوصلوا بليل من غير علم بحركة العدو

فنزلوا في بعض الطريق يقسمون فوقعت عليهم عساكر العدو فأخذوهم وهرب منهم ستة نفر فوصلوا الي السلطان وأخبروه الخبر ووصلت الجواسيس وتواترت الاخبار من جانب العدو انه مقيم بالنطرون لنقل الازواد والآلات التي تدعو الحاجة اليها في الحرب فاذا حصل عندهم ما يحتاجون اليه قصدوا القدس الشريف حرسه الله تعالى. وفي يوم الاربعاء وصل منهم رسول صحبته غلام كان للمشطوب عندهم يحدث في معنى قراقوش ويتحدث في معنى الصلح

﴿ ذكر نزولهم في بيت نوبة وهو موضع وطاة بين ﴾
﴿ جبال بينا بينه وبين القدس مرحلة ﴾

رحل العدو من النطرون يوم الاربعاء السابع والعشرين من جمادي الاولى ونزلوا ببيت نوبة . ولما عرف السلطان ذلك استحضر الامراء وضرب المشورة فيما يفعل فكانت خلاصة الرأي أن يقسم الاسوار على الامراء ويخرج ببقية العسكر جريدة الى جهة العدو فاذا عرف كل قوم موضعهم من السور استعدوا فان دعت الحاجة اليهم خرجوا وان دعت الحاجة الى ملازمة مواضعهم لازموها فكتبت الرقاع وسيرت الى الامراء

وكانت طريق يافا سابلة لمن ينقل الميرة الى العدو فأمر السلطان من في اليزك أن يملأ معهم ما يمكنه وكان في اليزك بدر الدين دلدرم فكمن حول الطريق جماعة جيدة فمر بهم جمع من خيالة العدو يحمون قافلة تحمل ميرة فاستضعفوهم فحملوا عليهم وجرى قتال عظيم كانت الدائرة فيه على العدو وقتل منهم ثلاثون نفرا وأسر جماعة ووصل الاسارى في التاسع والعشرين من جمادي الاولى الى القدس وكان لدخولهم وقع عظيم وجرى على العدو من ذلك وهن كبير وقويت قلوب اليزكية وانبعثت هممهم حتى حملوا على العسكر ونزلوا الي أطراف الخيم ولله الحمد

ولما علم المسلمون ان القوافل لا تنقطع خرج جماعة وأخذوا معهم عربا كثيرة

وكمنوا كميناً واجتازت القافلة ومعها جماعة كثيرة فخرجت العرب على القافلة وتبعتهم الخيالة فدحروا بين أيديهم منهزمين نحو المسلمين فخرجت الاتراك عليهم فأخذوا وقتلوا وجرح من الاتراك جماعة وذلك في ثالث جمادي الآخرة

﴿ ذكر أخذ قافلة مصر حرسها الله تعالى ﴾

وذلك انه كان قد تقدم الى عسكر مصر بالمسير وأوصاهم بالاحتراز والاحتياط عند مقاربة العدو فأقاموا بلبيس أياماً حتى اجتمعت القوافل اليهم واتصل خبرهم بالعدو ثم ساروا طالبين البلاد والعدو يترقب أخبارهم ويتوصل اليها بالعرب المفسدين . ولما تحقق العدو خبر القوافل أمر عسكره بالاحتياط والتحفظ وسار حتى أتى تل الصافية فبات ثم سار حتى أتى الصافية ثم علق على خيله فتة وسار حتى أتى ماء يقابل الحسي واتصل خبر نهضة العدو بالسلطان فأنفذ بنذير القافلة وكان المندوب لذلك الامير أخر أسلم والطنبا العادلي وجماعة من الفرسان المذكورين وأمرهم ان يمدوا بالقافلة في البرية ويتباعدوا من العدو ما أمكن فاتفق ان العسكر وصل الحسي قبل وصول العدو اليه فلم يقيموا عليه وساروا حتى وصلوا القفل والعسكر المصري فاتوا بالقفل على ذلك الطريق ثقة منهم بأنهم لم يجدوا فيه ذاعراً ولا أحسوا فيه بخوف فرغبوا في قرب الطريق وسلكوا بالناس هذا الطريق حتي وصلوا الى ماء يقال له الخويلفه وتفرق الناس لاجل الماء فأخبر العرب العدو بذلك وهو نازل برأس الحسي فقام من وقته وسرى حتى أتاهم قبيل الصبح وكان مقدم العسكر فلك الدين أخو الملك العادل لامه فأشار أسلم بالمسير ليلا قطعاً للطريق واستظهارا بالصمود الجبل فخاف فلك الدين انه ان رحل بالليـــل جرى أمر على القافلة لتبددها فنادى في الناس أن لا يرحلوا الى الصباح *

وأما الانكتار فبلغنا انه لما بلغه الخبر لم يصدقه وركب مع العرب بجمع يسير وسار حتى أتى القفل فطاف حوله في صورة عربي ورآهم ساكنين قد غشيهم النعاس فعاد واستركب عسكره وكانت الكبسة قريب الصباح فبغت الناس ووقع عليهم بخيله ورجله وكان الشجاع هو الذي ركب فرسه ونجا بنفسه وانهزم الناس الى جهة القفل

والعدو يتلوهم فلما رأوا الثقل أعرضوا عن قتال العسكر وطلبوا الثقل فانقسم الثقل ثلاثة أقسام قسم قصدوا الكرك مع جماعة من العرب وعسكر الملك العادل وقسم أوغلوا في البرية مع جماعة العرب أيضاً . وقسم استولى عليهم العدو فساقهم بجمالهم وأحمالهم وجميع ما كان معهم وكانت وقعة شنعاء لم يصب الاسلام بمثلها من مدة مديدة . وكان في العسكر المصري جماعة من المذكورين كحسين الجراحي وفلك الدين وبني الجاولي وغيرهم من المذكورين وقتل من العدو زهاء مئتي فارس على رواية . وعشرة أنفس على رواية . ولم يقتل من المسلمين معروف سوى الحاجب يوسف وابن الجاولي الصغير فانهما استشهدا الى رحمة الله تعالى وتبدد الناس في البرية ورموا أموالهم وكان السعيد منهم من نجا بنفسه وجمع العدو ما أمكنهم جمعه من الخيـل والبغال والجمال والاقمشة وسائر أنواع الاموال وكلف الجمالين خدمة الجمال والجربندية خدمة البغال والساسة خدمة الخيل وسار في جحفل من الغنيمة يطلب عسكره فنزل على الخويلفة فاستقى منها ثم سار حتى أتى الحسي * ولقد حكى لي من كان أسيراً معهم انه في تلك الليلة وقع فيهم الصوت ان عسكر السلطان قد قصدهم فتركوا الغنيمة وانهزموا وبعدوا عنها زماناً ولما انكشف لهم أن العسكر لم يلحقهم عادوا الى الرحل وهرب في تلك الغنية جمع من أسارى المسلمين وكان الحاكي منهم فسألته بكم حزرتم الجمال والخيل فأخبر أن الجمال تناهز ثلاثة آلاف والاسارى خمسمائة وتقرب من ذلك عدة الخيل

وكانت هذه الوقعة صبيحة الثلاثاء حادي عشر جمادى الآخرة ووصل الخبر الى السلطان في عشية ذلك اليوم بعد العشاء الآخرة وكنت جالساً في خدمته وأوصل الخبر شاب من الاصطبلية فما مر بالسلطان خبر أنكى منه في قلبه ولا اكثر تشويشاً لباطنه وأخذت في تسكينه وتسليته وهو لا يكاد يقبل التسلية *

وكان اصل هذه القضية ان الامير أسلم أشار عليهم ان يصعدوا الجبل فلم يفعلوا فصعد هو وأصحابه فلما وقعت الكبسة كان هو على الجبل فلم يصل اليه أحد من العدو ولم يشعروا به . ولما انهزم المسلمون تبعتهم خيالة لافرنج وأقام الرجالة منهم يستولون على ما تخلف من المسلمين من الاقمشة ولما تحقق الامير أسلم ان الخيالة قد بعدت عن

الرجالة نزل اليهم بمن معه من الخيالة وكبسهم من حيث لم يشعروا وقتلوا منهم جماعة وغنموا منهم دواب من جملتها بغلة كانت تحت هـذا القاصد * ثم سار العدو يطلب خيامه فكان وصوله الى المخيم يوم الجمعـة سادس عشر جمادي الاخرى وكان يوماً عظيما عندهم أظهروا فيه من السرور وأسبابه مالا يمكن وصفه وأعادوا خيمهم الى الوطأة على بيت نوبة وصح عزمهم على القدس وقويت نفوسهم بما حصلوا عليه من الاموال والجمال التي كانت تحمل الميرة والزاد الواصلة من مصر مع عسكرها ورتبوا جماعة على لد يحفظون الطريق على من ينقلون الميرة وأنفذوا الكندهري الى صور وطرابلس وعكا يستحضر من فيها من المقاتلة ليصعدوا الى القدس ولما عرف السلطان ذلك منهم عاد الى الاسوار قسمها على الامراء وتقدم اليهم بتهيئة أسباب الحصار وأخذ في افساد المياه بظاهر القدس وتخريب الصهاريج والجباب بحيث لم يبق حول القدس ماء يشرب أصلاً وأطنب في ذلك اطناباً عظيما وأرض القدس لا يطمع في حفر بئر بها فيها ماء معين لانها جبل عظيم وحجر صلب وسير الى العساكر يطلبها من النواحي والبلاد *

﴿ ذكر قدوم الملك الافضل وأمره بالعود عن تلك البلاد
« وكان قد وصل الى حلب المحروسة » ﴾

ولما وصل أمر السلطان اليه بالعود عاد مع انكسار في قلبه وتشويش في باطنه فوصل الى دمشق مستعتباً ولم يحضر الى خدمة السلطان فلما اشتد خبر الافرنج سير اليه وطلبه فما وسعه التأخر فسار مع من كان قد وصل من العساكر الشرقية الى دمشق وكان وصوله في يوم الخميس تاسع عشر جمادي الاخرى ولقيه السلطان قريباً من العازرية فترجل له جبرا لقلبه وتعظيما لامره وسار وفي خدمته أخوه الملك الظافر وقطب الدين الى ظاهر القدس

﴿ ذكر عود العدو الى بلادهم وسبب ذلك ﴾

ولما كانت ليلة الخميس تاسع عشر جمادي الاخرى استحضر السلطان الامراء عنده فحضر الامير أبو الهيجاء السمين بمشقة عظيمة وجلس على كرسي في خيمة السلطان

وحضر المشطوب والاسدية باسرهم وجماعة الامراء ثم أمرني ان أكلهم وأحثهم على الجهاد فذكرت ما يسره الله من ذلك . وكان مما قلته ان النبي صلى الله عليه وسلم لما اشتد به الامر بايعه الصحابة رضي الله عنهم على الموت في لقاء العدو ونحن أولى من تأسي به صلى الله عليه وسلم والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت ولعل ببركة هذه النية يندفع هذا العدو فاستحسن الجماعة ذلك ووافقوا علية ثم شرع السلطان بعد ان سكت زمانا فى صورة مفكر والناس سكوت كأن على رؤسهم الطير فقال « الحمد لله . والصلاة على رسول الله . اعلموا انكم جند الاسلام اليوم ومنعته . وانتم تعلمون ان دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة بذممكم وان هذا العدو ليس له من المسلمين من تلقاه الا انتم فان وليتم بانفسكم والعياذ بالله طوى البلاد طي السجل للكتاب وكان ذلك في ذمتكم فانكم أنتم الذين تصديتم لهذا وأكلتم مال بيت المال فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام » « فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال يا مولانا نحن مماليكك وعبيدك وأنت أنعمت علينا وكبرتنا وعظمتنا وأعطيتنا وليس لنا الا رقابنا وهي بين يديك . والله لا يرجع أحدمنا عن نصرتك الى ان نموت فقال الجماعة مثل ما قال فانبسطت نفسه بذلك المجلس وطاب قلبه وأطعمهم ثم انصرفوا وانقضى يوم الخميس على أشد حال التأهب والاهتمام حتى كانت العشاء الآخرة وجيعنا في خدمته على العادة وسهرنا حتى مضى من الليلة هزيع وهو غير منبسط على عادته ثم صلينا العشاء وكانت العشاء هي الدستور العام فصلينا وأخذنا في الانصراف فاستدعاني فلما جلست في خدمته قال لي علمت ما الذي تجدد قلت لا قال ان أبا الهيجاء السمين أنفذ اليّ اليوم وقال انه اجتمع عنده جماعة من المماليك وأنكروا علينا موافقتنا على الحصار وقالوا لا مصلحة في ذلك فانا نخاف أن نحصر ويجري علينا مثل ماجرى على عكا وحينئذ تؤخذ بلاد الاسلام أجمع والرأي أن نلقى مصاف فان قدّر الله تعالى أن نهزمهم ملكنا بقية بلادهم . وان تكن الاخرى يسلم العسكر ويمض القدس وقد حفظ الاسلام بعساكره مدة بغير القدس وكان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال فشقت عليه هذه الرسالة وأقمت تلك

الليلة في خدمته وهي من الليالي التي أحييتها في سبيل الله . وكان مما قالوه في الرسالة ان أردت أن تقيم فتكون معنا أنت أو بعض أهلك والا فالاكراد لا يدينون للاتراك والاتراك كذلك فانفصل الحال على أن يقيم من أهله مجد الدين بن فخر وشاه وصاحب بعلبك . وكان رحمه الله يحدث نفسه بالمقام ثم صرف رأيه عنه لما فيه من الخطر على الاسلام فلما أن قارب الصبح وأشفقت عليه خاطبته في أن يستريح ساعة وانصرفت عنه فما وصلت الا والمؤذن قد أذن فأخذت في أسباب الوضوء فما فرغت الا والصبح قد طلع فعدت الى خدمته وهو يجدد الوضوء فصلينا ثم قلت له قد وقع لي واقع أعرضه قال وما هو قلت من كثر اهتمامه بما قد حمل على نفسه وقد عجزت أسبابه الارضية ينبغي له أن يرجع الى الله وهذا يوم الجمعة وهو أبرك أيام الاسبوع فيه دعوة مستجابة ونحن في أبرك موضع فالسلطان يغتسل و يتصدق بصدقة خفية بحيث لا يشعر أحد انها منه و يصلي بين الاذان والاقامة ركعتين يناجي فيهما ربه و يفوض مقاليد أموره اليه و يعترف بالعجز عما تصدى له فلعل الله يرحمه و يستجيب دعاءه وكان حسن العقيدة تام الايمان يتلقى الامور الشرعية بأكمل انقياد . ثم انفصلنا فلما جاء وقت الجمعة صليت الى جانبه في الاقصى فصلى ركعتين ورأيته ساجدًا وهو يذكر كلمات ودموعه تتقاطر على مصلاه ثم انقضت الجمعة بخير ولما كانت عشيتها ونحن في خدمته على العادة وصلت رقعة من جرديك وكان في اليزك وكان جملة ما فيها أن القوم ركبوا بأسرهم ووقفوا في التل وقت الظهيرة ثم عادوا الى خيامهم وقد سيرنا جواسيس تكشف أخبارهم . ولما كانت صبيحة السبت وصلت رقعة أخرى يخبر فيها أن الجواسيس رجعوا وأخبروا أن القوم اختلفوا في الصعود الى القدس والرحيل الى بلادهم فذهبت الفرنسيسية الى الصعود الى القدس وقالوا نحن انما جئنا من بلادنا بسبب القدس ولا نرجع دونه . وقال الانكتار ان هذا الموضع قد أفسدت مياهه ولم يبق حوله ماء أصلا فمن أين نشرب فقالوا له نشرب من نهر تقوع بينه وبين القدس مقدار فرسخ فقال كيف نذهب الى السقي فقالوا ننقسم قسمين قسم يركب الى السقي وقسم يبقى على البلد في المنازلة و يكون الشرب في اليوم مرة فقال الانكتار اذا يؤخذ العسكر

البراني الذي يذهب مع الدواب ويخرج عسكر البلد على الباقين ويذهب دين النصرانية فانفصل الحال على أنهم حكموا ثلاثمائة من أعيانهم وحكم الثلاثمائة اثنى عشر وحكم الاثنا عشر ثلاثة منهم وقد باتوا على حكم الثلاثة فما أمروا به فعلوه فلما أصبحوا حكموا بالرحيل فلم تمكنهم المخالفة وأصبحوا في بكرة الحادي والعشرين من جمادي الآخرة راحلين نحو الرملة وعلى أعقابهم نا كسين ولله الحمد ومضى عسكرهم شا كيا السلاح ولم يبق في المنزلة الا الآثار ثم نزلوا الرملة وتواترت الاخبار بذلك فركب السلطان وركب الناس وكان يوم سرور وفرح

﴿ ذكر رسالة الكندهري ﴾

ولما فرغ بال السلطان برحيل العدو حضر رسول الكندهري يقول ان الانكتار قد أعطاني البلاد الساحلية وهي الآن لي فأعد عليّ بلادي حتى أصالحك وأكون أحد أولادك فغضب السلطان لذلك غضباً عظيما بحيث انه كان يبطش به فأقيم من بين يديه فسأل أن يمهل ليقول كلمة أخرى فأذن له في ذلك فقال يقول ان البلاد في يدك فما الذي تعطيني منها فانتهره وأقامه

ولما كان اليوم الثالث والعشرون حضر الرسول وكان جوابه أن يكون الحديث بيننا في صور وعكا على ما كان مع المركيس ثم وصل بعد ذلك الى الحاجب يوسف صاحب المشطوب من عند الافرنج وذكر أن الانكتار أحضره وأحضر الكندهري وأخلى المجلس وقال له قل لصاحبك انا قد هلكنا نحن وأنتم والاصلح حقن الدماء ولا ينبغي ان تعتقد ان ذلك لضعف مني بل للمصلحة ولا تغتر بتأخري عن منزلي فالكبش يتأخر لينطح وان يكون هو الواسطة بينهم وبين السلطان وأنفذ مع الحاجب شخصين يسمعان الكلام من المشطوب وكان ظاهر الحال الكلام في اطلاق بهاء الدين قراقوش وباطنه في معنى آخر وأخبر الحاجب أنهم رحلوا عن الرملة قاصدين يافا وانهم على غاية الضعف والعجز عن قصد مكان آخر فاستحضر المشطوب من نابلس لسماع الرسالة وكان الجواب الى الكندهري ان نعطي عكا ونصالحه على مال ويتركنا

والانكتار على بقية البلاد

وكان رحمه الله قد جعل في مقابلة عكا عسكرًا خشية خروج العدو الى النواحي التي تليها فلما كان الثاني والعشرون خرج العدو من عكا غائرين على ما يليها من البلاد والرساتيق فثارت عليهم الكمينات من الجوانب وكان قد شعر العسكر الاسلامي بخروجهم فكمن لهم فأخذوا منهم جماعة وقتلوا جماعة ولله الحمد

﴿ ذكر عود رسولهم في معنى الصلح ﴾

ولما كان يوم الجمعة السادس والعشرون من الشهر عاد رسولهم صحبة الحاجب وقد حمل الحاجب يوسف رسالة يؤديها بحضور صاحبهم وهي ان ملك الانكتار يقول اني راغب في مودتك وصداقتك وانه لا يريد أن يكون فرعون يملك الارض ولا يظن ذلك فيك ولا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم ولا يجوز لي أن أهلك الافرنج كلهم وهذا ابن أختي الكندهري قد ملكته هذه الديار وسلمته اليك ليكون هو وعسكره تحت حكمك ولو استدعيتهم الى الشنق سمعوا وأطاعوا ويقول ان جماعة من الرهبان المنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها وأنا أطلب منك كنيسة وتلك الامور التي كانت تضيق صدرك مما كان يجري في المراسلة مع الملك العادل تركتها وأعرضت عنها. ولو أعطيتني مقرعة أو خربة قبلتها. فلما سمع السلطان هذه الرسالة جمع أرباب الرأي وأصحاب مشورته وسألهم عما يكون الجواب لهذه الرسالة فما منهم الا من أشار بالمحاسنة وعقد الصلح لما كان قد أخذ المسلمون من الضجر والتعب وعلاهم من الديون . واستقر الحال على هذا الجواب

اذا دخلت معنا هذا الدخول فما جزاء الاحسان الا الاحسان ان ابن أختك يكون عندي كبعض أولادي وسيبلغك ما أفعل معه وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهي القمامة وأما بقية البلاد فنقسمها فالساحلية التي بيدك تكون بيدك والذي بأيدينا من القلاع الجبلية يكون لنا وما بين العلمين يكون مناصفة وعسقلان وما وراءها يكون خرابًا لا لنا ولا لكم وان أردتم قراها كانت لكم والذي كنت أكرهه حديث عسقلان*

وانفصل الرسول طيب النفس وذلك في ثاني يوم قدومه وهو الثامن والعشرون واتصل الخبر بعد وصول الرسول اليهم انهم راحلون الى عسقلان طالبون جهة مصر ووصل رسول من جانب قطب الدين ابن قليج أرسلان يقول ان البابا قد وصل الى القسطنطينية في خلق لا يعلم عددهم الا الله تعالى وقال الرسول اني قتلت في الطريق اثنى عشر فارساً . ويقول تقدم الي من يستلم بلادي مني فاني قد عجزت عن حفظها فلم يصدق السلطان هذا الخبر ولم يكترث به

﴿ ذكر عود رسول الافرنج ثالثاً ﴾

ولما كان التاسع والعشرون وصل الحاجب صاحب المشطوب ومعه جفري رسول الملك فقال ان الملك شكر انعام السلطان وقال ان الذي أطلبه منك ان يكون لنا في قلعة القدس عشرون رجلا وان من سكن من النصارى والافرنج لا يتعرض اليهم وأما بقية البلاد فلنا منها الساحليات والوطأة والبلاد الجبلية لكم . وأخبرنا الرسول من عند نفسه مناصحة انه قد نزل عن حديث القدس ما عدا الزيارة ولكن يقول ذلك لضعفنا وانهم راغبون في الصلح وان الانكتار لا بد له من الرواح الى بلده وأقام يوم الاثنين سلخ الشهر وكان معه في هذه الدفعة بازيان هدية للسلطان فاستحضر الامراء بأسرهم وشاورهم فيما يكون الجواب لهذه الرسالة وانفصل الحال على هذا الجواب وهو ان القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة فقال الرسول وليس على الزوار شيء يؤخذ منهم . فعلم من هذا القول الموافقة وأما البلاد كعسقلان وما وراءها فلا بد من خرابه فقال الرسول قد خسر الملك على سورها مالا جزيلاً فقال المشطوب للسلطان المصلحة ان تجعل مزارعها وقراها في مقابلة خسارتها فأجاب وان الدارون وغيره تخرب وتكون بلادها مناصفة . وأما باقي البلاد فتكون لهم من يافا الى صور بأعمالها ومهما اختلفنا في قرية كانت مناصفة هكذا جواب رسالته وسار في يوم الثلاثاء مستهل رجب ومعه الحاجب يوسف وكان قد طلب رسولا مذكورًا يحلفه ان استقرت القاعدة فأخر السلطان تسيير الرسول الى حين استقرار القاعدة وأنفذ لهم هدية حسنة في مقابل

هديتهم وما كان يغلب في الهدايا

﴿ ذكر عود الرسول ﴾

كان عوده وقد مضى هزيع من ليلة ثالث رجب فحضر الحاجب ليلاً وأخبر السلطان الخبر وحضر الرسول في بكرة الخميس الثالث من رجب وأدى الرسالة وهي ان الملك يسأل ويخضع لك أن تترك له هذه الاماكن الثلاثة عامرة وأي قدر لها في ملكك وعظمتك وما من سبب لاصراره عليها الا ان الافرنج لم يسمحوا بها وقد ترك القدس بالكلية فلا يطلب أن يكون فيه رهبان ولا قسوس الا في القمامة وحدها فأنت تترك له هذه البلاد ويكون الصلح عاماً فيكون لهم كل مافي أيديهم من الداروين الى انطاكية ولكم ما في أيديكم وينتظم الحال ويروج وان لم ينتظم الصلح فالافرنج لا يمكنونه من الرواح ولا يمكنه مخالفتهم . فانظر الى هذه الصناعة في استخلاص الغرض باللين تارة وبالخشونة أخرى . وكان لعنه الله مضطراً الى الرواح وهذا عمله مع اضطراره والله الولي في أن يقي المسلمين شره فما بلونا أعظم حيلة ولا أشد اقداماً منه*

ولما سمع السلطان هذه الرسالة أحضر الامراء وأرباب الرأي من دولته وسألهم عن الجواب ما يكون فكان خلاصة الرأي هذا الجواب وهو « ان أهل انطاكية لنا معهم حديث ورسلنا عنـدهم فان عادوا بما نريد أدخلناهم في الصلح والا فلا . واما البلاد التي سألها فلا يوافق المسلمون على دفعها اليه وان كانت لا قدر لها . وأما سور عسقلان فيأخذ في مقابلة ما خسر عليه لدا في الوطأة وسير الرسول صبيحة الجمعة رابع رجب »

ولما كان الخامس من رجب وصل ولده الملك الظاهر عز نصره وكان كثير المحبة له والايثار لجانبه لما يراه فيه من أمارات السعادة وصفات الكفاءة وتوسم الملك فخرج السلطان الى لقائه فلقيه من قاطع العزازية ونزل له عند لقائه واحترمه واكرمه وضمه اليه وقبله بين عينيه ونزل في دار الاسبتار *

ولما ان كان السابع وصل الحاجب يوسف وحده وذكر ان الملك قال له لا يمكن

ان نخرب من عسقلان حجراً واحداً ولا يسمع عنا في البلاد مثل ذلك . وأما البلاد فحدودها معروفة ولا مناكرة فيها وعند ذلك تأهب السلطان للخروج الى جهة العدو وأظهر القوة وشدة العزم على اللقاء *

﴿ ذكر تبريزه رحمة الله عليه ﴾

ولما كان العاشر من رجب بلغ السلطان ان الافرنج رحلوا طالبين نحو بيروت فبرز من القدس الى منزلة يقال لها الجيب وكان قدوم الملك العادل من البلاد الفراتية في بكرة الحادي عشر فدخل الصخرة وصلى عندها ثم توجه يتبع السلطان . ثم ان السلطان رحل من الجيب الى بيت نوبة و بعث الى العسكر في القدس يحثهم على الخروج واللحاق به ولحقت السلطان في بيت نوبة فاني كنت تخلفت عنه ليلة الاستعداد ثم رحل في يوم الاحد الثالث عشر الى الرملة ضحوة نهار على تلال بين الرملة ولد فأقام بها بقية الاحد . ولما كانت صبيحة الاثنين ركب جريدة حتى أتى بازور و بيت جبرين فاشرف على يافا ثم عاد الى منزلته وأقام بها بقية يومه وجمع أرباب مشورته وشاورهم في النزول على يافا واتفق الرأي على ذلك

﴿ ذكر حصار يافا ﴾

ولما كان صباح الثلاثاء خامس عشرة رحل طالباً جهة يافا فخيم عليها ضحوة النهار ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلباً وكان طرف الميمنة على البحر وطرف الميسرة أيضاً على البحر والسلطان في الوسط وكان صاحب الميمنة الملك الظاهر أعز الله نصره وصاحب الميسرة أخاه الملك العادل والعساكر فيما بينهما . ولما كان السادس عشر من الشهر زحف الناس اليها واستحقروا أمرها استحقاراً عظيما ثم رتب السلطان الناس للقتال وأحضر المنجنيقات وركبها على أضعف موضع في السور مما يلي الباب الشرقي وشرع النقابون في السور وارتفعت الاصوات وعظم الضجيج واشتد الحزم والزحف فأخذ النقابون النقب من شمالي الباب الشرقي الى الزاوية بطول البدنة وكان قد هدم المسلمون

ذلك المكان في الحصار الاول وبنــاه الافرنج وتمكن النقابون من النقب ودخلوا فلم يشك الناس في أخذ البلد في هذا اليوم هذا وأمر العدو في ازدياد وكان الملك قد توجه من عكا الى بيروت وهذا الذي حمل السلطان على نزوله على يافا ثم انفصل ذلك اليوم عن قتال شديد قد ضرس العدو منه وظهر من العدو من الشدة والحمية والذب والمنعة ما أضعف قلوب الناس هذا والنقابون قد تمكنوا من النقب عليهم فلما قارب الفراغ أخذ العدو في خسف النقب عليهم لحسفوه في مواضع عدة وخاف النقابون وخرج منهم جماعة وفتر الناس عن القتال وعلموا أن أمر البلد مشكل وانه يحتاج الى زيادة عمل في أخذه فعزم السلطان عزم مثله فأمر النقابين أن يأخذوا النقب في بقية البدنة من البرج الى الباب وأمر المنجنيقات أن تضرب قبالة البدنة المنقوبة ففعلوا ذلك وأقام السلطان في تلك الليلة هناك الى أن مضى من الليل ثلثه وعاد الى الثقل وكان الثقل بعيداً عن البلد على تل قبالته وأصبحت المنجنيقات قد أقيم منها اثنان وأقيم الثالث في بقية النهار وأصبح السلطان على القتال والزحف فلم يجد من الناس الا الفتور بسبب نصب المنجنيقات ظناً منهم ان المنجنيق لا يعمل الا بعد أيام . ولما علم السلطان من الناس الفتور والتوا كل حملهم على الزحف فالتحم القتال واشتد الامر وأذاقوا العدو مرّ الحروب فأشرف البلد على الاخذ واتفقت النفوس وطمعت في ذلك طمعاً شديداً وضعف العدو الا انه جرح من المسلمين جماعة بالنشاب والزنبورك من البلد . ولمــا رأى العدو المخذول ماقد حل به أرسل رسولين نصرانياً وأفرنجياً يطلبان الصلح ويتحدثان فيه فطلب السلطان منهم قاعدة القدس وقطيعته فأجابوا الى ذلك واشترطوا أن ينظروا الى يوم السبت الذي هو تاسع عشر رجب فان جاءتهم النجدة والا تمت القاعدة على ما استقر فأبى السلطان الانظار فعاد الرسول ثم رجعوا يسألونه الانظار فأبي ذلك وفتر الناس عن القتال بسبب تواصل الرسل سكوناً الى الدعة على جاري العادة فأمر السلطان النقابين بحشو النقب بعد انتهائه ففعلوا ذلك ووضعت النار فيــه فوقع نصف البدنة وكان العدو قد عرف وقوع النار في النقب وعلم ان ذلك المكان يقع فعمد الى أخشاب عظيمة وهيأها خلف ذلك المكان فلما وقع ذلك المكان التهبت النــيران

فنعت من الدخول الي الثلمة تم أمر السلطان الناس فزحفوا وضايقوا القوم مضايقـة عظيمة فلله درهم من رجال أقيال ما أشدهم وأعظم بأسهم فانهم مع هذا كله لم يغلقوا لها بابا ولم يزالوا يقاتلون خارج الابواب أعظم قتال حتى فصل الليل بين الطائفتين ولم تقدر على البلد في ذلك اليوم حتى بعد حرق النقوب في باقي البدنة وضاق صدر السلطان لهذا الامر وتقسم فكره وندم كيف لم يجبهم الى الصلح وبات تلك الليلة في المخيم وقد عزم على أن يقيم تمام خمسة مناجيق تضرب بعضها البدنة الضعيفة بسبب النقوب والنيران والخسف من جانبهم *

﴿ ذكر فتح يافا وما جرى فيه من الوقائع ﴾

ولما كان يوم الجمعة ثامن عشر رجب أصبحت المنجنيقات وقد نصبت وحجارتها قد جمعت من الاودية والاماكن البعيدة لعدم الحجر في ذلك المكان وظلت ترمي البدنة المنقوبة وزحف السلطان وزحف ولده الملك الظاهر عن نصره زحفاً شديداً وزحف عسكر الملك العادل من الميسرة فانه كان مريضاً وارتفعت الاصوات وضربت الكؤوسات وخفقت البوقات ورمت المنجنيقات وأحاط بهم الويل واشتد عزم النقابين في ايقاد النار فما مضى من النهار ساعتان الا ووقعت البدنة وكان وقعها كوقع الواقعة ونادي الناس ألا ان البدنة قد وقعت فلم يبق من له أدنى ايمان الا وزحف . ولا قلب من العدو الا أرعد ورجف . هذا الزحف وهم على القتال أشد وأحزم . وعلى الموت أعز وأكرم . وذلك انها لما وقعت علاها دخان وغبار . وأظلم الافق وعميت عين النهار . وما تجاسر أحد على الولوج خوفاً من اقتحام النار . فلما انكشفت الظلمة ظهرت أسنة قد نابت مناب الاسوار . ورماح قد سدّت الثلمة حتى غيبت نفوذ الابصار . ورأى الناس هولاً عظيماً من صبر القوم وثباتهم . وسداد حركاتهم وسكناتهم . ولقد رأيت رجلين على ممشى السور يمنعان المتساق عليـه من جهة الثلمة وقد أتى أحدهما حجر المنجنيق فأخذه ونزل الى داخل وقام رفيقه مقامه متصدياً لمثل مالحق صاحبه في ساعة أسرع من لمح العيون بحيث لم يفرق بينهما فارق

ولما رأى العدو ما آل الامر اليه سيروا وسولين الى السلطان يلتمسون الامان فقال رحمه الله الفارس بالفارس والتركبلي بمثله والراجل بالراجل والعاجز على قطيعة القدس فنظر الرسول فرأى القتال على الثلمة أشد من إضرام النار فسأل السلطان أن يبطل القتال الى أن يعود فقال لا أقدر على منع المسلمين من هذا الامر ولكن ادخل الى أصحابك فقل لهم يتجاوزوا الى القلعة ويتركوا الناس يشتغلون بالبلد فما بقي دونه مانع فعاد الرسول بهذه الرسالة فانحاز العـدو الى قلعة يافا بعد ان قتل منهم جماعة عظيمة ودخل الناس البلد عنوة ونهبوا منه أقمشة عظيمة وغلالا كثيرة وأثاثا وبقايا قماش ممـا نهب من القافلة المصرية واستقرت القاعدة على الوجه الذي قرره السلطان

ولما كان عصر الجمعة المباركة وصل السلطان كتاب من قايماز النجمي وكان في طرف العدو لحمايته من عسكر العدو الذي في عكا يخبر فيـه ان الانكتار لما سمع خبر يافا أعرض عن قصد بيروت وعاد الى قصد يافا فاشتد عزم السلطان على تتمة الامر وتسلم القلعة ممن لم ير الامان لانه قد لاح أخذهم وكان الناس لهم مدة لم يظفروا من العدو بغنم ونوبتهم عليه فكان أخذهم عنوة مما يبعث همم العسكر غير ان الامان وقع واتفق الصلح فكنت بعد ذلك ممن يحث على اخراج العدو من القلعة وتسلمها خوفا من لحوق النجدة وكان السلطان يشتهي خروجه غير ان الناس قد أقعدهم التعب عن اتمام الامر وأخذ منهم الحديد وشدة الحر ودخان النار بحيث لم تبق لهم استطاعة على الحركة وأقام السلطان يحثهم الى أن هوى الليل فلما رأى ماقد نزل بالناس من التعب ركب وسار الى خيمته الى الثقل وسار الناس الى خدمته ثم نزل في خيمته وعدت الى خيمتي وعندي من الخوف ما أقلقني عن النوم

ولما كان سحر تلك الليلة سمعنا بوق الافرنج قد نعق فعلمنا بوصول النجدة قد وصلت في البحر فاستدعاني السلطان من وقته وقال لاشك ان النجدة قد وصلت في البحر وعلى الساحل من عساكر الاسلام من يمنعهم من النزول والمصلحة أن تسير الى الملك الظاهر وتقول له أن يقف بظاهر البـاب القبلي وتدخل أنت ومن تراه الى

القلعة وتخرجون القوم وتستولون على ما فيها من الاموال والاسلحة وتكتبها بخطك الى الملك الظاهر خارج البلد وهو يسيرها اليّ ويسير معي لتقوية البلد مع ذلك عز الدين جرديك وعلم الدين قيصر ودرباس المهراني فسرت من ساعتي ومعي شمس الدين عدل الخزانة حتى أتيت الملك الظاهر وهو نائم على شليته على تل قريب البحر في اليزك وعليه كزاغنده وهو بلأمة حربه فلا ضيع الله صنعهم في نصرة الاسلام فأيقظته فقام والنوم في عينيه وسرت في خدمته وهو يستفهم مني رسالة السلطان حتى وقف حيث أمره ودخلنا نحن الى يافا وأتينا القلعة وأمرنا الافرنج بالخروج فأجابوا الى ذلك وتهيأوا للخروج

﴿ ذكر كيفية بقاء القلعة في يد العدو ﴾

ولما أجابوا الى الخروج قال عز الدين جرديك لا ينبغي أن يخرج منهم أحد حتى يخرج الناس من البلد خشية أن يتخطفهم الناس وكان الناس قد داخلهم الطمع في البلد وأخذ عز الدين يشتد في ضرب النـاس واخراجهم وهم غير مضبوطين بعدٌ ولا محصورين في مكان فكيف يمكن اخراجهم وطال الامر الى أعلا النهار وأنا ألومه وهو لا يرجع عن ذلك والزمان مضى ولما رأيت الوقت كاد يفوت قلت له ان النجدة قد وصلت والمصلحة المسارعة في اخراجهم والسلطان قد أوصاني بذلك فلما عرف السبب في حرصي أجاب الي اخراجهم ومضينا الى باب القلعة القريب من الباب الذي الملك الظاهر قائم عنده فأخرجنا تسعة وأربعين نفرًا بخيولهم ونسائهم وسيرناهم ولما خرج هؤلاء اشتد البـاقون وحدثتهم نفوسهم بالعصيان وكان سبب خروج من خرجوا أنهم استقلوا المراكب التي جاءتهم وظنوا أن لا نجدة لهم فيها ولم يعلموا أن الاكثار مع القوم ورأوهم قد تأخروا عن النزول الى علو النهار فخافوا أن يمتعوا فيؤخذوا ويقتلوا فخرج من خرج ثم بعد ذلك قربت النجدة حتى صاروا خمسة وثلاثين مركبًا فقويت نفوس الباقين في الحصن وظهرت عليهم امارات العصيان ودلائله وخرج منهم من أخبرني بتشويش عزمهم وأخذوا الطارقيات والجنويات وعلوا على الاسوار وكانت

القلعة جديدة لم تشرف بعد فلما رأيت الامر قد آل الى ذلك نزلت من التل الذي كنت واقفاً عليه وهو ملاصق لباب القلعة وقلت لعز الدين جرديك وهو مع عسكره في الاسفل مع جمع من الاجناد خذوا حذركم فقد تغيرت عزائم القوم فما كانت الا ساعة بحيث صرت خارج البلد في خدمة الملك الظاهر الا وقد ركب القوم خيلهم وحملوا من القلعة حملة الرجل الواحد وأخرجوا من كان في البلد من الاجناد ولقد ازدحم الناس في الباب حتى كاد يتلف منهم جماعة وبقي في بعض الكنائس جماعة من أتباع العساكر مشتغلين بما لا يجوز فهجموا عليهم وقتلوا منهم وأسروا وسيرني الملك الظاهر الى والده السلطان أعرفه بالحال فأمر الجاويش ان ينادي في العسكر وضرب الكوس للقتال ونفر الناس من كل جانب للغزاة وهجموا البلد وحشروا العدو في القلعة فأيقنوا بالبوار واستبطأوا نزول النجدة اليهم وخافوا خوفاً عظيماً فأرسلوا بطركهم والقسطلان رسولين الى السلطان يعتذران اليه مما جرى ويسألان القاعدة الاولى فخرجا الى السلطان والقتال يشتد عليهم وكان سبب انقطاع النجدة انهم رأوا البلد مشحونا ببيارق المسلمين ورجالهم فخافوا ان تكون القلعة قد أخذت وكان البحر يمنع من سماع الصوت من كل جانب لكثرة الضجيج والتهليل. فلما رأى من في القلعة شدة الزحف عليهم وامتناع النجدة من النزول مع كثرتها فانها بلغت نيفاً وخمسين مركباً منها خمسة عشر شانياً فيها شاني الملك علموا ان النجدة ظنت ان البلد قد أخذ ووهب واحد نفسه للمسيح وقفز من القلعة الى الميناء وكانت رملا فلم يصبه شيء واشتد عدواً حتى أتى البحر فخرج له شاني وأخذه الى شاني الملك فحدثه بالحديث فلما شعر الانكتار ان القلعة مع أصحابه اندفع يطلب الساحل وكان أول شاني ألقى من فيه بالبر شانيه وكان أحمر ورقبته حمراء وبيرقه أحمر فما كانت الا ساعة حتى نزل كل من في الشواني الى الميناء هذا كله وأنا أشاهد ذلك ثم حملوا على المسلمين فاندفعوا بين أيديهم وأخرجوهم من الميناء وكان تحتي فرس فسقته الى السلطان وأخبرته الخبر وبين يديه الرسولان وقد أخذ القلم بيده ليكتب لهم الامان فعرفته في أذنه ما جرى فامتنع من الكتابة وشغلهم بالحديث فما كان الا ساعة حتى فر المسلمون نحو السلطان فصاح في الناس فركبوا

وقبض على الرسولين وأمر بترحيل الثقل والاسواق الى بازور فرحل الناس وتخلف لهم ثقل عظيم مما كانوا نهبوه من يافا لم يقدروا على نقله ورحل الثقل وبقي السلطان جريدة في الليل وبات ليلته هناك وخرج الانكتار الى موضع السلطان الذي كان فيه لضيق البلد وأمر من في القلعة ان يخرجوا اليــه معظم سواده فاجتمع به جماعة من المماليك وجرت بينهم أحاديث ومجاوبات كثيرة

﴿ ذكر حديث الصلح ﴾

ثم طلب الحاجب أبا بكر العادلي وحضر عندهم ايبك العزيزي وسنقر المشطوبي وغيرهم وكان قد صادق جماعة من خواص المماليك ودخل معهم دخولا عظيماً بحيث كانوا يجتمعون به في أوقات متعددة وكان قد صادق من الامراء جماعة كبدر الدين دلدرم وغيره فلما حضر هذا الجمع عنده جد وهزل ومن جملة ما قاله هذا السلطان عظيم وما في هذه الارض للاسلام أكبر ولا أعظم منه كيف رحل عن المكان بمجرد وصولي والله ما لبست لأمة حرب ولا تأهبت لأمر وليس في رجلي الا رذول البحر فكيف تأخر * ثم قال والله العظيم الكريم ما ظننت انه يأخذ يافا في شهرين فكيف أخذها في يومين . ثم قال لابى بكر سلم على السلطان وقل له بالله عليك أجب سؤالي في الصلح فهذا الامر لا بد له من آخر وقد هلكت بلادي وراء البحر وما في دوام هذا مصلحة لا لنا ولا لكم ثم انفصلوا عنه وحضر أبو بكر عند السلطان وعرفه ما قاله وكان ذلك في أواخر يوم السبت تاسع عشر شهر رجب فلما سمع السلطان ذلك أحضر أرباب المشورة وانفصل الحال على ان الجواب هو « انك كنت طلبت الصلح أولا على قاعدة وكان الحديث في يافا وعسقلان والآن قد خربت يافا فيكون لك من صور الى قيسارية » فمضى اليه وعرفه ماقال فرده اليه ومعه رسول افرنجي وقال يقول « ان قاعدة الافرنج انه اذا أعطى واحد لواحد بلداً صار تبعه وغلامه وأنا أطلب منك هذين البلدين يافا وعسقلان وتكون عساكرهما في خدمتك دائماً واذا احتجت اليّ وصلت اليك في أسرع وقت وخدمتك كما تعلم خدمتي » . فكان جواب السلطان

« حيث دخلت هذا المدخل فأنا أجيبك بأن نجعل هذين البلدين قسمين أحدهما لك وهو يافا وما وراءها والثاني لي وهو عسقلان وما وراءها » ثم سار الرسولان ورحل السلطان الى الثقل وكان المخيم بيازور ورتب التقابين لذلك والبزك عندهم وسار حتى أتى الرملة فخيم بها يوم الاحد العشرين من رجب ووصل اليه الرسول مع الحاجب أبي بكر فأمر باكرامه والاحسان اليه وكانت رسالتــه الشكر من الملك على اعطائه يافا وتجديد السؤال في عسقلان ويقول انه ان وقع الصلح في هذه الايام سار الى بلاده ولا يحتاج ان يشتي هاهنا فأجابه السلطان في الحال بقوله « أما النزول عن عسقلان فلا سبيل اليه وأما تشتيته هاهنا فلا بد منها لانه قد استولى على هذه البلاد ويعلم انه متي غاب عنها أخذت بالضرورة كما تؤخذ أيضاً اذا أقام ان شاء الله تعالى . واذا سهل أن يشتي هاهنا ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين وهو شاب في عنفوان شبابه ووقت اقتناص لذاته أفلا يسهل عليّ أشتي وأصيف وأنا في وسط بلادي وعندي أولادي وأهلي ويأتي اليّ ما أريد وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا وشبعت منها ورفضتها عني والعسكر الذي يكون عندي في الشتاء غــير العسكر الذي يكون عندي في الصيف وأنا أعتقد اني في أعظم العبادات ولا أزال كذلك حتى يعطي الله النصر لمن يشاء » * فلما سمع الرسول ذلك طلب ان يجتمع بالملك العادل فأذن له في ذلك فسار الى خيمته وكان قد تأخر بسبب مرض اعتراه الى موضع يقال له صمويل فسار الرسول اليه مع جماعة ثم بلغ السلطان ان عسكر العدو قد رحل من عكا قاصداً يافا للانجاد فجمع أرباب الرأي وعقد مشورة في قصدهم فاتفق الرأي على أنهم يقصدونهم ويرحل بالثقل الى الجبل ويقصدونهم جريدة فان لاحت فرصة انتهزوها والا رجعوا عنهم وهذا أولى من أن نصبر حتى تجتمع عساكر العدو ونرحل الى الجبل في صورة منهزمين واما اذا وصلنا الآن ففي صورة طالبين فأمر السلطان الثقل أن يسير الى الجبل عشية الاثنين الحادي والعشرين من رجب وسار هو جريدة في صبيحة يوم الثلاثاء حتي نزل على العوجاء ووصل اليه من أخبره أن عسكر العدو قد وصل قيسارية ودخل عليها ولم يبق فيه طمع وبلغه أن الانكتار قد نزل خارج يافا في نفر يسير بخيم

قليلة فوقع له أن ينتهز فيه الفرصة و يكبس خيمه و ينال منهم غرضاً وعزم على ذلك وسار من أول الليل والادلةمن العرب تتقدمهوهو يقطع الطريق الى ان أتى فيالصباح الى خيام العدو فوجدها تقريباً عشر خيم فداخله الطمع وحملوا حملة الرجل الواحد فثبتوا في أماكنهم وكشروا عن أنياب الحرب فوجموا من ثباتهم ودار العسكر حلقة واحدة

ولقد حكى لي بعض الحاضرين فاني كنت تأخرت مع الثقل ولم أحضر هذه الوقعة لالتياث مزاجي أن عدة الخيل كان يحزرها المكثر سبعة عشر والمقل تسعة عشر والرجال دون الالف فمن قائل ثلاثمائة ومن قائل اكثر من ذلك مغيظة عظيمة ودار على الاطلاب يحثها فلم يجب دعاءه سوى ولده الملك الظاهر وقال له الجناح أخو المشطوب قل لغلمانك الذين ضربوا الناس يوم فتح يافا وأخذوا منهم الغنيمة وكان في قلوب العسكر من صلح يافا حيث فوتوهم الغنيمة ما كان وجرى ما جرى ما أثر هذا الاثر . فلما رأى السلطان ذلك رأى أن وقوفه في مقابلة هذه الشرذمة اليسيرة من غير عمل خسة في حقه وقد بلغني أن الانكتار أخذ رمحه ذلك اليوم وحمل من طرف الميمنة الى طرف الميسرة فلم يتعرض له أحد فغضب السلطان ثم أعرض عن القتال وسار حتى أتى بازوركالمغضب ونزل بها وذلك في يوم الاربعاء الثالث والعشرين من رجب و بات العسكر باليزك ثم أصبح يوم الخميس فسار الى النطرون ونزل به وأنفذالي العسكر فأحضرهعندهفوصلنااليه آخر نهار الخميس الرابع والعشرين فبات به ثم أصبح يوم الجمعة فسار الى أخيه العادل يفتقده ودخل القدس وصلى الجمعة ونظر العمائر ورتبها ثم عاد من يومه الى الثقل وبات فيه على النطرون

﴿ذكر قدوم العساكر﴾

كان أول من وصل علاء الدين بن أتابك صاحب الموصل وكان وصوله ضحاء نهار السبت السادس والعشرين من رجب فلقيه السلطان عن بعد واحترمه واكرمه وأنزله عنده في الخيمة وعمل همة حسنة وقدم له تقدمة جميلة ثم سار الى خيمته

وأما رسول الملك فانه عاد في هــذا اليوم فان الملك العادل قد حمله رسالة مشافهة الى الملك وعاد مع الحاجب أبي بكر الى يافا فعاد أبو بكر وحضر عند السلطان في ذلك اليوم واخبره أن الملك لم يتركني أدخل يافا وخرج اليّ وكلمني في ظاهرها وكان كلامه اليّ كم أطوح نفسي على السلطان وهو لا يقبلني وانا كنت أحرص أن أعود الى بلادي والآن قد هجم الشتاء وتغيرت الانواء وقد عزمت على الاقامة وما بقي بيننا حديث هكذا كان جوابه خذله الله تعالى

ولما كان يوم الخميس تاسع شعبان قدم عسكر مصر فخرج السلطان الى لقائهم وكان فيهم مجد الدين هلدري وسيف الدين يازكج وجماعة الاسدية وكان في خدمته الملك المؤيد مسعود وقد اظهروا الزينة ونشروا الاعلام والبيارق فكان يوماً مشهوداً ثم أنزلهم عنده ومد الخوان ثم ساروا الى منازلهم

ذكر قدوم الملك المنصور ابن تقي الدين رحمه الله

وكان قد تسلم البلاد التي وعد بها وكان وصوله الى خدمة الملك العادل في يوم السبت حادي عشر شعبان فنزل عنده بماء صمويل وافتقده وكتب الملك العادل في ذلك اليوم الي السلطان يخبره بوصوله وسأله في احترامه واكرامه واطلاق الرحمة له . ولما تحقق الملك الظاهر وصول الملك المنصور استأذن والده في لقائه وافتقاد الملك العادل فأذن له في ذلك فسار فوجد الملك المنصور مخيما ببيت نوبة فنزل عنده وخرج الى لقائه وأقام عنده الى العصر وذلك في يوم الاحد ثم أخذه وسار به جريدة حتى أتى خيمة السلطان ونحن في خدمته فدخل عليه فاحترمه ونهض اليه فاعتنقه وضمه الى صدره ثم غشيه البكاء فصبر نفسه حتى غلبه الامر وغشيه من البكاء ما لم ير مثله فبكى الناس لبكائه ساعة زمانية ثم باسطه وسأله عن الطريق ثم انفصل وبات في خيمة الملك الظاهر الى صبيحة يوم الاثنين ثم ركب وعاد الى عسكره ونشروا الاعلام والبيارق وكان معه عسكر جليل فقرت عين السلطان ونزل في مقدمة العسكر مما يلي الرملة

ذكر رحيله رحمه الله الى الرملة

وذلك أنه لما رأى العساكر قد اجتمعت جمع أرباب الرأي وقال ان الانكتار قد مرض مرضاً شديداً والافرنسيسية قد ساروا راجعين ليعبروا البحر من غير شك ونفقاتهم قد قلت وهذا العدو قد امكن الله منه وأرى أن نسير الى يافا فان وجدنا فيها مطمعاً بلغناه والا عدنا تحت الليل الى عسقلان فما تلحقنا النجدة الا وقد نلنا منها غرضاً فرأوا ذلك رأياً. وتقدم الى جماعة من الامراء كعز الدين جرديك وجمال الدين فرج وغيرهما بالمسير في ليلة الخميس سادس عشر شعبان حتى يكونوا قريباً من يافا في صورة يزك يستطلعون كم فيها من الخيالة والرجالة بالجواسيس ثم يعرفونه ذلك فساروا. هذا ورسل الانكتار لا تنقطع فى طلب الفاكهة والثلج ووقع عليه فى مرضه شهوة الكمثرى والخوخ فكان السلطان يمده بذلك ويقصد كشف الاخبار بتواتر الرسل والذي انكشف من الاخبار ان فيها ثلاثمائة فارس على قول المكثر ومئتي فارس علي قول المقل وان الكندهري يتردد بينه وبين الفرنسيسية في مقامهم وهم عازمون على عبور البحر قولا واحداً وانهم لا عناية لهم بسور البلد وانما عنايتهم بعمارة سور القلعة وكان الانكتار قد طلب الحاجب أبا بكر العادلي وكان له معه انبساط عظيم. فلما تحقق السلطان الاخبار أصبح يوم الخميس راحلا الى جهة الرملة فنزل بها ضاحي نهار ووصل الخبر من المخبرين يقولون انا أغرنا على يافا فلم يخرج الا نحو ثلاثمائة فارس معظمهم على بغال فأمرهم السلطان بمقامهم هناك ثم وصل الحاجب أبو بكر ومعه رسول من عند الملك يشكر السلطان على انعامه بالفواكه والثلج وذكر أبو بكر انه تفرد به وقال له قل لأخي الملك العادل يبصر كيف يتوصل الى السلطان في معنى الصلح و يستوهب لي منه عسقلان وأمضي أنا و يبقى هو في هذه الشرذمة اليسيرة يأخذ البلاد منهم فليس لي غرض الا اقامة جاهي بين الافرنج وان لم ينزل السلطان عن عسقلان فيأخذ لي منه عوضاً عن خسارتي على عمارة سورها فلما سمع السلطان ذلك سيرهم الى الملك العادل وأسر الى ثقة عنده ان يمضي الى

الملك العادل و يقول له ان زلوا عن عسقلان فصالحهم فان العسكر قد ضجروا من ملازمة البيكار والنفقات قد نفدت فسار ضحى الجمعة سابع عشر شعبان

﴿ ذكر الاجابة الى النزول عن عسقلان ﴾

ولما كان غروب الشمس من اليوم المذكور أنفذ بدر الدين دلدرم من اليزك يقول انه قد خرج الينا خمسة أنفس منهم شخص مقدم عندالملك يسمى هوات وذكروا ان لهم معنا حديثاً فهل أسمع حديثهم أولاً فأذن له السلطان في ذلك ولما كانت العشاء الآخرة حضر بدر الدين بنفسه وأخبر انحديثهم كان ان الملك قد نزل عن عسقلان وعن طلب العوض عنها وقد صح مقصوده في الصلح فأعاده السلطان ثانية لينفذ اليه ثقة يأخذ يده على ذلك و يقول ان السلطان قد جمع العساكر وما يمكنني ان أحدثه هذا الحديث الا بأن أثق انك لا ترجع و بعد ذلك أحدثه وسار بدر الدين على هذه القاعدة وكتب الى الملك العادل يخبره بما جرى

ولما كان يوم السبت ثامن عشر شعبان أنفذ بدر الدين وذكر انه أخذ يده على هذه القاعدة بمن يثق به وان حدود البلاد على ما استقر في الدفعة الاولى مع الملك العادل فأحضر السلطان الديوان فذكروا يافا وأعمالها وأخرج الرملة و يبنا ومجدل يابا ثم ذكر قيسارية وأعمالها وأرسوف وأعمالها وحيفا وأعمالها وعكا وأعمالها وأخرج منها الناصرة وصفورية وأثبت الجميع في ورقة وكتب جواب الكتاب وأنفذه على يد طرنطاي مع الرسول وكان قد وصل الرسول لتحرير القاعدة مع بدر الدين في عصر السبت وقال للرسول هذه حدود البلاد التي تبقى في أيديكم فان صالحتم على ذلك فمبارك قد أعطيتم يدي ولينفذ الملك من يحلف و يكون ذلك في غداة غد والا فيعلم ان هذا تدفيع ومماطلة و يكون الامر قد انفصل من بيننا . وساروا في بكرة الاحد على هذه القاعدة

ولما كانت العشاء الآخرة يوم الاحد وصل من أخبر بوصول طرنطاي ومعه الرسول واستأذن في حضورهما فاذن رحمه الله في حضور طرنطاي وحده فذكر ان

الملك قد وقف على تلك الرقعة وأنكر انه نزل عن العوض فاذكره الجماعة الذين خرجوا الى بين يدي دلدرم انه نزل عن ذلك فقال أذن أنا قلته فلا أرجع عنه . قولوا للسلطان مبارك رضيت بهذه القاعدة وقد رجعت الى مروءتك فان زدتني شيئاً فمن فضلك وانعامك . ثم سار وأحضر الرسل ليلا وأقاموا الى بكرة وحضروا عند السلطان بكرة الاثنين فذكروا ما استقر عن صاحبهم ثم انفصلوا الى خيمهم وحضر عند السلطان أرباب المشورة واستقر الامر وانفصلت القاعدة وسار الامير بدر الدين دلدرم الى الملك العادل وأخذ الرسل معه في صورة من يسأل في زيادة الرملة وعاد في عشاء الآخرة ليلة الاثنين وكتبت المواضعة وذكر فيها شروط الصلح ثلاث سنين من تاريخها وهو الاربعاء الثاني والعشرون من شعبان سنة ثمانية وثمانين وخمسمائة ويزاد فيها الرملة لهم ولد أيضاً وسير العدل وقال له ان قدرت ان ترضيهم بأحد الموضعين أو مناصفتها فافعل ولا يكون لهم حديث في الجبليات ورأى السلطان ذلك مصلحة لما عرا الناس من الضعف وقلة النفقات والشوق الى الاوطان ولما شاهده من تقاعدهم عن يافا يوم أمرهم بالحملة فلم يحملوا فخاف ان يحتاج اليهم فلم يجدهم فرأى ان يجيبهم مدة حتى يستريحوا و يتبعوا غير هــذه الحالة التي صاروا اليها و يعمر البلاد ويشحن القدس بما يقدر عليه من الآلة و يتفرغ لعمارتها *

وكان من القاعدة ان عسقلان تكون خراباً وأن يتفق أصحابنا وأصحابهم على خرابها خشية أن تأخذها عامرة فلا نخربها فمضى العدل على هذه القاعدة واشترط دخول البلاد الاسلامية واشترطوا هم دخول صاحب انطاكية وطرابلس في الصلح على قاعدة آخر صلح صالحناهم عليه واستقر الحال على ذلك وسارت الرسل وحكم عليهم ان لا بد من فصل الحال إما الصلح وإما الخصومة خشية أن يكون هذا الحديث من قبيل أحاديثه السابقة ومدافعاته المعروفة *

وفي ذلك اليوم وصل رسول سيف الدين بكتمر صاحب خلاط ببذل الطاعة والموافقة وسير العساكر وحضر رسول الكرج وذكر فصلا في معنى الزيادات التي لهم في القدس وعمارتها وشكوا انها أخذت من أيديهم و يسأل عواطف السلطان أن يرده

الى نوابهم ووصول صاحب أرزن الروم ببذل الطاعة والعبودية

﴿ ذكر تمام الصلح ﴾

ولما وصل العدل الى هناك أنزل خارج البلد في خيمة حتى أعلم الملك به فلما علم به استحضره عنده مع بقية الجماعة وعرض العدل عليه النسخة وهو مريض الجسم فقال لاطاقة لي بالوقوف عليها وأنا قد صالحت وهذه يدي فاجتمعوا بالكندهري والجماعة وأوقفوهم على النسخة ورضوا بلد والرملة مناصفة وبجميع مافي النسخة واستقرت القاعدة أنهم يحلفون بكرة يوم الاربعاء لانهم كانوا قد أكلوا شيئاً وليس من عادتهم الحلف بعد الاكل وأنفذ العدل الى السلطان من عرّفه ذلك

ولما كان يوم الاربعاء الثاني والعشرون من شعبان حضر الجماعة عند الملك وأخذوا يده وعاهدوه واعتذر أن الملوك لايحلفون وقنع السلطان بذلك ثم حلف الجماعة والمستخلف الكندهري ابن أخته المستخلف عنه في الساحل وباليان بن بارزان صاحب طبرية ورضي الاسبتار والداوية وسائر مقدمي الافرنجية بذلك وساروا بقية يومهم عائدين الى المخيم السلطاني فوصلوا العشاء الآخرة وكان الواصلون من جانبهم ابن الهنفري وابن بارزان وجماعة من مقدميهم فاحترموا واكرموا وضربت لهم خيمة تليق بهم وحضر العدل وحكي ماجرى

ولما كانت صبيحة الثالث والعشرين حضر الرسل في خدمة السلطان وأخذوا بيده الكريمة وعاهدوه على الصلح على القاعدة المستقرة واقترحوا حلف جماعة وهم الملك العادل والملك الافضل والملك الظاهر عز نصرهم والمشطوب و بدر الدين دلدرم والملك المنصور ومن كان مجاوراً لبلادهم كابن المقدم وصاحب شيزر وغيرهم فوعدهم السلطان أن يسير معهم رسلا الى الجماعة المجاورين ليحلفوهم لهم وحلف لصاحب انطاكية وطرابلس وعلق اليمين بشرط حلفهم للمسلمين فان لم يحلفوا فلا يدخلوا في الصلح

ثم أمر المنادي أن ينادي في الوطاقات والاسواق ألا ان الصلح قد انتظم في

سائر بلادهم فمن شاء من بلادهم أن يدخل الى بلادنا فليفعل ومن شاء من بلادنا أن يدخل الى بلادهم فليفعل وأشار رحمة الله عليه أن طريق الحج قد فتح من الشام ووقع له عزم على الحج في ذلك المجلس وكنت حاضراً ذلك جميعه وأمر السلطان ان تسير مائة نقاب لتخريب سور عسقلان معهم أمير كبير ولاخراج الافرنج منها ويكون معهم جماعة من الافرنج الى حين وقوع الخراب في السور خشية استبقائه عامراً . وكان يوماً مشهوداً غشي الناس من الطائفتين فيه من الفرح والسرور مالا يعلمه الا الله تعالى . والله العظيم ان الصلح لم يكن من ايثاره فانه قال لي في بعض محاورته في الصلح أخاف ان أصالح وما أدري أي شيء يكون مني فيقوى هذا العدو وقد بقيت لهم هذه البلاد فيخرجوا لاسترداد بقية بلادهم وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس قلعته يعني حصنه وقال لا أنزل فيهلك المسلمون . هذا كلامه وكان كما قال لكنه رأى المصلحة في الصلح لسآمة العسكر وتظاهرهم بالمخالفة وكانت مصلحة في علم الله تعالى فانه اتفقت وفاته بعيد الصلح ولو كان اتفق ذلك في أثناء الوقعات لكان الاسلام على خطر فما كان الصلح الا توفيقاً وسعادة له *

﴿ ذكر خراب عسقلان ﴾

ولما كان الخامس والعشرون من شعبان ندب السلطان علم الدين قيصر الى خراب عسقلان وسير معه جماعة من النقابين والحجارين واستقر ان الملك ينفذ من يافا من يسير معه ليقف على التخريب ويخرج الافرنج منها فوصلوا اليها من الغد فلما أرادوا التخريب اعتذر الاجناد الذين بها بان لنا على الملك جامكية لمدة فاما ان يدفعها الينا ونخرج أو ادفعوها أنتم الينا فوصل بعد ذلك رسول الملك يأمرهم بالخروج فخرجوا ووقع التخريب فيها في السابع والعشرين من شعبان واستمر يخربها وكتب على الجماعة رقاعاً بالمعاونة على التخريب وأعطى كل واحد قطعة معلومة في السور وقيل له دستورك في تخريبها *

ولما كان التاسع والعشرون رحل السلطان الى النطرون واختلط العسكران

وذهب جماعة من المسلمين الى يافا في طلب التجارة ووصل خلق عظيم من العدو الى القدس للحج وفتح لهم السلطان الباب وأنفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردهم الى يافا وكثر ذلك من الافرنج وكان غرض السلطان بذلك ان يقضوا غرضهم من الزيارة و يرجعوا الى بلادهم فيأمن المسلمون من شرهم

ولما علم الملك كثرة من يزور منهم صعب عليه ذلك وسير الى السلطان يسأله منع الزوار واقترح ان لا يؤذن لهم الا بعد حضور علامة من جانبه أو كتابة وعلمت الافرنج ذلك فعظم عليهم واهتموا في الحج فكان يرد منهم في كل يوم جموع كثيرة مقدمون وأسباط وملوك متنكرون وشرع السلطان في اكرام من يرد ومدّ الطعام ومباسطتهم ومحادثتهم وعرفهم انكار الملك ذلك وأذن لهم السلطان في الحج وعرفهم انه لم يلتفت الى منع الملك من ذلك واعتذر الى الملك بان قوماً قد وصلوا من بعد ذلك لزيارة هذا المكان الشريف فلا استحل منعهم ثم اشتد المرض بالملك فرحل في ليلة التاسع والعشرين وسار هو والكندهري وسائر العدو الى جانب عكا ولم يبق في يافا الا مريض أو عاجز ونفر يسير *

﴿ ذكر عود العساكر الاسلامية الى أوطانهم ﴾

ولما انقضى هذا الامر واستقرت القواعد أعطى السلطان الناس دستورًا وكان أول من سار عسكر أربل فانه سار في مستهل شهر رمضان المبارك ثم سار بعده في ثانيه عسكر الموصل وسنجار والحصن وأشاع أمر الحج وقوى عزمه على براءة الذمة وكان هذا مما وقع لي و بدأت بالاشارة به فوقع منه موقعاً عظيما وأمر الديوان وكل من عزم على الحج من العسكر ان يثبت اسمه حتى يحصر عدة من يدخل معنا في الطريق وكتب جرائد بما يحتاج اليه في الطريق من الخلع والازواد وغيرها وسيرها الى البلاد ليعدوها

ولما أعطى الناس دستورا وعلم عود العدو قد رجع الى ورائه رأى الدخول الى القدس الشريف لتهيئة أسباب عمارته والنظر في مصالحه والتأهب للسير الى الحج

فرحل من النطرون يوم الاحد رابع شهر رمضان وسار حتى أتى ماء صمويل يفتقد الملك العادل فوجده قد سار الى القدس وكنت عنده رسولا من جانب السلطان أنا والامير بدر الدين دلدرم والعدل وكان قد انقطع عن أخيه مدة بسبب مرضه وكان قد تماثل نعرفناه مجيء السلطان الى ماء صمويل لعيادته فحمل على نفسه وسار معنا حتى لقيه في ذلك المكان وهو أول وصوله الى ماء صمويل ولم ينزل بعد فلقيه ونزل وقبل الارض وعاد فركب فاستدناه وسأله عن مزاجه وسارا جميعاً حتى أتيا القدس الشريف في بقية ذلك اليوم

﴿ ذكر وصول رسول من بغداد ﴾

ولما كان يوم الجمعة الثالث والعشرون من شهر رمضان صلى الملك العادل الجمعة وانصرف الى الكرك عن دستور من السلطان لينظر في أحواله ويعود الى البلاد الشرقية يدبرها فانه كان قد أخذها من السلطان وكان قد ودع السلطان فلما وصل العازرية نزل بها مخيما فوصله من أخبر أن رسولا من بغداد واصل اليك فأنفذ الى السلطان وعرفه فذكر له أن يجتمع ويطالع ماوصل فيه فلما كان السبت الرابع والعشرون دخل الى الخدمة السلطانية وذكر أن الرسول قد وصل اليه من جانب ابن الناقد بعد ان ولي نيابة الوزارة ببغداد ومقصود الكتاب أنه يحثه على استعطاف قلب السلطان الى الخدمة الشريفة والدخول بينه وبين الديوان العزيز والانكار عليه بتأخر رسله عن العتبة الشريفة واقتراح تسيير القاضي الفاضل ليحضر الديوان العزيز في تقرير قاعدة تحرر بينه وبين السلطان لا بد منها وقد وعد الملك العادل من الديوان بوعود عطية اذا قرر ذلك وتكون له يد عند الديوان يستثمرها فيما بعد وما يشبه هذا الفن فحدثت عند السلطان فكرة في انفاذ رسول يسمع كلام الديوان ويستعلم سبب دخول الملك العادل في البين وراد الحديث ونقص وطال وقصر وقوى العزم السلطاني على انفاذ الضياء الشهرزوري وعاد الملك العادل الى مخيمه بالعازرية بعد تقرير هذه القاعدة وعرفه اجابة السلطان الى انفاذ رسول الى خدمة الديوان العزيز وسار يوم

الاثنين طالباً جهة الكرك وسار الضياء متوجهاً الى بغداد يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شهر رمضان

﴿ ذكر توجه ولده الملك الظاهر الى بلاده ووحشة السلطان له ﴾

ولما كانت بكرة التاسع والعشرين توجه الملك الظاهر عن نصره بعد ان ودعه ونزل الى الصخرة فصلى عندها وسأل الله تعالى ما شاء ثم ركب وركبت في خدمته فقال لي قد تذكرت أمرًا احتاج فيه الي مراجعة السلطان مشافهة فأنفذ من استأذن له العود الى خدمته فأذن له في ذلك فحضر واستحضرني وأخلى المكان ثم قال أوصيك بتقوى الله تعالي فانها رأس كل خير وآمرك بما أمر الله به فانه سبب نجاتك وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد بها فان الدم لا ينام وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم فأنت أميني وأمين الله عليهم وأوصيك بحفظ قلوب الامراء وار باب الدولة والأكابر فما بلغت ما بلغت إلا بمداراة الناس ولا تحقد على أحد فان الموت لا يبقى على أحد واحذر ما بينك و بين الناس فانة لا يغفر الا برضاهم وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك اليه فانه كريم. وكان ذلك بعد ان انصرفنا من خدمته ومضى من الليل ما شاء الله أن يمضي وهذا ما أمكنني حكايته وضبطه ولم يزل بين يديه الى قريب السحر ثم أذن له في الانصراف ونهض له ليودعه فقبل وجهه ومسح على رأسه وانصرف في دعة الله ونام في برج الخشب الذي للسلطان وكنا نجلس عنده في الاحيان الى بكرة وانصرفت في خدمته الى بعض الطريق وودعته وسار في حفظ الله

ثم سير الملك الافضل ثقله وأقام يراجع السلطان على لساني في أشغال كانت له حتى دخل في شوال أربعة أيام وسار في ليلة الخامس منه نصف الليل عن تعتب عليه جريدة على طريق الغور

﴿ ذكر مسيره رحمه الله من القدس الشريف ﴾

وأقام السلطان يقطع الناس و يعطيهم دستورًا و يتأهب للسير الى الديار المصرية

وانقطع شوقه عن الحج وكان من أكبر المصالح التي فاتته ولم يزل كذلك حتى صح عنده اقلاع مركب الانكتار متوجهاً الى بلاده مستهل شوال فعند ذلك حرر السلطان عزمه على ان يدخل الساحل جريدة ويفتقد القلاع البحرية الى بانياس ويدخل دمشق المحروسة يقيم بها أياماً قلائل ويعود الي القدس الشريف سائرًا الى الديار المصرية يفتقد أحوالها ويقرر قواعدها وينظر في مصالحها وأمرني بالمقام في القدس الشريف لعمارة بيمارستان انشأه فيه وادارة المدرسة التي أنشأها فيه الى حين عوده وسار من القدس الشريف ضحوة نهار الخميس سادس شوال وودعته الى البيرة ونزل بها وأكل فيها الطعام ثم أتى بعض طريق نابلس فبات فيه ثم أتى نابلس ضحوة نهار الجمعة سابع شوال فلقيه خلق عظيم يستغيثون من المشطوب ويتضورون من سوء رعايته لهم فأقام يكشف عن أحوالهم الى عصر يوم السبت ثم رحل ونزل بسبصطية يتفقد أحوالها ثم أتى في طريقه الى كوكب ونظر في أحوالها وسد خللها وذلك في يوم الاثنين عاشره

وكان فكاك بهاء الدين قراقوش من ربقة الاسر يوم الثلاثاء حادي عشر شوال ومثل في الخدمة السلطانية ففرح به فرحاً شديدًا وكانت له حقوق كثيرة على السلطان وعلى الاسلام واستأذن السلطان في المسير الى تحصيل القطيعة فاذن له في ذلك وكانت القطيعة على ما بلغني ثمانين الفاً والله اعلم *

ولما وصل السلطان الى بيروت وصل الى خدمته البرنس صاحب أنطاكية مسترفدًا فبالغ في احترامه واكرامه ومباسطته وانعم عليه بالعمق وزرعان ومزارع تغل خمسة عشر الف دينار . وكان قد خلف المشطوب في القدس من جملة العسكر المقيمين به ولم يكن واليه وانما كان واليه عز الدين جرديك وكان ولاه بعد الصلح حالة عوده الى القدس بعد ان شاور فيه الملك العادل والملك الافضل والملك الظاهر على لساني وأشار به أهل الدين الصلاح لانه كان كثير الجد والخدمة والحفظ لاهل الخير فامرني السلطان أن أوليه ذلك في يوم الجمعة عند الصخرة ووليته اياه بعد صلاة الجمعة واشترطت عليه الامانة وعرفته موضوع حسن اعتقاد السلطان فيه وانعقد الامر وقام

به القيام المرضيّ . وأما المشطوب فانه كان مقيما بالقدس من جملة من كان مقيما بها وتوفى يوم الاحد الثالث والعشرين من شوال ودفن في داره بعد ان صلى عليه في المسجد الاقصى رحمه الله ❊

﴿ ذكر عود السلطان الى دمشق المحروسة ﴾

وكان عوده اليها بعد الفراغ من تصفح أحوال القلاع الساحلية بأسرها والتقدم بسد خللها واصلاح أمور أجنادها وشحنها بالاجناد والرجال ودخل دمشق بكرة الاربعاء السادس والعشرين من شوال وفيها أولاده الملك الافضل والملك الظاهر والملك الظافر وأولاده الصغار وكان يحب البلد ويؤثر الاقامة فيه على سائر البلاد وجلس للناس في بكرة الخميس السابع والعشرين منه وحضر الناس عنده وبلوا شوقهم من رؤيته وأنشده الشعراء وعم ذلك المجلس الخاص والعام وأقام ينشر جناح عدله ويهطل سحاب انعامه وفضله ويكشف مظالم الرعايا في الاوقات المعتادة حتى كان يوم الاثنين مستهل ذي القعدة اتخذ الملك الافضل دعوة للملك الظاهر فانه لما وصل الى دمشق بلغه حركة السلطان اليها فأقام حتى يتملى بالنظر اليه ثانيا وكأن نفسه الشريفة كانت قد أحست بدنو أجل السلطان فودعه في تلك الليلة مرارًا متعددة وهو يعود اليه . ولما اتخذ الملك الافضل له دعوة أظهر فيها من بديع التجمل وغريبه ما يليق بهمته وكأنه أراد مجازاته عما خدمه به حين وصوله الى حلب وحضرها أرباب الدنيا وأبناء الآخرة وسأل السلطان الحضور فحضر جبرًا لقلبه ❊

﴿ ذكر قدوم الملك العادل أخيه ﴾

ولما تصفح الملك العادل أخبار الكرك وأمر باصلاح ما قصد اصلاحه منه عاد طالبًا البلاد الفراتية فوصل أرض دمشق يوم الاربعاء سابع عشر ذي القعدة وكان السلطان قد خرج الى لقائه وأقام يتصيد حوالي عباب الى الكسوة حتى لقيه وسارا جميعًا وكان دخولهما الى دمشق آخر نهار الاحد الحادي والعشرين وأقام السلطان

بدمشق يتشيد هو وأخوه وأولاده ويتفرجون في أرض دمشق وموطن الظباء وكأنه وجد راحة مما كان فيه من ملازمة التعب وسهر الليل ونصب النهار وما كان ذلك الا كالوداع لاولاده ومرابع تنزهه وهو لا يشعر ونسي عزمه المصري وعرضت له أمور أخرى وعزمات غير ذلك ووصلني كتابه الى القدس يستدعيني الى خدمته وكان شتاء شديد ووحل عظيم فخرجت من القدس الشريف في يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة تسع وثمانين وكان الوصول الى دمشق يوم الثلاثاء ثاني عشر صفر سنة تسع وكان وصل أوائل الحج على طريق دمشق واتفق حضوري والملك الافضل حاضر في الايوان الشمالي وفي خدمته خلق من الامراء وأرباب المناصب ينتظرون جلوس السلطان لخدمته فلما شعر بحضوري استحضرني هو وحده قبل أن يدخل اليه أحد فدخلت عليه فقام ولقيني لقاء ما رأيت أشد من بشره بي فيه ولقد ضمني اليه ودمعت عينه

﴿ ذكر لقائه للحاج ﴾

ولما كان يوم الاربعاء ثالث عشر صفر طلبني فحضرت عنده فسألني عمن في الايوان فأخبرته ان الملك الافضل جالس في الخدمة والامراء والناس في خدمته فاعتذر اليهم على لسان جمال الدولة اقبال . ولما كانت بكرة الخميس استحضرني فحضرت عنده في صفة البستان وعنده أولاده الصغار فسأل عن الحاضرين فقيل له رسل الافرنج وجماعة الامراء والاكابر فاستحضر رسل الافرنج الى ذلك المكان فحضروا وكان له ولد صغير وكان كثيرا ما يميل اليه يسمى الامير وكان حاضرا وهو يداعبه فلما وقع بصره على الافرنج ورأى أشكالهم وحلق لحاهم وقص شعورهم وما عليهم من الثياب غير المألوفة خاف منهم وبكى فاعتذر اليهم وصرفهم بعد ان حضروا ولم يسمع كلامهم وقال ان لي اليوم شغلا وكان عادته المباسطه ثم قال احضروا لنا ما تيسر فأحضروا أرزا بلبن وما شابه ذلك من الاطعمة الخفيفة فأكل وكنت أظن أنه ما عنده شهوة وكان في هذه الايام يعتذر الي الناس لثقل الحركه عليه وكان بدنه ملتاثا ممتلئا وعنده

كسل فلما فرغنا من الطعام قال ما الذي عندك من خبر الحاج فقلت اجتمعت بجماعة منهم في الطريق ولولا كثرة الوحل لدخلوا اليوم ولكنهم غدا يدخلون فقال نخرج ان شاء الله الى لقائهم وتقدم بتنظيف طرقاتهم من المياه فانها سنة كثيرة الانداء وقد سالت المياه في الطرق والانهار وانفصلت من خدمته ولم أجد عنده من النشاط ما كنت أعرفه ثم ركب في بكرة الجمعة وتأخرت عنه قليلا ثم لقيته وقد لقي الحاج وكان فيهم سابق الدين وقرالا الياروقي وكان كثير الاحترام للمشايخ فلقيهم ثم لحقه الملك الافضل وأخذ يحدثني فنظرت الى السلطان فلم أجد عليه كزاغنده وما كان له عادة يركب بدونه وكان يوماً عظيما قد اجتمع فيه للقاء السلطان والتفرج عليه معظم من في البلد فلم أجد الصبر دون أن سرت الى جانبه وحدثته في اهمال هذا فكأنه استيقظ فطلب الكزاغند فلم يوجد الزركاش فوجدت لذلك أمرا عظيما وقلت في نفسي السلطان يطلب ما لا بد منه في عادته ولا يجده ووقع في قلبي تطير بذلك فقلت له أليس ثم طريق نسلكه ليس فيه خلق كثير فقال بلى ثم سار بين البساتين فطلب جهة المنيع وسرنا في خدمته وقلبي يرعد لما قد وقع فيه من الخوف عليه فسار حتى أتى القلعة فعبر على الجسر الى القلعة وهو طريقه المعتاد وكانت آخر ركوبه

﴿ مرضه رحمة الله عليه ﴾

ولما كان ليلة السبت وجد كسلا عظيما فما انتصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية كانت في باطنه اكثر من ظاهره وأصبح في يوم السبت سادس عشر صفر سنة تسع وثمانين متكسلا عليه أثر الحمى ولم يظهر ذلك للناس لكن حضرت أنا والقاضي الفاضل ودخل ولده الملك الافضل وطال جلوسنا عنده وأخذ يشكو من قلقه في الليل وطاب له الحديث الى قريب الظهر ثم انصرفنا والقلوب عنده فتقدم الينا بالحضور على الطعام في خدمة الملك الافضل ولم يكن القاضي عادته ذلك فانصرف ودخلت أنا الى الايوان وقد مد الطعام والملك الافضل قد جلس في موضعه فانصرفت وما كان لي قوة على الجلوس استيحاشاً وبكي جماعة تفاؤلا بجلوس ولده في موضعه ثم

أخذ المرض في تزايد من حينئذ ونحن نلازم التردد طرفي النهار وندخل اليه أنا والقاضي الفاضل في النهار مرارًا و يعطي الطريق في بعض الايام التي يجد فيها خفة وكان مرضه في رأسه وكان من امارات انتهاء العمر اذ كان قد ألف مزاجه سفرًا وحضرا ورأى الاطباء فصده ففصدوه في الرابع فاشتد مرضه وقلت رطو بات بدنه وكان يغلب عليه اليبس غلبة عظيمة ولم يزل المرض يتزايد حتى انتهى الى غاية الضعف . ولقد جلسنا في سادس مرضه وأسندنا ظهره الى مخدة وأحضر ماء فاتر ليشر به عقيب شرب دواء لتليين الطبيعة فشر به فوجده شديد الحرارة فشكا من شدة حرارته وعرض عليه ماء ثان فشكا من برده ولم يغضب ولم يصخب ولم يقل سوى هذه الكلمات سبحان الله ألا يمكن أحدًا تعديل الماء فخرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتد بنا البكاء والقاضي الفاضل يقول لي أبصر هذه الاخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها والله لو ان هذا بعض الناس لضرب بالقدح رأس من أحضره واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن ولم يزل يتزايد و يغيب ذهنه ٭

ولما كان التاسع حدثت عليه غشية وامتنع من تناول المشروب فاشتد الخوف في البلد وخاف الناس ونقلوا الاقمشة من الاسواق وغشى الناس من الكآبة والحزن مالا يمكن حكايته ٭ ولقد كنت أنا والقاضى الفاضل نقعد كل ليلة الى ان يمضي من الليل ثلثه أو قريب منه ثم نحضر في باب الدار فان وجدنا طريقًا دخلنا وشاهدناه وانصرفنا والا عرفونا أحواله وكنا نجد الناس يترقبون خروجنا الي ان يلاقونا حتى يعرفوا أحواله من صفحات وجوهنا

ولما كان العاشر من مرضه حقن دفعتين وحصل من الحقن راحة وحصل بعض خفة وتناول من ماء الشعير مقدارًا صالحًا وفرح الناس فرحًا شديدًا فاقمنا على العادة الى ان مضى من الليل هزيع ثم أتينا الدار فوجدنا جمال الدولة اقبالاً فالتمسنا منه تعريف الحال المتجدد فدخل وأنفذ الينا مع الملك المعظم تورانشاه جبره الله تعالى ان العرق قد أخذ في ساقيه فشكرنا الله تعالى على ذلك والتمسنا منه ان يمس بقية قدمه

ويخبرنا بحاله في العرق فنفقده ثم خرج الينا وذكر ان العرق سابغ وانصرفنا طيبة قلوبنا ثم أصبحنا في الحادي عشر من مرضه وهو السادس والعشرون من صفر فحضرنا بالباب وسألنا عن الاحوال فأخبرنا بان العرق أفرط حتى نفذ في الفراش ثم في الحصر وتأثرت به الارض وان اليبس قد تزايد تزايدًا عظيماً وحارت في القوة الاطباء

﴿ ذكر تحليف الافضل ﴾

ولما رأى الملك الافضل ما حل بوالده وتحقق الناس موته تسرع في تحليف الناس في دار رضوان المعروفة بسكناه واستحضر القضاة وعمل له نسخة يمين مختصرة محصلة للمقاصد تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته وله بعد وفاته واعتذر الى الناس بان المرض قد اشتد وما يعلم ما يكون وما يفعل هذا الا احتياطاً على جاري عادة الملوك فاول من استحضر للحلف سعد الدين أخو بدر الدين مودود الشحنة فبادر الى اليمين من غير شرط ثم حضر ناصر الدين صاحب صهيون وزاد ان الحصن الذي في يده له وحضر سابق الدين صاحب شيزر فحلف ولم يذكر الطلاق واعتذر بانه ما حلف به . ثم حضر خشتر بن حسين الهكاري وحلف . وحضر أنوشروان الزرزاري وحلف واشترط ان يكون له خبز يرضيه . وحضر علكان وملكان وحلفا ثم مد الخوان وحضر الجماعة وأكلوا *

ولما كان العصر أعيد المجلس للتحليف وحضر ميمون القصري رحمه الله وشمس الدين الكبير وقال نحن نحلف بشرط ان لا نسل في وجه أحد من اخوتك سيفاً لكن رأسي دون بلادك . هذا قول ميمون القصري . وأما سنقر فانه امتنع ساعة ثم قال كنت حلفتني على النطرون وأنا عليها وحضر سامه وقال ليس لي خبز فقل لي على شيء أحلف فروجع فحلف وعلق يمينه بشرط أن يعطى خبزًا يرضيه . وحضر سنقر المشطوب وحلف واشترط أن يرضي وحضر أيبك الافطس رحمه الله واشترط رضاه . وحضر حسام الدين بشارة وحلف وكان مقدماً على هؤلاء ولم يحضر أحد من الامراء المصريين ولم يتعرض لهم بل حلف هؤلاء للتقرير . ونسخة اليمين المحلوف بها مضمونها

اني من وقتي هـذا صفيت نيتي .وأخلصت طويتي . للملك الناصر مدة حياته واني لا أزال باذلاً جهدي في الذب عن دولته بنفسي ومالي . وسيفي ورجالي . ممتثلاً أمره واقفاً عند مراضيه . ثم من بعده لولده الافضل عليّ ووريثه . ووالله انني في طاعته وأذب عن دولته وبلاده بنفسي ومالي وسيفي ورجالي . وامتثل أمره ونهيه وباطني وظاهري في ذلك سواء والله على ما أقول وكيل *

﴿ ذكر وفاته رحمه الله وقدس روحه ﴾

ولما كانت ليلة الاربعاء السابع والعشرين من صفر وهي الثانية عشرة من مرضه اشتد مرضه وضعفت قوته ووقع من الامر في أوله وحال بيننا وبينه النساء واستحضرت أنا والقاضي الفاضل تلك الليلة وابن الزكيّ ولم يكن عادته الحضور في ذلك الوقت وحضر بيننا الملك الافضل وأمر أن نبيت عنده فلم ير القاضي الفاضل ذلك رأياًفان الناس بعضهم بعضاً فرأى المصلحة في نزولنا واستحضار الشيخ أبي جعفر امام الكلاسة وهو رجل صالح ليبيت بالقلعة حتى اذا احتضر رحمه الله بالليل حضر عنده وحال بينه وبين النساء وذكره الشهادة وذكره الله تعالى ففعل ذلك ونزلنا وكل منا يود فداءه بنفسه وبات في تلك الليلة على حال المنتقلين الى الله تعالى والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ويذكره الله تعالى وكان ذهنه غائباً من ليلة التاسع لا يكاد يفيق الا في أحيان . وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى الى قوله تعالى هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة سمعه وهو يقول رحمة الله عليه صحيح وهذه يقظة في وقت الحاجة وعناية الله تعالى به فلله الحمد على ذلك *

وكانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم الاربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح في وقت وفاته ووصلت وقد مات وانتقل الى رضوان الله ومحل كرمه وجزيل ثوابه * ولقد حكي لي أنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر الى قوله تعالى لا اله الا هو عليه توكلت تبسم وتهلل وجهه وسلمها الى ربه * وكان يوماً لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين وغشي

القلعة والبلد والدنيا من الوحشة مالا يعلمه الا الله تعالى . وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس انهم يتمنون فيداءه بنفوسهم وما سمعت هذا الحديث الا على ضرب من التجوز والترخص الا في ذلك اليوم فاني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدى بالنفس *

ثم جلس ولده الملك الافضل للعزاء في الايوان الشمالي وحفظ باب القلعة الا عن الخواص والامراء والمعممين وكان يوماً عظيما وقد شغل كل انسان ماعنده من الحزن والاسف والبكاء والاستغاثة من ان ينظر الى غيره وحفظ المجلس عن أن ينشد فيه شاعر أو يتكلم فيه فاضل وواعظ . وكان أولاده يخرجون مستغيثين الى الناس فتكاد النفوس تزهق لهول منظرهم ودام الحال على هذا الى ما بعد صلاة الظهر . ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه فما أمكننا أن ندخل في تجهيزه ماقيمته حبة واحدة الا بالقرض حتى في ثمن التبن الذي يلت به الطين وغسله الدولعي الفقيه ونهضت الى الوقوف على غسله ولم تكن لي قوة تحمل ذلك المنظر وأخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجى بثوب فوط . وكان ذلك وجميع ما احتاج اليه من الثياب في تكفينه قد أحضره القاضي الفاضل من وجه حل عرفه وارتفعت الاصوات عند مشاهدته وعظم من الضجيج والعويل ما شغلهم عن الصلاة فصلى عليه الناس ارسالا وكان أول من أم بالناس القاضي محيي الدين ابن الزكي ثم أعيد الى الدار التي في البستان وكان متمرضاً بها ودفن في الصفة الغربية منها . وكان نزوله في حفرته قدس الله روحه ونور ضريحه قريباً من صلاة العصر ثم نزل في أثناء النهار ولده الملك الظافر وعزى الناس فيه وسكن قلوب الناس وكان الناس قد شغلهم البكاء عن الاشتغال بالنهب والفساد فما وجد قلب الا حزين ولا عين الا باكية الا من شاء الله . ثم رجع الناس الى بيوتهم أقبح رجوع ولم يعد أحد منهم في تلك الليلة الا نحن حضرنا وقرأنا وجددنا حالا من الحزن *

واشتغل في ذلك اليوم الملك الافضل بكتابة الكتب الى عمه واخوته يخبرهم بهذا الحادث . وفي اليوم الثاني جلس للعزاء جلوساً عاماً وأطلق باب القلعة للفقهاء والعلماء وتكلم المتكلمون ولم ينشد شاعر ثم انفض المجلس في ظهر ذلك اليوم واستمر

الحال في حضور الناس بكرة وعشية وقراءة القرآن والدعاء له رحمة الله عليه واشتغل الملك الافضل بتدبير أمره ومراسلة اخوته وعمه

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

تم بعون الله والحمد لله رب العالمين والصلاة
والسلام على سيدنا محمد وآله
وصحبه أجمعين وسلام على
المرسلين والحمد لله
رب العالمين

متتخبات

من كتاب التاريخ لصاحب حماه تأليف تاج الدين شاهنشاه بن أيوب رحمه الله تتعلق بسيرة السلطان صلاح الدين الايوبي رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر قتل الصالح بن رزبك

وفي سنة ست وخمسين وخمسمائة في رمضان قتل الملك الصالح أبو الغارات طلائع ابن رزبك الارمني وزير العاضد العلوي جهزت عليه عمة العاضد من قتله وهو داخل في القصر بالسكاكين ولم يمت في تلك الساعة بل حمل الى بيتـه وأرسل يعتب على العاضد فأرسل العاضد اليه يحلف له أنه لم يرض ولا علم بذلك وأمسك العاضد عمته وأرسلها الى طلائع فقتلها وسأل العاضد أن يولي ابنه رزبك الوزارة ولقب العادل ومات طلائع واستقر ابنه العادل رزبك في الوزارة

ذكر ولاية شاور ثم الضرغام

وفي سنة ثمان وخمسين وخمسمائة في صفر وزر شاور للعاضد لدين الله العلوي وكان شاور يخدم الصالح طلائع بن رزبك فولاه الصعيد وكانت ولاية الصعيد أكبر المناصب بعد الوزارة . ولما جرح الصالح أوصى ابنه العادل أن لا يغير على شاور شيئاً لعلمه بقوة شاور ولما تولى العادل بن الصالح الوزارة كتب الى شاور بالعزل فجمع شاور جموعه وسار نحو العادل الى القاهرة فهرب العادل وطرد وراءه شاور وأمسكه وقتله

وهو العادل رزبك بن الصالح طلائع بن رزبك وانقرضت بقتله دولة بني رزبك واستقر شاور في الوزارة وتلقب بأمير الجيوش وأخذ أموال بنى رزبك وودائعهم ثم ان الضرغام جمع جمعاً ونازع شاور في الوزارة في شهر رمضان فقوي على شاور فانهزم شاور الى الشام مستنجداً بنور الدين . ولما تمكن الضرغام من الوزارة قتل كثيراً من الامراء المصريين لتخلو له البلاد فضعفت الدولة بهذا السبب حتى خرجت البلاد من أيديهم

﴿ ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة ﴾

وفي هذه السنة سير نور الدين محمود بن زنكى عسكراً مقدمهم أسد الدين شيركوه ابن شاذي الى الديار المصرية ومعهم شاور وكان قد سار من مصر هارباً من الضرغام الوزير فلحق شاور بنور الدين واستنجده وبذل له ثلث أموال مصر بعد رزق جندها إن أعاده الى الوزارة فأرسل نور الدين شيركوه الى مصر فوصل اليها وهزم عسكر ضرغام عند قبر السيدة نفيسة وأعاد شاور الى وزارة العاضد العلوي ثم غدر شاور بنور الدين ولم يف له بشيء مما شرط فسار شيركوه واستولى على بلبيس والشرقية فأرسل شاور يستنجد الافرنج على اخراج أسد الدين شيركوه من البلاد فسار الافرنج واجتمع معهم شاور بعسكر مصر وحصروا شيركوه ببلبيس ودام الحصار ثلاثة أشهر وبلغ الافرنج حركة نور الدين وأخذه حارم فراسلوا شيركوه في الصلح وفتحوا له فخرج من بلبيس بمن معه من العسكر وسار بهم ووصلوا الى الشام سالمين

وفي هذه السنة في رمضان فتح نور الدين محمود حارم وأخذها من الافرنج بعد مصاف جرى بين نور الدين والافرنج انتصر فيه نور الدين وقتل وأسر عالماً كثيراً وكان من جملة الاسرى البرنس صاحب انطاكية والقومص صاحب طرابلس وغنم منهم المسلمون شيئاً كثيراً

وفي هذه السنة أيضاً في ذي الحجة سار نور الدين الى بانياس وفتحها وكانت بيد الافرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة الى هذه السنة . ثم دخلت سنة احدى

وستين وخمسمائة وفيها فتح نور الدين محمود حصن المنيطرة من الشام وكان بيد الافرنج

ثم دخلت سنة اثنين وستين وخمسمائة وفيها عاد أسد الدين شيركوه الى الديار المصرية وجهزه نور الدين بعسكر جيد عدتهم الف فارس فوصل الى ديار مصر واستولى على الجيزة وأرسل شاور الى الافرنج استنجدهم وجمعهم وساروا في أثر شيركوه الى جهة الصعيد والتقوا على بلد يقال له الابوان فانهزم الافرنج والمصريون واستولى شيركوه على بلاد الجيزة واستغلها ثم سار الى الاسكندرية وملكها وجعل فيها ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وعاد شيركوه الى جهة الصعيد فاجتمع عسكر مصر والافرنج وحصروا صلاح الدين بالاسكندرية مدة ثلاثة أشهر فسار شيركوه اليهم واتفقوا على الصلح على مال يحملونه الى شيركوه ويسلم اليهم الاسكندرية ويعود الى الشام فتسلم المصريون الاسكندرية في منتصف شوال من هذه السنة وسار شيركوه الى الشام فوصل الى دمشق في ثامن عشر ذي القعدة واستقر الصلح بين الافرنج والمصريين على أن يكون للافرنج بالقاهرة شحنة وتكون ابوابها بيد فرسانهم ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة الف دينار

وفي هذه السنة فتح نور الدين صافيثا والعريمة وفيها عصى غازي ابن حسان صاحب منبج على نور الدين بمنبج فسير اليه عسكرا أخذوا منه منبج ثم أقطع نور الدين منبج قطب الدين ينال بن حسان أخا غازي المذكور فبقي فيها الى ان أخذها منه صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة

ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة وفيها ملك نور الدين قلعة جعبر وأخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك بن سالم بن مالك بن بدران بن المقلد بن المسيب العقيلي وكانت بايديهم من أيام السلطان ملكشاه ولم يقدر نور الدين على أخذها الا بعد ان أسر صاحبها وأحضروه الى نور الدين واجتهد به على تسليمها فلم يفعل فأرسل عسكرا مقدمهم فخر الدين مسعود ابن أبي علي الزعفراني وأردفه بعسكر آخر مع مجد الدين أبي بكر المعروف بابن الداية وكان رضيع نور الدين وحصروا قلعة

جعبر فلم يظفروا منها بشيء وما زالوا على صاحبها مالك حتى سلمها وأخذ عنها عوضاً مدينة سروج باعمالها والملوح من بلد حلب وعشرين ألف دينار معجلة و باب بزاعة

﴿ ذكر ملك أسد الدين شيركوه مصر وقتل شاور ثم ملك ﴾
﴿ صلاح الدين وهو ابتداء الدولة الايوبية ﴾

وفي هذه السنة أعني سنة أربع وستين وخمسمائة في ربيع الاول سار أسد الدين شيركوه ابن شاذي الى ديار مصر ومعه العساكر النورية . وسبب ذلك تمكن الافرنج من البلاد المصرية وتحكمهم على المسلمين بها حتى ملكوا بلبيس قهراً في مستهل صفر من هذه السنة ونهبوها وقتلوا أهلها وأسروهم ثم ساروا من بلبيس ونزلوا على القاهرة عاشر صفر وحصروها فأحرق شاور مدينة مصر خوفاً من ان يملكها الافرنج وأمر أهلها بالانتقال الى القاهرة فبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوماً فأرسل العاضد الى نور الدين يستغيث به وصانع شاور الافرنج على الف الف دينار يحملها اليهم فحمل اليهم مائة الف دينار وسألهم أن يرحلوا عن القاهرة ليقدر على جمع المال وتحصيله فرحلوا وجهز نور الدين العسكر مع شيركوه وأنفق فيهم المال وأعطى شيركوه مائتي الف دينار سوى الثياب والدواب والاسلحة وأرسل معه عدة أمراء منهم ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن ايوب على كره منه . أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب الملك من بيته . وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه . وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . ولما قارب شيركوه مصر رحل الافرنج من ديار مصر على أعقابهم الى بلادهم فكان هذا لمصر فتحاً جديداً ووصل أسد الدين شيركوه الى القاهرة في رابع ربيع الآخر واجتمع بالعاضد وخلع عليه وعاد الى خيامه بالخلعة العاضدية وأجرى عليه وعلى عسكره النفقة الوافرة وشرع شاور يماطل شيركوه فيما كان بذله لنور الدين من تقرير المال وافراد ثلث البلاد ومع ذلك فكان شاور يركب كل يوم الى أسد الدين شيركوه ويعده ويمنيه وما يعدهم الشيطان الا غروراً . ثم ان شاور عزم على أن يعمل دعوة لشيركوه وأمرائه

ويقبض عليهم فمنعه ابنه الكامل بن شاور من ذلك . ولما رأى عسكر نور الدين من شاور ذلك عزموا على الفتك بشاور واتفق على ذلك صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك وغيرهما وعرفوا شيركوه بذلك فنهاهم عنه واتفق ان شاور قصد شيركوه على عادته فلم يجده في المخيم وكان قد مضى لزيارة قبر الشافعي رضي الله عنه فلقي صلاح الدين وجرديك شاور وأعلماه برواح شيركوه الى زيارة الشافعي وساروا جميعاً الى شيركوه فوثب صلاح الدين وجرديك على شاور وألقياه الى الارض عن فرسه وأمسكاه في سابع ربيع الآخر من هذه السنة فهرب أصحابه عنه وأرسلا أعلما شيركوه بما فعلاه فحضر ولم يمكنه الا اتمام ذلك وسمع العاضد الخبر فأرسل الى شيركوه يطلب منه انفاذ رأس شاور فقتله وأرسل رأسه الى العاضد ودخل بعد ذلك القصر عند العاضد فخلع عليه خلعة الوزارة ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش وسار بالخلع الى دار الوزارة وهي التي كان فيها شاور واستقر في الامر وكتب له منشوراً أوله بعد البسملة «من عبد الله ووليه أبي محمد الامام العاضد لدين الله أمير المؤمنين الى السيد الاجل الملك المنصور سلطان الجيوش وليّ الأئمة مجير الامة . أسد الدين أبي الحارث شيركوه العاضدي عضد الله به الدين . وأمتع الله بطول بقائه أمير المؤمنين . وأدام قدرته . وأعلى كلمته . سلام عليك . انا نحمد اليك الله الذي لا اله الا هو ونسأله أن يصلي على محمد وآله الطاهرين . والائمة المهديين ويسلم تسليما» ثم ذكر تفويض أمور الخلافة اليه ووصايا أضربنا عنها للاختصار . وكتب العاضد بخطه على ظهر المنشور «هذا عهد لم يعهد لوزير بمثله فتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلا لحملها فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة . واسحب ذيل الافتخار بأن اعتزت خدمتك الى النبوّة» ومدحت الشعراء أسد الدين ووصل اليه من الشام مديح العماد الكاتب قصيدة أولها

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب ... كم راحة جنيت من دوحة التعب
ياشيركوه بن شاذي الملك دعوة من ... نادى فعرّف خير ابن بخير أب
جرى الملوك وما حازوا بركضهم ... من المدى في العلا ماحزت بالخبب
ملكت من ملك مصر رتبة قصرت ... عنها الملوك فطالت سائر الرتب

قد أمكنت أسد الدين العزيمة من فتح البلاد فبادر نحوها وثب

وفي شيركوه وقتله شاور يقول عرقلة الدمشقي

لقد فاز بالملك العظيم خليفة له شيركوه العاضدي وزير

هو الاسد الضاري الذي جل خطبه وشاور كلب للرجال عقور

بغى وطغى حتى لقد قال صحبه على مثلها كان اللعين يدور

فلا رحم الرحمن تربة قبره ولا زال فيه منكر ونكير

فأما الكامل ابن شاور لما قتل أبوه فقد دخل القصر فكان آخر العهد به ·
ولما لم يبق لاسد الدين شيركوه منازع أتاه أجله حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة وتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادي الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام · وكان شيركوه وأيوب ابنا شاذي من بلد دوين قال ابن الاثير وأصلهما من الاكراد الروادية فقصد العراق وخدما بهروز شحنة السلجوقية ببغداد وكان أيوب اكبر من شيركوه فجعله بهروز مستحفظاً قلعة تكريت ولما انكسر عماد الدين زنكي من عسكر الخليفة ومر على تكريت خدمه أيوب وشيركوه ثم ان شيركوه قتل انساناً بتكريت فأخرجهما بهروز من تكريت فلحقا بخدمة عماد الدين زنكي فأحسن اليهما وأعطاهما اقطاعات جيلة · ولما ملك قلعة بعلبك جعل أيوب مستحفظاً لها ولما حاصر عسكر دمشق بعلبك بعد موت زنكي سلمها أيوب لهم على اقطاع كثيرة شرطوها له وبقي أيوب من اكبر أمراء عسكر دمشق وبقي شيركوه مع نور الدين محمود بعد موت أبيه زنكي وأقطعه نور الدين حمص والرحبة لما رأى من شجاعته وزاده عليها وجعله مقدم عسكره فلما أراد نور الدين ملك دمشق أمر شيركوه فكاتب أخاه أيوب فساعد أيوب نور الدين على ملك دمشق وبقيا مع نور الدين الى أن أرسل شيركوه الى مصر مرة بعد أخرى حتى ملكها وتوفي في هذه السنة على ما ذكرناه

ولما توفي شيركوه كان معه صلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب بن شاذي وكان قد سار معه على كره · قال صلاح الدين أمرني نور الدين بالمسير مع عمي

شيركوه بحضرته يا يوسف تجهز للمسير فقلت والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت اليها فلقد قاسيت بالاسكندرية ما لا أنساه أبدا فقال لنور الدين لا بد من مسيره معي فأمرني نور الدين وأنا استقيل فقال نور الدين لا بد من مسيرك مع عمك فشكوت الضائقة فأعطاني ما تجهزت به فكانما أساق الى الموت ولما مات شيركوه طلب جماعة من الامراء النورية التقدم على العسكر وولاية الوزارة العاضدية منهم عين الدولة الياروقي وقطب الدين ينال المنبجي وسيف الدين على بن احمد المشطوب الهكاري وشهاب الدين محمود الحاوي وهو خال صلاح الدين فأرسل العاضد أحضر صلاح الدين وولاه الوزارة ولقبه بالملك الناصر فلم تطعه الامراء المذكورون وكان مع صلاح الدين الفقيه عيسى الهكاري فسعي الى المسطوب حتى أماله الى صلاح الدين ثم قصد الحارمي وقال هذا ابن اختك وعزه وملكه لك فمال اليه أيضاً ثم فعل بالباقين كذلك فكلهم أطاع غير عين الدولة الياروقي فانه قال أنا لا أخدم يوسف وعاد الى نور الدين بالشام وثبت قدم صلاح الدين على أنه نائب نور الدين وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالامير الاسفهسلار ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيماً عن أن يكتب اسمه وكان لا يفرده بكتاب بل الى الامير صلاح الدين وكافة الامراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أباه أيوب وأهله فأرسلهم اليه نور الدين فأعطاهم صلاح الدين الاقطاعات بمصر وتمكن من البلاد وضعف أمر العاضد ولما فوض الامر الى صلاح الدين تاب عن شرب الخمر وأعرض عن أسباب اللهو وتقمص لباس الجد ودام على ذلك الى ان توفاه الله تعالى . قال ابن الاثير مؤلف كتاب الكامل رأيت كثيرًا ممن ابتدأ الملك ينتقل الى غير عقبه فان معاوية تغلب وملك فانتقل الملك الى بني مروان بعده ثم ملك السفاح من بني العباس فانتقل الملك الى عقب أخيه المنصور ثم السامانية أول من ابتدى بالملك نصر بن أحمد فانتقل الملك الى أخيه اسماعيل وعقبة ثم عماد الدولة بن بويه ملك فانتقل الملك الى عقب أخيه ركن الدولة ثم ملك طغريل السلجوقي فانتقل ملكه الى عقب أخيه ثم شيركوه ملك فانتقل الملك الى أخيه

ولما قام صلاح الدين بالملك لم يبق الملك في عقبه بل انتقل الى أخيه العادل وعقبه ولم يبق لاولاد صلاح الدين غير حلب وكان سبب ذلك كثرة قتل من يتولى ذلك اولا وأخذ الملوك وعيون أهله وقلوبهم متعلقة به فيحرم عقبة ذلك *

ولما استقر قدم صلاح الدين في الوزارة قتل موئتمن الخلافة وكان مقدم السودان فاجتمعت السودان فهم حفاظ القصر في عدد كثير وكان بينهم وبين صلاح الدين وعسكره وقعة عظيمة بين القصر ين انهزم فيها السودان وقتل منهم خلق كثير وتبعهم صلاح الدين فأخلاهم قتلا وتهجيجاً وتهيجاً وحكم صلاح الدين على القصر وأقام فيه بهاء الدين قراقوش الاسدي وكان خصيا أبيض وبقي لا يجرى في القصر صغيرة ولا كبيرة الاّ بأمر صلاح الدين *

ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة فيها سارت الافرنج الى دمياط وحصروها وشحنها صلاح الدين بالرجال والسلاح والذخائر وأخرج على ذلك أموالاً عظيمة فحصروها خمسين يوماً وخرج نور الدين فأغار على بلادهم بالشام فرحلوا عائدين على أعقابهم ولم يظفروا بشيء منها * قال صلاح الدين ما رأيت أكرم من العاضد ارسل اليّ مدة اقامة الافرنج على دمياط الف الف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها *

وفيها سار نور الدين وحاصر الكرك مرة ثم رحل عنه * وفيها كانت زلزلة عظيمة خربت الشام فقام نور الدين في عمارة الاسوار وحفظ البلاد أتم قيام وكذلك خربت بلاد الافرنج فخافوا من نور الدين واشتغل كل منهم عن قصد الآخر بعمارة ما خربت من بلادهم *

وفيها في ذي الحجة مات قطب الدين مودود بن زنكي بن اقسنقر صاحب الموصل وكان مرضه حمى حادة * ولما مات صرف أرباب الدولة الملك عن ابنه الاكبر عماد الدين زنكي بن مودود الى أخيه الذي هو أصغر منه وهو سيف الدين غازى بن مودود فسار عماد الدين زنكي الى عمه نور الدين مستنصراً به . وتوفي قطب الدين وعمره أربعون سنة تقريباً وكانت مدة ملكه احدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفاً وكان من أحسن الملوك سيرة

وفي سنة ست وستين سار نور الدين محمود بن زنكي الى الموصل وهي بيد أخيه غازى بن مودود بن عماد الدين زنكي بن اقسنقر فاستولى عليها نور الدين وملكها * ولما ملك نور الدين الموصل قرر أمرها وأطلق المكوس منها ثم وهبها لابن أخيه سيف الدين غازي وأعطي سنجار لعماد الدين وهو أكبر من أخيه فقال كمال الدين الشهرزوري هذا طريق الى أذى يحصل للبيت الاتابكي لان عماد الدين كبير لا يرى طاعة أخيه سيف الدين وسيف الدين هو الملك لا يرى الاغضاء لعماد الدين فيحصل الخلف وتطمع الاعداء *

وفي هذه السنة سار صلاح الدين عن مصر فغزا بلاد الافرنج قرب عسقلان والرملة وعاد الى مصر ثم خرج الى أيلة وحصرها وهي للافرنج على ساحل البحر الشرقي ونقل اليهـا المراكب وحصرها برًا وبحرًا وفتحها في العشر الاول من ربيع الآخر واستباح أهلها وما فيها وعاد الى مصر ولما استقر صلاح الدين بمصر كان بمصر دار الشحنة تسمى دار المعونة يحبس فيها فهدمها صلاح الدين وبناها مدرسـة للشافعية * وكذلك دار العدل مدرسة للشافعية وعزل قضاة المصريين وكانوا شيعا ورتب قضاة شافعية وذلك في العشرين من جمادى الآخرة * وكذلك اشترى تقي الدين عمر بن أخي صلاح الدين منازل العز وبناها مدرسة للشافعية

﴿ ذكر اقامة الخطابة العباسية بمصر وانقراض الدولة العلوية ﴾

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة وفيها ثاني جمعة من المحرم قطعت خطبة العاضد لدين الله . وكان سبب الخطبة العباسية بمصر انه لما تمكن صلاح الدين بمصر وحكم على القصر وأقام فيه قراقوش الاسدي وكان خصيا أبيض وبلغ نور الدين ذلك أرسل الى صلاح الدين حتما جزما بقطع الخطبة العلوية واقامة الخطابة العباسية فراجعه صلاح الدين في ذلك خوف الفتنة فلم يلتفت نور الدين الى ذلك وأصرّ عليه وكان العاضد قـد مرض فأمر صلاح الدين الخطباء أن يخطبوا للمستضيء ويقطعوا خطبة العاضد فامتثلوا ذلك ولم ينتطح فيها عنزان وكان العاضد قد اشتدمرضه فلم يعلمه أحد

من أهله بقطع خطبته وتوفي العاضد يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع خطبته

ولما توفي العاضد جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه وكانت كثرته تخرج عن الاحصاء وكان فيه أشياء نفيسة من الأعلاق الثمينة والكتب والتحف ٭ فمن ذلك الجبل الياقوت وكان وزنه سبعة عشر درهماً أو سبعة عشر مثقالا قال ابن الأثير مؤلف الكامل أنا رأيته ووزنته . ومما حكي انه كان بالقصر طبل للقولنج اذا ضرب الانسان به ضرط فكسر ولم يعلموا به الا بعد ذلك ونقل صلاح الدين أهل العاضد الى موضع من القصر ووكل بهم من يحفظهم وأخرج جميع من فيه من عبد وأمة فباع البعض وأعتق البعض ووهب البعض وخلا القصر من سكانه وكأن لم تغن بالامس . ولما اشتد مرض العاضد أرسل الى صلاح الدين يستدعيه فظن ذلك خديعة ولم يمض اليه فلما توفي علم صدقه فندم لتخلفه عنه وجميع من خطب له منهم أربعة عشر خليفه المهدي . والقائم . والمنصور . والمعز . والعزيز . والحاكم . والظاهر . والمستنصر والمستعلي . والآمر . والحافظ . والظافر . والفائز . والعاضد . وجميع مدة خلافتهم من حين ظهر المهدي بسلجماسة في ذي الحجة سنة ست وتسعين ومائتين الى أن توفي العاضد في هذه السنة أعني سنة سبع وستين وخمسمائة مائتان واثنتان وسبعون سنة تقريباً . وهذا دأب الدنيا لم تعط الا واستردت ولم تحل الا وتمرزت . ولم تصف الا وتكدرت . بل صفوها لم يخل من الكدر

ولما وصل خبر الخطبة العباسية بمصر الى بغداد ضربت لها البشائر عدة أيام وسيرت الخلع مع عماد الدين صندل وهو من خواص الخدم الى نور الدين وصلاح الدين والخطباء وسيرت الاعلام السود . وكان العاضد المذكور قد رأى في منامه أن عقرباً خرجت من مسجد بمصر معروف ذلك المسجد للعاضد ولدغته فاستيقظ العاضد مرعوباً واستدعى من يعبر الرؤيا وقص ماراه عليه فعبر له بوصول أذى اليه من شخص بذلك المسجد فتقدم العاضد الى والي مصر باحضار من بذلك المسجد فأحضر اليه شخصاً صوفياً يقال له نجم الدين الخبوشاني فاستخبره العاضد عن مقدمه وسبب مقامه بالمسجد المذكور فأخبره بالصحيح في ذلك ورآه العاضد أضعف من أن يناله بمكروه فوصله

بمال وقال له ادع لنا يا شيخ وأمره بالانصراف فلما أراد السلطان صلاح الدين ازالة الدولة العلوية والقبض عليهم استفتى في ذلك فأفتاه بذلك جماعة من الفقهاء وكان نجم الدين الخوبشاني المذكور من جملتهم فبالغ في الفتيا وصرح في خطه بتعديد مساويهم وسلب عنهم الايمان وأطال الكلام في ذلك فصح بذلك رؤيا العاضد

وفي هذه السنة جرى بين نور الدين وصلاح الدين الوحشة في الباطن . كان صلاح الدين سار ونازل الشوبك وهي للافرنج ثم رحل عنها خوفاً أن يأخذه فلا يبقى ما يعوق نور الدين عن قصد مصر فتركه ولم يفتحه لذلك وبلغ نور الدين فكتمه وتوحش باطنه لصلاح الدين * ولما استقر صلاح الدين بمصر جمع أقاربه وكبراء دولته وقال بلغني ان نور الدين يقصدنا فما الرأي فقال تقي الدين عمر ابن أخيه نقاتله ونصده وكان ذلك بحضرة أبيهم نجم الدين أيوب فأنكر على تقي الدين ذلك وقال أنا والدكم لو رأيت نور الدين نزلت وقبلت الارض بين يديه بل أكتب وقل لنور الدين انه لو جاءني من عندك انسان واحد وربط المنديل في عنقي وجرني اليك سارعت الى ذلك وانفضوا على ذلك ثم اجتمع أيوب بابنه صلاح الدين خلوة وقال له لو قصدنا نور الدين أنا كنت أول من يمنعه ويقاتله ولكن ان أظهرنا ذلك يترك نور الدين جميع ما هو فيه ويقصدنا ولا ندري ما يكون من ذلك واذا أظهرنا له الطاعة تمادى الوقت بما يحصل به الكفاية من عند الله فكان كما قال

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة وفي هذه السنه سارت طائفة من الترك من ديار مصر مع مملوك لتقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب اسمه قراقوش الى أفريقية ونزل على طرابلس الغرب فحاصرها مدة ثم فتحها واستولى عليها وملك كثيراً من بلاد أفريقية

وفيها سار نور الدين الى بلاد قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان واستولى على مرعش وبهسي ومرزبان وسيواس فأرسل اليه قليج أرسلان يستعطفه ويطلب الصلح فقال نور الدين لا أرضى الا بأن ترد ملطيه على ذي النون بن الراشمند وكان قليج أرسلان قد أخذها منه فبذل له سيواس فاصطلح معه نور الدين

فلما مات نور الدين عاد قليج أرسلان واستولى على سيواس وطرد ابن الراشمند

وفيها سار صلاح الدين من مصر الى الكرك وحصرها وكان قد واعدنور الدين أن يجتمعا على الكرك وسار نور الدين من دمشق حتى وصل الى الرقيم وهو بالقرب من الكرك فخاف صلاح الدين من الاجتماع بنور الدين فرحل عن الكرك عائداً الى مصر وأرسل تحفاً الى نور الدين واعتــذر بأن أباه أيوب مريض وخشي أن يموت فتذهب مصر فقبل نور الدين عذره في الظاهر وعلم المقصود

ولما وصل صلاح الدين الى مصر وجد أباه أيوب قد مات * وكان سبب موت نجم الدين أيوب بن شاذي المذكور أنه ركب بمصر فنفرت به فرسه فوقع وحمل الى قصره وبقي أياماً ومات في السابع والعشرين من ذي الحجة من هذه السنة وكان عاقلا حسن السيرة

﴿ ذكر ملك شمس الدين توران شاه بن أيوب اليمن ﴾

ثم دخلت ســنة تسع وستين وخمسمائة وكان صلاح الدين وأهله خائفين من نور الدين فاتفق رأيهم على تحصيل مملكة غير مصر بحيث ان قصدهم نور الدين قاتلوه فان هزمهم التجأوا الى تلك المملكة فجهز صلاح الدين أخاه توران شاه الى النوبة فلم تعجبهم بلادها ثم سيره في هذه السنة بعسكر الى اليمن وكان صاحب اليمن حينئذ انساناً يسمى عبد النبي المقدم الذكر في سنة أربع وخمسين وخمسمائة فتجهز توران شاه ووصل الى اليمن وجرى بينــه و بين عبد النبي قتال فانتصر فيه توران شاه وهزم عبد النبي وهجم زبيد وملكها وأسر عبد النبي ثم قصد عدن وكان صاحبها اسمه ياسر فخرج لقتال توران شاه فهزمه توران شاه فهجم عدن وملكها وأسر ياسر أيضاً واستولى توران شاه على بلاد اليمن واستقرت في ملك صلاح الدين واستولى على أموال عظيمة لعبد النبي وكذلك من عدن

﴿ ذكر قتل جماعة من المصريين وعمارة اليمني ﴾

في هذه السنة في رمضان صلب صلاح الدين جماعة من أعيان المصريين فانهم

قصدوا الوثوب عليه واعادة الدولة العلوية فعلم بهم وصلبهم عن آخرهم . فمنهم عبد الصمد الكاتب . والقاضي العويرس . وداعي الدعاة . وعمارة بن عليّ اليمني الشاعر الفقيه . وله أشعار حسنة فمنها ممـا يتعلق بأحوال العلويين وانقراض دولتهم قوله قصيدة منها

رميت يادهر كف المجد بالشلل   وجيده بعد حسن الحلي بالعطل

جدعت مارنك الاقني فأنفك لا   ينفك مابين أهل الشين والخجل

مررت بالقصر والاركان خالية   من الوفود وكانت قبلة القبل

وفي هذه السنة توفي الملك العـادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بن اقسنقر صاحب الشام وديار الجزيرة وغير ذلك يوم الاربعاء حادي عشر شوال بعلة الخوانيق بقلعة دمشق المحروسة وكان نور الدين شرع يتجهز للدخول الى مصر لاخذها من صلاح الدين وكان يريد أن يخلي ابن أخيـه سيف الدين غازي بن مودود في الشام قبالة الافرنج ويسير هو بنفسه الى مصر فأتاه أمر الله الذي لامرد له وكان نور الدين أسمر طويل القامة ليس له لحيـة الا في حنكه حسن الصورة وكان قد اتسع ملكه جدًا وخطب له بالحرمين واليمن لما ملكها توران شاه بن أيوب وكذلك كان يخطب له بمصر وكـان مولد نور الدين سنة احدى عشرة وخمسمائة وطبق ذكره الارض حسن سيرته وعدله * وكان من الزهد والعبادة على قدم عظيم وكان يصلي كثيرًا من الليل فكان كما قيل

جمع الشجاعة والخشوع لربه   ما أحسن المحراب في المحراب

وكان عارفًا بالفقه على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه وليس عنده فيه تعصب وهو الذي بنى أسوار مدن الشام منها دمشق وحمص وحماه وحلب وشيزر وبعلبك وغيرها لما تهدمت بالزلازل و بني المدارس الكثيرة الحنفية والشافعية ولايحتمل هذا المختصر ذكر فضائله *

ولما توفي نور الدين قام ابنه الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين بالملك بعده وعمره احدى عشرة سنة وحلف له العسكر بدمشق وأقام بها وأطاعه صلاح الدين بمصر

وخطب له بها وضربت السكة باسمه وكان المتولي لتدبير الملك الصالح وتدبير دولته الامير شمس الدين محمد المعروف بابن المقدم *

ولما مات نور الدين وملك ابنه الملك الصالح سار من الموصل سيف الدين غازي ابن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي وملك جميع البلاد الجزرية *

﴿ ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر ﴾

ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة وفي أول هذه السنة اجتمع على رجل من أهل الصعيد يقال له الكنز جمع كثير وأظهروا الخلاف على صلاح الدين فأرسل صلاح الدين اليه عسكرًا فاقتتلوا وقتل الكنز وجماعة معه وانهزم الباقون *

﴿ ذكر ملك صلاح الدين دمشق وغيرها ﴾

في هذه السنة سلخ ربيع الاول ملك صلاح الدين بن أيوب دمشق وحمص وحماه * وسببه أن شمس الدين ابن الداية المقيم بحلب أرسل سعد الدين كمشتكين يستدعي الملك الصالح بن نور الدين من دمشق الى حلب ليكون مقامه بها فسار الملك الصالح الى حلب مع سعد الدين كمشتكين ولما استقر بحلب وتمكن كمشتكين قبض على شمس الدين ابن الداية واخوته وقبض على الرئيس بن الخشاب واخوته وهو رئيس حلب واستبد سعد الدين بتدبير الملك الصالح فخافه ابن المقدم وغيره من الامراء الذين بدمشق فكاتبوا صلاح الدين واستدعوه ليملكوه عليهم فسير جريدة في سبعمائة فارس ولم يلبث ان وصل دمشق فخرج كل من كان بها من العسكر والتقوه وخدموه ونزل بدار أبيه أيوب المعروفة بدار العقيقي وعصت عليه القلعة وكان فيها من جهة الملك الصالح خادم اسمه ريحان فراسله صلاح الدين واستماله فسلم القلعة اليه فصعد اليهم صلاح الدين وأخذ مافيها من الاموال *

ولما ثبت قدمه وقرر أمر دمشق استخلف فيها أخاه سيف الاسلام طغتكين بن أيوب وسار الى حمص مستهل جمادي الاولى وكانت حمص وحماة وقلعة بارين وسلمية وتل خالد والرها من بلاد الجزيرة في اقطاع فخر الدين ابن الزعفراني فلما مات نور

الدين لم يمكن فخر الدين مسعود المقام بحمص وحماة لسوء سيرته مع الناس وكانت هذه البلاد له بغير قلاعها فان قلاعها فيها ولاة لنور الدين وليس لفخر الدين معهم في القلاع حكم الا بارين فان قلعتها كانت له أيضاً ونزل صلاح الدين على حمص في حادي عشر جمادي الاولي وملك المدينة وعصت عليه القلعة فترك عليها من يضيق عليها ورحل الى حماة فملك مدينتها مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة وكان بقلعتها الامير عز الدين جرديك أحد المماليك النورية فامتنع في القلعة فذكر له صلاح الدين انه ليس له غرض الا حفظ بلاد الملك الصالح عليه وانما هو نائبه وقصده من جرديك المسير الى حلب في رسالة فاستحلفه جرديك على ذلك وسار جرديك الى حلب برسالة صلاح الدين واستخلف في قلعة حماة أخاه فلما وصل جرديك الى حلب قبض عليه كمشتكين وسجنه فلما علم أخوه بذلك سلم القلعة الى صلاح الدين فملكها ثم سار صلاح الدين الى حلب وحصرها وبها الملك الصالح فجمع أهل حلب وأرسل سعد الدين كمشتكين الى سنان مقدم الاسماعيلية أموالا عظيمة ليقتلوا صلاح الدين فأرسل سنان جماعة فوثبوا على صلاح الدين فقتلوا دونه واستمر صلاح الدين محاصراً لحلب الى مستهل رجب ورحل عنها بسبب نزول الافرنج على حمص ونزل صلاح الدين على حماة ٨ من رجب وسار الى حمص فرحل الافرنج عنها ووصل صلاح الدين الى حمص وحصر قلعتها وملكها في الحادي والعشرين من شعبان من هذه السنة ثم سار الى بعلبك فملكها * ولما استقر ملك صلاح الدين لهذه البلاد أرسل الملك الصالح الى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين فجهز جيشه صحبة أخيه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي وجعل مقدم الجيش اكبر أمرائه وهو عز الدين محمود ولقبه سلفندار وطلب أخاه الاكبر عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار ليسير في النجدة أيضاً فامتنع مصانعة لصلاح الدين فسار سيف الدين غازي وحصره بسنجار ووصل عسكر الموصل صحبة مسعود بن مودود وسلفندار الى حلب وانضم اليهم عسكر حلب وسار الى صلاح الدين فأرسل صلاح الدين يبذل حمص وحماه وان يقر بيده دمشق ويكون فيها نائباً للملك الصالح فلم يجيبوا الى ذلك وساروا

الى قتاله واقتتلوا عند قرون حماة فانهزم عسكر الموصل وحلب وغنم صلاح الدين وعسكره اموالهم وتبعهم صلاح الدين حتى حصرهم في حلب وقطع حينئذ خطبة الملك الصالح بن نور الدين وأزال اسمه عن السكة واستبد بالسلطنة فراسلوا صلاح الدين في الصلح على أن يكون له مابيده من الشام وللملك الصالح مابقي بيده منهم فصالحهم على ذلك ورحل عن حلب في العشر الاول من شوال من هذه السنة

وفي العشر الاخير من شوال ملك السلطان صلاح الدين قلعة بارين وأخذها من صاحبها فخر الدين مسعود ابن الزعفراني وكان فخر الدين المذكور من اكابر الامراء النورية *

﴿ ذكر انهزام سيف الدين غازي صاحب الموصل من السلطان صلاح الدين ﴾

ثم دخلت سنة احدى وسبعين وخمسمائة وفيها عاشر شوال كان المصاف بين السلطان صلاح الدين وبين سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي بتل السلطان فهرب سيف الدين والعساكر التي كانت معه فانه كان قد استنجد بصاحب حصن كيفا وصاحب ماردين وغيرهما وتمت على سيف الدين غازي الهزيمة حتى وصل الى الموصل مرعوباً وقصد المروب منها الى بعض القلاع فثبته وزيره وأقام بالموصل واستولى السلطان صلاح الدين على أثقال عسكر الموصل وغيرهم وغنم مافيها ثم سار الى نزابه وحصرها وتسلمها ثم سار الى منبج فحصرها في آخر شوال وكان صاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي شديد البغض لصلاح الدين وفتحها عنوة وأسر ينال وأخذ جميع موجوده ثم أطلقه فسار ينال الى الموصل فأقطعه سيف الدين غازي مدينة الرقة ثم سار السلطان صلاح الدين الى عزاز ونازلها ثالث ذي القعدة وتسلمها حادي عشر ذي الحجة فوثب الاسماعيلي على صلاح الدين في حصاره عزاز فضربه بسكين في رأسه فجرحه فأمسك صلاح الدين الاسماعيلي وبقي يضرب بالسكين فلا يؤثر حتى قتل الاسماعيلي على تلك الحال ووثب آخر عليه فقتل وثالث فقتل أيضاً ونجا السلطان

الى خيمته مذعوراً وعرض جنده وأبعد من أنكره منهم * ولما ملك السلطان عزاز رحل عنها ونازل حلب في منتصف ذي الحجة وحصرها و بها الملك الصالح وانقضت هذه السنة وهو محاصر لحلب فسألوه في الصلح فأجابهم اليه وأخرجوا اليه بنتاً صغيرة لنور الدين فأكرمها وأعطاها شيئاً كثيراً وقال لها ماتروميين فقالت أريد قلعة عزاز وكانوا قد علموها ذلك فسلمها السلطان اليهم واستقر الصلح ورحل السلطان من حلب في العشرين من محرم سنة اثنتين وسبعين *

وفي سنة احدى وسبعين في رمضان قدم شمس الدولة توران شاه بن أيوب من اليمن الى الشام وأرسل الى أخيه صلاح الدين يعلمه بوصوله *

ثم دخلت سنة اثنين وسبعين وخمسمائة وفيها قصد السلطان بلد الاسماعيلية في قلعة مصيات فأرسل سنان مقدم الاسماعيلية الى خال صلاح الدين وهو شهاب الدين الحارمي صاحب حماه يسأله أن يسعى في الصلح فسأل الحارمي الصفح عنهم فأجابه صلاح الدين الى ذلك وصالحهم ورحل عنهم وأتم السلطان صلاح الدين مسيره ووصل الى مصر فانه كان بعد عهده بها بعد ان استقر له ملك الشام * ولما وصل الى مصر في هذه السنة أمر ببناء السور الدائر على مصر والقاهرة والقلعة على جبل المقطم ودور ذلك تسعة وعشرون الف ذراع وثلاثمئة ذراع بالذراع القاسمي ولم يزل العمل فيه الى ان مات صلاح الدين *

وفي هذه السنة أمر صلاح الدين ببناء المدرسة التي على قبر الامام الشافعي رضي الله عنه بالقرافة بمصر وعمل بالقاهرة مارستان *

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة وفي جمادي الاولى منها سار السلطان من مصر الى الساحل لغزو الافرنج فوصل الى عسقلان في الرابع والعشرين من الشهر فنهب وتفرق عسكره في الاغارات وبقي السلطان في بعض العسكر فلم يشعر الا بالافرنج قد طلعت عليه فقاتلهم أشد قتال وكان لتقي الدين بن شاهنشاه ولد اسمه أحمد من أحسن الشباب أول ما تكاملت لحيته فأمره أبوه تقي الدين بالحملة فحمل عليهم وقاتلهم فأثر فيهم أثراً كبيراً وعاد سالماً فأمره أبوه بالعود اليهم ثانية فحمل عليهم فقتل

شهيدًا وتمت الهزيمة على المسلمين وقاربت حملات الافرنج السلطان فمضى منهزمًا الى مصر على البرية ومعه من سلم فلقوا في طريقهم مشقة وعطشًا شديدًا وهلك كثير من الدواب وأخذت الافرنج العسكر الذين كانوا يتفرقون في الاغارات أسرى وأسر الفقيه عيسى وكان من أكبر أصحاب السلطان فافتداه السلطان من الاسر بعد سنتين بستين الف دينار ووصل السلطان الى القاهرة نصف جمادي الآخرة * قال الشيخ عز الدين علي بن الاثير مؤلف الكامل رأيت كتابًا بخط يد صلاح الدين الى أخيه توران شاه نائبه بدمشق يذكر له الوقعة وفي أوله

« ذكرتك والخطيّ يخطر بيننا وقد نهلت منا المثقفة السمر »

ويقول فيه « لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما نجانا الله سبحانه الا لامر يريده سبحانه وتعالى »

وفي هذه السنة سار الفرنج وحصروا مدينة حماة في جمادي الاولى وطمع الافرنج بسبب بعد السلطان بمصر وهزيمته من الافرنج ولم يكن غير توران شاه بدمشق ينوب عن أخيه وليس عنده كثير من العسكر وكان توران شاه أيضًا كثير الانهماك في اللذات * مائلا الى الراحات * ولما حصروا حماة كان بها صاحبها شهاب الدين الحارمي خال السلطان وهو مريض واشتد حصار الافرنج لحماة وطال زحفهم عليها حتى انهم هجموا بعض أطراف المدينة وكادوا يملكون البلد قهرًا ثم جد المسلمون في القتال وأخرجوا الافرنج الى ظاهر السور وأقام الافرنج كذلك على حماة أربعة أيام ثم رحلوا عنها الى حارم وعقب رحيلهم عنها مات صاحبها شهاب الدين الحارمي وكان له ابن من أحسن الناس شبابًا مات قبله بثلاثة أيام

وفي هذه السنة قبض الملك الصالح ابن نور الدين صاحب حلب على سعد الدين كمشتكين وكان قد تغلب على الامر وكانت حارم لكمشتكين فأرسل الملك الصالح اليهم فلم يسلموها اليه فأمر كمشتكين أن يسلمها فأمرهم بذلك فلم يقبلوا منه فأمر بتعذيب كمشتكين ليسلموا القلعة فعذب وأصحابه يرونه ولا يرحمونه فمات من العذاب وأصر أصحابه على الامتناع ووصل الافرنج الى حارم بعد رحيلهم عن حماة وحصروا

حارم مدة أربعة أشهر فأرسل الملك الصالح مالا للافرنج وصالحهم فرحلوا عن حارم وقد بلغ أهله الجهد وبعد أن رحل الافرنج عنها أرسل الملك الصالح اليها واستناب بقلعة حارم مملوكاً لابيه اسمه سرخك *

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة وفي هذه السنة طلب توران شاه من أخيه السلطان بعلبك وكان السلطان قد أعطاها شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بالمقدم لما سلم دمشق الى صلاح الدين ولم يمكن صلاح الدين منع أخيه عن ذلك فأرسل الى ابن المقدم ليسلم بعلبك فعصى بها ولم يسلمها فأرسل السلطان وحصره ببعلبك وطال حصارها فأجاب ابن المقدم الى تسليمها على عوض فعوض عنها وتسلمها السلطان وأقطعها أخاه *

وفيها كان بالبلاد غلاء عام وتبعه وباء شديد * وفيها سير السلطان ابن أخيه تقي الدين عمر الى حماة وابن عمه محمد بن شيركوه الى حمص وأمرهما بحفظ بلادهما فاستقر كل منهما ببلده *

ثم دخلت سنة خمسة وسبعين وخمسمائة وفيها سار السلطان وفتح حصناً كان بناه الافرنج عند مخاضة الاحزان بالقرب من بانياس عند بيت يعقوب * وفيها كان حرب بين عسكر السلطان ومقدمهم تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن أيوب وبين عسكر قليج أرسلان صاحب الروم . وسببها ان حصن رعبان كان بيد شمس الدين بن المقدم فطمع فيه قليج وأرسل اليه عسكراً كثيراً ليحصروه وكانوا قريب عشرين ألفاً وسار اليهم تقي الدين في ألف فارس فهزمهم وكان تقي الدين يفتخر ويقول هزمت بألف عشرين ألفاً

﴿ ذكر وفاة المستضيء وخلافة الامام الناصر وهو رابع ثلاثينهم ﴾

في هذه السنة ثاني ذي القعدة توفي المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن وأمه أم ولد أرمنية وكانت خلافته تسع سنين وسبعة عشر يوماً وكان حسن السيرة وكان قد حكم في دولته ظهير الدين أبو بكر منصور المعروف بابن العطار بعد عضد الدين

الوزير فلما مات المستضيء قام ظهير الدين ابن العطار وأخذ البيعة لولده الامام الناصر لدين الله * ولما استقرت البيعة للامام الناصر حكم أستاذ الدار مجد الدين أبو الفضل وقبض في سابع ذي القعدة على ابن العطار ونقل الى التاج وأخرج ميتاً على رأس حمال ليلة الاربعاء ثاني عشر ذي القعدة فثارت به العامة وألقوه من على رأس الحمال وشدوا في ذكره حبلا وسحبوه في البلد وكانوا يضعون في يده مغرفــة يعني انها قلم وقد غمست تلك المغرفة في العذرة ويقولون وقع لنا يامولانا هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم وكفه عن أموالهم ثم خلص منهم ودفن

وفي هذه السنة في ذي القعدة نزل توران شاه أخو السلطان عن بعلبك فطلب عوضها الاسكندرية فأجابه السلطان الى ذلك وأقطع بعلبك لعز الدين فخر شاه بن شاهنشاه بن أيوب فسار اليها فخرشاه وسار شمس الدولة توران شاه الي الاسكندرية وأقام بها الى أن مات *

﴿ ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصل ﴾

ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة وفي هذه الســنة ثالث صفر توفي سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي بن اقسنقر صاحب الموصل والديار الجزرية وكان مرضه السل وطال وكان عمره نحو ثلاثين سنة وكانت ولايته عشر سنين ونحو ثلاثة أشهر وكان حسن الصورة مليح الشباب تام القامة أبيض اللون عاقلا عادلا عفيفاً شديد الغيرة لا يدخل بيته غير الخدم اذا كانوا صغارًا فاذا كبر أحدهم منعه وكان عفيفاً عن أموال الرعية مع شح كان فيه وأوصى بالمملكة بعده الى أخيه عز الدين مسعود بن مودود وأعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجار شاه فاستقر ذلك بعد موته حسبما قرره وكان مدبر الدولة والحاكم فيها مجاهد الدين قيماز *

وفي هذه السنة سار السلطان الى جهة قليج أرسلان صاحب بلاد الروم ووصل الى رعبان ثم اصطلحوا فقصد صلاح الدين بلاد ابن ليون الارمني وشن فيها الغارات فصالحه ابن ليون على مال حمله وأسرى أطلقها

وفيها توفي شمس الدولة توران شاه بن ايوب أخو صلاح الدين الاكبر بالاسكندرية وكان له معها اكثر بلاد اليمن ونوابه هناك يحملون اليه الاموال من زبيد وعدن وغيرهما وكان أجود الناس وأسخاهم كفاً يخرج كل ما يحمل اليه من أموال اليمن ودخل الاسكندرية ومع هذا فلما مات كان عليه نحو مئتي الف دينار مصرية فوفاها أخوه صلاح الدين عنه لما وصل مصر في هذه السنة في شعبان واستخلف بالشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك *

ثم دخل سنة سبع وسبعين وخمسمائة وفيها عزم البرنس صاحب الكرك على المسير الى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم للاستيلاء على تلك النواحي الشرقية وسمع ذلك عز الدين فرخشاه نائب عمه السلطان بدمشق فجمع جموعاً وقصد بلاد الكرك وأغار عليها وأقام في مقابلة البرنس ففرق البرنس جموعه وانقطع عزمه عن الحركة *

وفيها وقع بين نواب توران شاه باليمن بعد موته اختلاف فخشي السلطان صلاح الدين على اليمن فجهز اليه عسكراً مع جماعة من أمرائه فوصلوا الى اليمن واستولوا عليه وكان نواب توران شاه على عدن عز الدين عثمان وعلى زبيد حطان بن كامل بن منقذ الكناني من بيت صاحب شيزر *

﴿ ذكر وفاة الملك الصالح صاحب حلب ﴾

في هذه السنة في رجب توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكى ابن اقسنقر صاحب حلب وعمره نحو تسع عشرة سنة ولما اشتد به مرض القولنج وصف له الاطباء الخمر فمات ولم يستعمله وكان حليماً عفيف اليد والفرج واللسان ملازماً لامور الدين لا يعرف له شيء مما يتعاطاه الشباب وأوصى بملك حلب الى ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل فلما مات سار مسعود ومجاهد الدين قيماز من الموصل الى حلب واستقر في ملكها . ولما استقر مسعود في ملك حلب كاتبه أخوه عماد الدين زنكى بن مودود صاحب سنجار في ان يعطيه حلب ويأخذ منه سنجار فأشار قيماز بذلك

فلم يمكن مسعود الا موافقته فأجاب الى ذلك فسار عماد الدين الى حلب وتسلمها وسلم سنجار الى أخيه مسعود وعاد مسعود الى الموصل

﴿ ذكر مسير السلطان صلاح الدين الى الشام ﴾

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة وفيها خامس محرم سار صلاح الدين من مصر الى الشام * ومن عجيب الاتفاق انه لما برز من القاهرة وخرجت أعيان الناس لوداعه أخذ كل منهم يقول شيئاً في الوداع وفراقه وفي الحاضرين معلم لبعض أولاد السلطان فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأنشد

تمتع من شميم عرار نجد   فما بعد العشية من عرار

فتطير صلاح الدين وانقبض بعد انبساطه وتكدر المجلس على الحاضرين فلم يعد صلاح الدين بعدها الى مصر مع طول المدة وسار السلطان وأغار في طريقه على بلاد الافرنج وغنم ووصل الى دمشق في حادي عشر صفر من هذه السنة . ولما سار صلاح الدين الى الشام اجتمعت الافرنج قريب الكرك ليكونوا على طريقه فانتهز فرخشاه نائب السلطان الفرصة وسار الى الشقيف بعساكر الشام وفتحه وأغار على مايجاوره من بلاد الافرنج وأرسل الى السلطان وبشره بذلك

﴿ ذكر ارسال سيف الاسلام الى اليمن ﴾

في هذه السنة سير السلطان أخاه سيف الاسلام طغتكين الى بلاد اليمن ليملكها ويقطع الفتن منها وكان بها حطان بن منقذ الكناني وعز الدين عثمان الزنجيلي قد عادا الى ولايتها فان الامير الذي كان سيره السلطان نائباً الى اليمن توفي وعزلها فعادت بين حطان وعثمان الفتن قائمة فوصل سيف الاسلام الى زبيد فتحصن حطان في بعض القلاع فلم يزل سيف الاسلام يتلطف به حتى نزل اليه فأحسن صحبته ثم ان حطان طلب دستوراً الى الشام فلم يجبه الا بعد جهد فجهز حطان أثقاله قدامه ودخل حطان ليودع سيف الاسلام فقبض عليه وأرسل فاسترجع أثقاله وأخذ جميع أمواله وكان من جملة ما أخذه سيف الاسلام سبعون غلاف زردية مملوءة ذهباً عيناً ثم

سجن حطان في بعض قلاع اليمن فكان آخر العهد به . فأما عثمان الزنجيلي فانه لما جرى لحطان ذلك خاف وسار نحو الشام وسير أمواله في البحر فصادفهم مركب فيها أصحاب سيف الاسلام فأخذوا كل مالعثمان وصفت بلاد اليمن لسيف الاسلام *

﴿ ذكر غارات السلطان صلاح الدين وما استولى عليه من البلاد ﴾

في هذه السنة سار السلطان من دمشق في ربيع الاول ونزل قريب طبرية وشن الغارات على بلاد الافرنج مثل بانياس وجبنين والغور فغنم وقتل وعاد الى دمشق ثم سار عنها الي بيروت وحصرها واغار على بلادها ثم عاد الى دمشق ثم سار من دمشق الى البلاد الجزرية وعبر الفرات من البيرة فسار معه مظفر الدين بن زين الدين وكان حينئذ صاحب حران وكاتب السلطان ملوك تلك الاطراف واستمالهم فأجابه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا وصار معه ونازل السلطان الرها وحصرها وملكها وسلمها الى مظفر الدين كوكبوري بن قطب الدين ن ينال بن حسان المنبجي فسار ينال الي عز الدين مسعود صاحب الموصل ثم سار صلاح الدين الى الخابور وملك قرسيسية وماكسين وعربان والخابور واستولى على خابور جصيعة تم سار الي نصيبين وحاصرها وملك المدينة ثم ملك القلعة ثم اقطع نصيبين اميراً كان معه يقال له ابو الهيجاء السمين ثم سار عن نصيبين وقصد الموصل وقد استعد صاحبها عزالدين مسعود ومجاهد الدين قيار للحصار وشحنوها بالرجال والسلاح فحصر الموصل واقام عليها منجنيقاً فأقاموا عليه من داخل المدينة تسعة مجانيق وضايق الموصل فنزل السلطان محاذاة باب كندة ونزل صاحب حصن كيفا على باب الجسر ونزل تاج الملوك توري أخو صلاح الدين على باب العمادي وجرى القتال بينهم وكان ذلك في شهر رجب فلما رأى أن حصارها يطول رحل عن الموصل الى سنجار وحاصرها وملكها واستناب بها سعد الدين بن معين الدين من اكابر الامراء وأحسنهم صورة ومعنى ثم سار السلطان الى حران وعزل في طريقه عن نصيبين أبا الهيجا السمين



﴿ ذكر غير ذلك من الحوادث ﴾

في هذه السنة عمل البرنس صاحب الكرك أسطولا في بحر أيلة وسار في البحر فرقتان فرقة أقامت على حصن أيلة يحضرونه وفرقة سارت نحو عيذاب يفسدون في السواحل وبغتوا المسلمين في تلك النواحي فانهم لم يعهدوا بهذا البحر افرنجا قط وكان بمصر الملك العادل أبو بكر نائبا عن أخيه السلطان فعمر أسطولاً في بحر عيذاب وأرسله مع حسام الدين لؤلؤ وهو متولي الاسطول بديار مصر وكان مظفرًا شجاعاً فسار لؤلؤ مجـدًا في طلبهم وأوقع بالذين يحاصرون أيلة فقتلهم وأسرهم ثم سار في طلب الفرقة الثانية وكانوا قد عزموا على الدخول الى الحجاز ومكة والمدينة حرسهما الله تعالى فسار لؤلؤ يقفو أثرهم فبلغ رابع فأدركهم بساحل الحوار وتقاتلوا أشد قتال فظفره الله تعالى بهم وقتل لؤلؤ اكثرهم وأخذ الباقين أسرى وأرسل بعضهم الى مني لينحروا بها وعاد بالباقين الى مصر فقتلوا عن آخرهم

وفي هذه السنة توفي عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك وكان ينوب عن صلاح الدين بدمشق وهو ثقته من بين أهله وكان فرخشاه شجاعاً كريماً فاضلا وله شعر جيد ووصل خبر موته الى صلاح الدين وهو في البلاد الجزرية فأرسل الى دمشق شمس الدين بن محمد بن عبد الملك المقدم ليكون بها وأقر بعلبك على بهرام شاه بن فرخشاه المذكور

وفيها توفي بدمشق مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري الفقيه الشافعي ولد سنة خمس وخمسمائة وهو الملقب قطب الدين وكان اماماً فاضلا في العلوم الدينية قدم الى دمشق وصنف عقيدة للسلطان صلاح الدين وكان السلطان يقرئها أولاده الصغار *

﴿ ذكر ما ملكه السلطان صلاح الدين من البلاد ﴾

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة وفيها ملك السلطان حصن امد بعد حصار وقتال في العشر الاول من محرم وسلمها الى نور الدين محمد بن قره أرسلان بن داود بن سكمان بن أرتق صاحب حصن كيفا ثم سار الى الشام وقصد تل خالد من أعمال

حلب وملكها ثم سار الى عينتاب وحصرها وبها ناصر الدين محمد أخو الشيخ اسماعيل الذي كان خازن نور الدين محمود بن زنكي وكان قد سلم نور الدين عينتاب الى اسماعيل المذكور فبقيت معه الى الآن فحاصرها السلطان وملكها بتسليم صاحبها اليه فأقره السلطان عليها وبقي في خدمة السلطان ومن جملة أمرائه ثم سار السلطان الى حلب وحصرها وبها صاحبها عماد الدين زنكي وطال الحصار عليه وكان قد كثرت اقتراحات أمراء حلب عليه وقد ضجر من ذلك وكره حلب لذلك فأجاب السلطان الى تسليم حلب على ان يعوض عنها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج واتفقوا على ذلك وسلم حلب الى السلطان في صفر من هذه السنة فكان ينادي أهل حلب على عماد الدين المذكور « يا حمار . بعت حلب بسنجار . » واشترط السلطان على عماد الدين المذكور الحضور الى خدمته بنفسه وعسكره الى استدعاه ولا يحتج بحجة عن ذلك ومن الاتفاقات العجيبة ان محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق مدح السلطان بقصيدة منها

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب

فوافق فتح القدس في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

وكان من جملة من قتل على حلب تاج الملوك توري بن أيوب أخو السلطان الاصغر وكان كريماً شجاعاً طعن في ركبته فانفلقت فمات منها

ولما استقر الصلح عمل عماد الدين زنكي دعوة للسلطان واحتفل فبينما هم في سرورهم اذ جاءهم انسان فأسر الى السلطان بموت أخيه توري فوجد عليه في قلبه وجداً عظيما وأمر بتجهيزه ولم يعلم السلطان في ذلك الوقت أحداً ممن كان في الدعوة بذلك لئلا يتنكد عليهم ما هم فيه وكان يقول السلطان ما وقعت علينا حلب رخيصة بموت وكان هذا من السلطان من الصبر العظيم

ولما ملك السلطان حلب أرسل الى حارم وبها سرخك الذي ولاه الملك الصالح في تسليم حارم وجرت بينهما مراسلات فلم ينتظم بينهما حال وكان سرخك الافرنج فوثب عليه أهل القلعة وقبضوا عليه وسلموا حارم الى السلطان فتسلمها وقرر أمر حلب وبلادها وأقطع اعزاز أميرًا يقال له سليمان بن جندر

﴿ ذكر غير ذلك من الحوادث ﴾

في هذه السنة قبض عز الدين مسعود صاحب الموصل على نائبه مجاهد الدين قيماز *

ولما فرغ السلطان من تقرير أمر حلب جعل فيها ولده الملك الظاهر غازي وسار الى دمشق وتجهز منها للغزو فعبر نهر الاردن تاسع جمادي الآخرة فأغار على بيسان وحرقها وشن الغارات على تلك النواحي ثم تجهز السلطان للكرك وأرسل الى نائبه بمصر وهو أخوه الملك العادل أن يلاقيه على الكرك فسار واجتمعا عليها وحصر الكرك وضيق عليها ثم رحل عنها في منتصف شعبان وسار معه أخوه وأرسل السلطان ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر الى مصر نائباً عنه موضع الملك العادل ووصل السلطان الى دمشق وأعطى أخاه أبا بكر العادل مدينة حلب وقلعتها وأعمالها وسيره اليها في شهر رمضان من هذه السنة وأحضر ولده الظاهر منها الى دمشق *

وفي هذه السنة في أواخرها توفي شاهرمن بن سكمان بن ظهير الدين ابراهيم بن سكمان القطبي صاحب خلاط وقد تقدم ذكر ملك شاهرمن المذكور في سنة احدى وعشرين وخمسمائة وكان عمر سكمان لما توفي أربعاً وستين سنة ولما مات سكمان كان بكتمر مملوك أبيه بميافارقين فلما سمع بكتمر بموته سار من ميافارقين ووصل الى خلاط وكان أكثر أهلها ومماليك شاهرمن متفقين معه وأول وصوله استولى على خلاط وتملكها وجلس على كرسي شاهرمن واستقر في مملكة خلاط حتى قتل في سنة تسع وخمسمائة حسبما نذكره ان شاء الله تعالى

﴿ ذكر غزو السلطان الكرك ﴾

ثم دخلت سنة ثمانين وخمسمائة وفيها في ربيع الآخر سار السلطان من دمشق للغزاة وكتب الى مصر فسارت عساكرها اليه ونازل الكرك وحاصره وضيق على من به ربض الكرك وبقيت القلعة وليس بينها وبين الربض غير خندق حيث وقصد السلطان طمه فلم يقدر لكثرة المقاتلة فجمعت الافرنج فارسها وراجلها وقصدوه ولم يمكن السلطان الا الرحيل فرحل عن الكرك وسار اليهم فأقاموه في أماكن وعرة

وأقام السلطان قبالتهم وسار من الافرنج جماعة ودخلوا الكرك فعلم بامتناعه عليه وسار الى نابلس ونهب ما بتلك النواحي وقتل وأسر وسبي فأكثر ثم نزل الى سبصطية وبها مشهد زكرياء عليه السلام فأستنقذ ما بها من أسرى المسلمين ثم سار الى جينين ثم عاد الى دمشق *

وفي هذه السنة توفي شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن اسماعيل ابن أبي سعيد أحمد وكان قد سار من عند الخليفة الى السلطان في رسالة ومعه شهاب الدين بشير ليصلح بين صلاح الدين وبين عز الدين مسعود صاحب الموصل فلم ينتظم حال واتفق انهما مرضا بدمشق وطلبا المسير الى العراق وسارا في الحرومات بشير في السخنة ومات صدر الدين شيخ الشيوخ بالرحبة ودفن بمشهد البوق وكان أوحد زمانه قد جمع بين رئاسة الدين والدنيا

وفيها في محرم أطلق عز الدين مسعود صاحب الموصل مجاهد الدين قيماز من الحبس وأحسن اليه

﴿ ذكر حصار السلطان صلاح الدين الموصل ﴾

ثم دخلت سنة احدى وثمانين وخمسمائة وفيها حصر السلطان الموصل وهو حصاره الثاني فأرسل اليه عز الدين والدته وابنة عمه نور الدين بن زنكي وغيرهما من النساء وجماعة يطلبون منه ترك الموصل وما بايديهم فردهم وأستقبح الناس ذلك من صلاح الدين لا سيا وفيهنّ بنت نور الدين وحاصر الموصل وضايقها و بلغه وفاة شاه أرمن صاحب خلاط في ربيع الآخر من هذه السنة فسار الى الموصل الي جهة خلاط باستدعاء أهلها ليملكها

وفي هذه السنة توفي نور الدين محمد بن قره أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا وآمد وملك بعده ولده سكمان ولقب قطب الدين وكان صغيراً فقام بتدبيره القوام بن سماق الاسعردي وحضر سكمان الى السلطان وهو نازل على ميا فارقين فاقره على ما كان بيد والده وأقام معه أميراً من أصحاب سكمان المذكور *

﴿ ذكر ملك السلطان صلاح الدين ميافارقين ﴾

لما رحل السلطان عن الموصل جعل طريقه على ميافارقين وكانت لصاحب ماردين الذي توفى وفيها من يحفظها من جهة شاه أرمن صاحب خلاط المتوفي فحاصرها السلطان وملكها في سلخ جمادي الاولى ثم ان السلطان رجع عن قصد خلاط الى الموصل فجاءه رسل عز الدين مسعود يسأل الصلح واتفق حينئذ أن السلطان مرض وسار من كفر زمار عائدًا الى حران فلحقته رسل صاحب الموصل بالاجابة الى ما طلب وهو ان يسلم صاحب الموصل السلطان شهرزور وأعمالها وولاية القرابلي وجميع ما وراء الزاب وأن يخطب للسلطان صلاح الدين على جميع منابر الموصل وما بيده وأن يضرب اسمه على الدراهم والدنانير وتسلم السلطان ذلك واستقر الصلح وأمنت البلاد ووصل السلطان الى حران وأقام بها مريضاً واشتد به المرض حتي أيسوا منــه ثم انه عوفي وعاد الى دمشق سنة اثنتين وثمانين من محرم . ولما اشتد مرض السلطان سار ابن عمه محمد بن شيركوه بن شاذي صاحب حمص الى حمص وكاتب بعض أكابر دمشق في أن يسلموا اليه دمشق اذا مات السلطان

وفي هذه السنة ليلة عيد الاضحى شرب بحمص صاحبها ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شاذي فأصبح ميتاً قيل ان السلطان هو الذي دس عليه من سقاه سماً لما بلغه مكاتبته أهل دمشق في مرضه . ولما مات أقر السلطان حمص وما كان بيده على ولده شيركوه بن محمد وعمره اثنتا عشرة سنة وخلف صاحب حمص شيئاً كثيرًا من الدواب والآلات وغــيرها فاستعرضها السلطان عند نزوله بحمص في عوده من حران وأخذ أكثرها ولم يترك الا ما لا خير فيه

﴿ ذكر نقل الملك العادل من حلب واخراج الملك الافضل ابن السلطان من مصر الى دمشق ﴾

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة وفيها أحضر السلطان ولده الملك الافضل من مصر وأقطعه دمشق وسببه ان الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخي السلطان كان نائب عمه بمصر وكان معه الملك الافضل فأرسل تقي الدين يشتكي من الافضل

انني لا أتمكن من استخراج الخراج فانني اذا أحصرت من عليه الخراج وأردت عقوبته يطلقه الملك الافضل فأرسل السلطان أخرج ابنه الافضل من مصر وأقطعه دمشق وتغير السلطان على تقي الدين في الباطن فانه ظن انه انما أخرج من مصر ليتملك مصر اذا مات السلطان ثم أحضر أخاه الملك العادل من حلب وجعل معه ولده العزيز عثمان بن السلطان نائباً عنه بمصر واستدعى تقي الدين من مصر . فقيل انه توقف عن الحضور وقصد اللحاق بمملوكه قراقوش المستولي على بعض بلاد أفريقيــة وبرقة من المغرب وبلغ السلطان ذلك فساءه وأرسل يستدعي تقي الدين ويلاطفه فحضر . ولما حضر تقي الدين الى السلطان زاده على حماة منبج والمعرة وكفر طاب وميافارقين وجبل جور بجميع أعمالها واستقر العادل والعزيز عثمان في مصر . ولما أخذ السلطان حلب من أخيه العادل أقطعه عوضها حران والرها *

﴿ ذكر وفاة البهلوان وملك أخيه قزل ﴾

وفي هذه السنة في أولها توفي البهلوان محمد بن الدكز صاحب بلد الجبل وهمذان والري وأصفهان وأذربيجان وأرانية وغيرها من البلاد وكان عادلا حسن السيرة وملك البلاد بعده أخوه قزل أرسلان واسمه عثمان وكان السلطان طغريل بن أرسلان بن طغريل بن محمد بن ملكشاه السلجوقي مع البهلوان وله خطبة في بلاده وليس له من الامر شيء فلما مات البهلوان خرج طغريل عن حكم قزل وكثر جمعه واستولى على بعض البلاد وجرت بينه وبين قزل حروب

﴿ ذكر غير ذلك من الحوادث ﴾

في هذه السنة غدر البرنس صاحب الكرك وأخذ قافلة عظيمة من المسلمين وأسرهم فأرسل السلطان يطلب منه اطلاقهم بحكم الهدنة التي كانت بينهم على ذلك فلم يفعل فنذر السلطان انه ان أظفره الله به قتله بيده

﴿ ذكر غزوات السلطان وفتوحاته ﴾

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وفيها جمع السلطان العساكر وسار بفرقة من العسكر وضايق الكرك خوفاً على الحجاج من صاحب الكرك وأرسل فرقة أخرى

مع ولده الملك الافضل فأغاروا على بلاد عكا وتلك الناحية وغنموا شيئاً كثيراً ثم سار السلطان ونزل على طبرية وحصر مدينتها وفتحها عنوة بالسيف وتأخرت القلعة وكانت طبرية للقومص صاحب طرابلس وكان قد هادن السلطان ودخل في طاعته فأرسلت الافرنج الى القومص المذكور القسوس والبطرك ينهونه عن موافقة السلطان ويوبخونه فصار معه واجتمع الافرنج للقاء السلطان

﴿ ذكر وقعة حطين وهي الواقعة العظيمة التي فتح الله بها الساحل وبيت المقدس ﴾

ولما أخذ السلطان مدينة طبرية اجتمعت الافرنج وملوكهم بفارسهم وراجلهم وساروا الى السلطان فركب السلطان من عند طبرية وسار اليهم يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر والتقى الجمعان واشتد بينهم القتال ولما رأى القومص شدة الامر حمل على مقدمة المسلمين وهناك تقي الدين صاحب حماة فأفرج له وعطف عليه ونجا القومص ووصل الى طرابلس وبقي مدة يسيرة ومات غبناً ونصر الله تعالى المسلمين وأحدقوا بالافرنج من كل ناحية وأبادوهم قتلا وأسراً وكان من جملة من أسر ملك الافرنج الكبير والبرنس ارناط صاحب الكرك وصاحب جبيل وابن الهنفري ومقدم الداوية وجماعة من الابستارية وما أصيب الافرنج منذ خرجوا الى الشام في سنة احدى وتسعين وأربعمائة الى الآن بمصيبة مثل هذه الواقعة

ولما انقضى المصاف جلس السلطان في خيمته وأحضر ملك الافرنج وأجلسه الى جانبه وكان الحر والعطش به شديداً فسقاه السلطان ماء مثلوجاً فسقي ملك الافرنج منه البرنس ارناط صاحب الكرك فقال له السلطان هذا الملعون لم يشرب الماء باذني فيكون أماناً له ثم كلم السلطان البرنس ووبخه وقرعه على غدره وقصده الحرمين الشريفين وقام السلطان بنفسه فضرب عنقه فارتعدت فرائص ملك الافرنج فسكن جاشه . ثم عاد السلطان الى طبرية وفتح قلعتها بالامان ثم سار الى عكا وحاصرها وفتحها بالامان ثم أرسل الى أخيه العادل فنازل مجدل اليابا وفتحه عنوة بالسيف ثم فرق السلطان عسكره ففتحوا الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعلشا والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا بالسيف وغنموا وقتلوا وأسروا أهل هذه الاماكن وأرسل فرقة الى نابلس فملكوا قلعتها بالامان ثم سار الملك العادل بعد فتح مجدل اليابا الى يافا وفتحها

عنوة بالسيف ثم سار السلطان الى تبنين ففتحها بالامان ثم سار الى صيدا فأخلاها صاحبها وتسلمها السلطان ساعة وصوله لتسع بقين من جمادي الاولى من هذه السنة ثم سار الي بيروت فحاصرها وتسلمها في السابع والعشرين من جمادي الاولى بالامان وكان حصرها مدة ثمانية أيام وكان صاحب جبيل من جملة الاسرى فبـذل جبيل بأن يسلمها ويطلق سراحه فأجيب الى ذلك وكان صاحب جبيل من أعظم الافرنج وأشدهم عداوة للمسلمين ولم تكن عاقبة اطلاقه حميدة وأرسل السلطان وتسلم جبيل وأطلقه وفيها حضر المركيس في سفينة الى عكا وهي للمسلمين ولم يعلم المركيس بذلك واتفق هجوم الهواء فراسل المركيس الملك الافضـل وهو بعكا يقترح أمرًا بعد أمر والملك الافضل يجيب الى ذلك المركيس الى أن هب الهواء فأقلع المركيس الى صور واجتمع عليـه الافرنج الذين بها وملك صور وكان وصول المركيس الى صور واطلاق الافرنج الذين اخذ السلطان بلادهم بالامان وحملهم الى صور من اعظم اسباب الضرر الذي حصل حتى راحت عكا وقوى الافرنج بذلك

ثم سار السلطان الى عسقلان وحاصرها اربعة عشر يوماً وتسلمها بالامان سلخ جمادي الآخرة ثم بث السلطان عسكره ففتحوا الرملة والداروم وغزة و بيت لحم و بيت جبريل والنطرون وغير ذلك . ثم سار السلطان ونازل القدس وبه من النصارى عدد يفوت الحصر وضايق السلطان السور بالنقابين واشتد القتال ونقبوا السور وطلب الافرنج الامان فلم يجبهم السلطان الى ذلك وقال لا آخذها الا بالسيف مثل ما اخذها الافرنج من المسلمين فعاودوه في الامان وعرفوه ماهم عليه من الكثرة وانهم ان ايسوا من الامان قاتلوا خلاف ذلك القتال فأجابهم السلطان الى ذلك وشرط ان يؤدي كل من بها من الرجال عشرة دنانير عشرة دنانير وتؤدي النساء خمسة ويؤدوا عن كل طفل دينارين وان من عجز عن ذلك يكون أسيرًا فأجيب الى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة في السابع والعشرين من رجب وكان يوماً مشهودًا ورفعت الاعلام الاسلامية على أسوار المدينة ورتب السلطان على أبواب البلد من يقبض منهم المال المذكور فخان المرتبون في ذلك ولم يحملوا الا القليل

وكان على رأس قبة الصخرة صليب مذهب فتسلق المسلمون واقتلعوه فسمع لذلك ضجة لم يعهد مثلها من الافرنج بالتفجع والتوجع وكان الافرنج قد عملوا غربي المسجد

الاقصى نهرًا ومستراحًا فأمر السلطان بإزالة ذلك واعادة الجامع الى ما كان عليه وكان نور الدين محمود بن زنكي قد عمل منبرًا بحلب تعب عليه مدة وقال هذا لاجل القدس فأرسل السلطان أحضر المنبر من حلب وجعله في المسجد الاقصى وأقام السلطان بعد فتح القدس بظاهره الى الخامس والعشرين من شعبان يرتب أمور البلد وأحواله وتقدم بعمل الربط والمدارس الشفعوية

ثم رحل السلطان الى عكا ورحل منها الى صور وصاحبها المركيس قد حصنها بالرجال وحفر خندقها ونزل السلطان على صور تاسع عشر رمضان وحاصرها وضايقها وطلب الاسطول فوصل اليه في عشر شوال فاتفق ان الافرنج كبسوهم في الشواني وأخذوا خمس شوان ولم يسلم من المسلمين الا من سبح ونجا وأخذ الباقون وطال الحصار عليها فرحل السلطان عنها في آخر شوال أول كانون الاول وأقام بعكا واعطى العساكر الدستور فسار كل واحد الى بلده وبقي السلطان بعكا في حلقته وأرسل الى هونين وفتحها بالامان

﴿ ذكر غير ذلك من الحوادث ﴾

في هذه السنة سار شمس الدين محمد بن المقدم بعد فتح القدس حاجًا وكان هو امير الحاج الشامي ليجمع بين الغزاة وزيارة القدس والخليل عليه السلام والحج في عام واحد فسار ووقف بعرفات ولما أفاض أرسل اليه طاشتكين أمير الحاج العراقي يمنعه من الافاضة قبله فلم يلتفت اليه فسار العراقيون واقتتلوا مع الشاميين فقتل بينهم جماعة وابن المقدم يمنع أصحابه من القتال فجرح ومات شهيدًا ودفن بمقبرة المعلى

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة فشتى السلطان في هذه السنة بعكا ثم سار بمن معه وقصد كوكب وجعل حصارها أميرًا يقال له قايماز النجمي وسار منها في ربيع الاول ودخل دمشق ففرح الناس بقدومه وكتب الى الاطراف باجتماع العساكر وأقام في دمشق خمسة أيام وسار من دمشق منتصف ربيع الاول ونزل على بحيرة قدس غربي حمص فأتته العساكر بها فأولهم عماد الدين زنكي صاحب سنجار ونصيبين . ولما تكاملت عساكره رحل ونزل تحت حصن الاكراد وشن الغارات على بلاد الافرنج وسار من حصن الاكراد فنزل على أنطرسوس فوجد الافرنج قد

أخلوا أنطرسوس فسار الى مرقيــة فوجدهم قد أخلوها أيضاً فسار تحت المرقب وهو الاسبتار فوجده لا يرام ولالاحد فيه مطمع فسار الى جبلة ووصل اليها ثامن جمادي الاولى وتسلمها حالة وصوله فجعــل فيها لحفظها الامير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر ثم سار السلطان الى اللاذقية فوصل اليها في الرابع والعشرين من جمادي الاولى ولها قلعتان فحصر القلعتين . ولما ملك السلطان اللاذقية سلمها الى الملك المظفر تقي الدين فعمرها وحصن قلعتيها . وكان تقي الدين عظيم الهمة في تحصين القلاع والغرامة عليها كما فعل بقلعة حماة ثم رحل السلطان عن اللاذقية في التاسع والعشرين من جمادي الاولى الى صهيون فحاصرها وضايقها وطلب أهلها الامان فلم يجبهم الاعلى أمان أهل القدس فيما يؤدونه فأجابوا الى ذلك وتسلم السلطان قلعة صهيون وسلمها الى أمير من أصحابه يقال له ناصر الدين ثم فرق عسكره في تلك الجبال فملكوا حصن بلاطنوس وكان الافرنج الذين به قد هربوا منه وأخلوه وملكوا حصن العيد وحصن الجماهونيين ثم سار السلطان من صهيون ثالث جمادي الآخرة ووصل الى قلعة بكراس فأخلاها أهلها وتحصنوا بقلعة الشغر فحصرها ووجدها منيعة وضايقها فألقى الله تعالى في قلوب أهلها الفزع وطلبوا الامان وتسلمها يوم الجمعة سادس جمادي الآخرة بالامان فأرسل السلطان الملك الظاهر صاحب حلب فحاصر سرمينية وضايقها وملكها واستنزل أهلها على قطيعة قررها عليهم وهدم الحصن وعفى أثره وكان في الحصن وفي الحصون المذكورة من أسرى المسلمين الجم الغفير فأطلقوا وأعطوا الكسوة والنفقــة ثم سار السلطان من الشغر الى برزية ورتب عسكره ثلاثة أقسام وداومها بالزحف وملكها بالسيف في السابع والعشرين من جمادي الآخر وسبي وأسر وقتل أهلها. قال مؤلف الكامل ابن الاثير كنت مع السلطان في مسيره وفتحه هذه البلاد طالباً للغزاة فأحكي ذلك عن مشاهدة ثم سار السلطان فنزل على جسر الحديد وهو على العاصي بالقرب من انطاكية فأقام عليه أياماً حتى تلاحق به من تأخر من العسكر ثم سار الى دربساك ونزل عليها ثامن رجب وحاصرها وضايقها وتسلمها بالامان على شرط أن لا يخرج منها أحد الا بثيابه فقط وتسلمها تاسع عشر رجب. ثم سار عن دربساك الى بغراس فحصرها وتسلمها بالامان على حكم امان دربساك وأرسل بيمند صاحب انطاكية الى السلطان يطلب منه المهدنة والصلح و بذل اطلاق كل أسير عنده فأجابه السلطان

الى ذلك واصطلحوا ثمانية أشهر وكان صاحب انطاكية حينئذ أعظم ملوك الافرنج في هذه البلاد فان أهل طرابلس سلموا اليه طرابلس

ولما فرغ السلطان من أمر هذه البلاد والمدنة سار الى حلب ثالث شعبان وسار منها الى دمشق واعطى عماد الدين زنكي دستوراً وكذلك اعطي غيره من العساكر الشرقية وجعل طريقه لما رحل من حلب على قبر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فزاره وزار الشيخ الصالح أبا زكريا المغربي وكان مقيماً هناك وكان من عباد الله تعالى الصالحين وله كرامات ظاهرة . وكان مع السلطان أبو فليتة الامير قاسم بن مهنا الحسيني صاحب مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وشهد معه مشاهده وفتوحاته وكان السلطان يتبرك برؤيته ويتيمن بصحبته ويرجع الى قوله ودخل السلطان دمشق في شهر رمضان المعظم فأشير عليه بتفريق العساكر ليريحوا ويستريحوا فقال السلطان ان العمر قصير والأجل غير مأمون وكان السلطان لما سار الى البلاد الشمالية قد جعل على الكرك وغيرها من يحاصرها وخلى أخاه العادل في تلك الجهات يباشر ذلك فأرسل أهل الكرك يطلبون الامان فأمر الملك العادل المباشرين لحصارها بتسلمها فتسلموا الكرك والشوبك وما بتلك الجهات من البلاد *

ثم سار السلطان من دمشق في منتصف رمضان الى صفد فحصرها في ذي القعدة وسير أهلها الى صور وكان اجتماع أهل هذه القلاع في صور من أعظم أسباب الضرر على المسلمين ظهر ذلك فيما بعد ثم سار السلطان الى القدس فعيد فيه عيد الاضحى ثم سار الى عكا فأقام فيها حتى انسلخت السنة *

وفي هذه السنة أرسل قزل بن الدكز يستنجد بالخليفة الامام الناصر على طغريل ابن أرسلان بن طغريل السلجوقي ويحذره عاقبة أمره فأرسل الخليفة عسكراً الى طغريل والتقوا ثامن ربيع الاول قرب همذان فانهزم عسكر الخليفة وغنم طغريل أموالهم وأسر مقدم العسكر جلال بن عبدالله وزير الخليفة *

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة وفيها سار صلاح الدين ونزل بمرج عيون وحضر اليه صاحب شقيف ارنون وبذل له تسليم الشقيف بعد مدة ضربها خديعة منه فلما بقي للمدة ثلاثة أيام استحضره السلطان وكان اسم صاحب الشقيف ارناط فقال له السلطان في التسليم فقال لا يوافقني عليه أهلي فأمسكه السلطان وبعثه الى دمشق فحبس

﴿ ذكر حصار الافرنج عكا ﴾

كان قد اجتمع بصور أهل البلاد التي أخذها السلطان بالامان فكثر جمعهم حتى صاروا في عالم لا تحصى كثرته وأرسلوا الى البحرين يستنجدون وصوروا صورة المسيح وصورة عربي يضرب المسيح وقد أدماه وقالوا هذا نبي العرب يضرب المسيح فخرجت النساء من بيوتهن ووصل من الافرنج في البحر عالم لايحصون كثرة وساروا الى عكا من سور ونازلوها في منتصف رجب من هذه السنة وضايقوا عكا واحاطوا بسورها من البحر الى البحر ولم يبق للمسلمين اليها طريق فسار اليهم السلطان ونزل قريب الافرنج وقاتلهم في مستهل شعبان وباتوا على ذلك واصبحوا فحمل تقي الدين صاحب حماة من ميمنة السلطان على الافرنج فأزالهم عن موقفهم والتصق بالسور وانفتح الطريق الى المدينة يدخل المسلمون ويخرجون وادخل السلطان الى عكا عسكر نجدة وكان من جملتهم أبو الهيجاء السمين وبقي المسلمون يغادون القتال ويراحونه الى العشرين من شعبان ثم كان بين المسلمين وبينهم وقعة عظيمة فان الافرنج اجتمعوا وضربوا مع السلطان مصاف وحملوا على القلب فأزالوه وأخذوا يقتلون في المسلمين الى ان بلغوا خيمة السلطان وانحاز السلطان الى جانب وانضاف اليه جماعة وانقطع مدد الفرنج واشتغلوا بقتال الميمنة فحمل السلطان على الافرنج الذين خرقوا القلب وعطف عليهم العسكر فأفنوهم قتلا وكان قتلى الافرنج نحو عشرة آلاف نفس ووصل المنهزمون بعضهم الى طبرية وبعضهم وصل الى دمشق *

وجافت الارض بعد هذه الوقعة ولحق السلطان مرض وحدث له قولنج فأشار عليه الامراء بالانتقال من ذلك الموضع فوافقهم ورحل عن عكا رابع عشر شهر رمضان الى الخروبة فلما رحل تمكن الافرنج من حصار عكا وانبسطوا في تلك الارض. وفي تلك الحال وصل أسطول للمسلمين في البحر مع حسام الدين لؤلؤ وكان شهماً فظفر ببطسة للافرنج فأخذها ودخل بها الى عكا فقويت قلوب المسلمين وكذلك وصل الملك العادل بعسكر مصر الى أخيه السلطان فقويت نفوس المسلمين بوصوله

﴿ ذكر غير ذلك من الحوادث ﴾

فيها توفي بالخروبة الفقيه عيسى وكان مع السلطان وهو من أعيان عسكره وكان

جنديا فقيها شجاعاً وكان من أصحاب الشيخ أبي القاسم البرزي

ثم دخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة وفيها رحل السلطان عن الخروبة وعاد الى قتال الافرنج على عكا وكان الافرنج قدعملوا قرب سور عكا ثلاثة أبراج طول البرج ستون ذراعاً جاؤوا بخشبها من جزائر البحر وعملوها طبقات وشحنوها بالسلاح والمقاتلة وألبسوها جلود البقر والطين بالخل لئلا تعمل فيها النار فتحيل المسلمون وأحرقوا البرج الاول فاحترق بمن فيه من الرجال والسلاح ثم أحرقوا الثاني والثالث وانبسطت نفوس المسلمين بذلك بعد الكآبة ووصلت الى السلطان العساكر من البلاد وبلغ المسلمين وصول ملك الالمان وكان قد سار من بلاده وراء القسطنطينية بمائة الف مقاتل فاهتم المسلمون لذلك وأيسوا من الشام بالكلية فسلط الله تعالى على الالمان الغلاء والوباء فهلك أكثرهم في الطريق. ولما وصل ملكهم الى بلاد الارمن نزل في نهر هناك يغتسل فغرق وأقاموا ابنه مقامه فرجع من عسكره طائفة الى بلادهم ولم يصل مع ابن ملك الالمان الى الافرنج الذين على عكا غير قدر الف مقاتل وكفى الله المسلمين شرهم وبقي السلطان والافرنج على عكا يتناوشون القتال الى العشرين من جمادي الآخرة فخرجت الافرنج من خنادقهم بالفارس والراجل وأزالوا الملك العادل عن موضعه وكان معه عسكر مصر فعطفت عليهم المسلمون وقتلوا من الافرنج خلقاً كثيراً فعادوا الى خنادقهم وحصل للسلطان مغص فانقطع في خيمته ولولا ذلك لكانت الفيصلة ولكن اذا أراد الله أمراً فلا مرد له

﴿ذكر غير ذلك من الحوادث﴾

وفي هذه السنة لما قوي الشتاء واشتدت الرياح أرسل الافرنج المحاصرون عكا مراكبهم الى صور خوفاً عليها أن تتكسر وانفتح الطريق الى عكا في البحر وأرسل البدل اليها وكان العسكر الذين خرجوا منها أضعاف الواصلين اليها فحصل التفريط بذلك لضعف البدل

وفيها في ثامن شوال توفي زين الدين يوسف بن زين الدين علي كوجك صاحب اربل وكان مع السلطان بعسكره ولما توفي أقطع السلطان اربل أخاه مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كوجك وأضاف اليه شهر زور وأعمالها وارتجع ما كان

بيد مظفر الدين وهو حران والرها وسار مظفر الدين الى اربل وملكها

وفيها أقطع السلطان ما كان بيد مظفر الدين وهو حران والرها وسميساط والموزر الملك المظفر تقي الدين عمر زيادة على ما في يده وهو ميا فارقين ومن الشام حماة والمعرة وسلمية ومنبج وقلعة نجم وجبلة واللاذقية و بلاطنس و بكراس

﴿ذكر استيلاء الافرنج على عكا﴾

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة واستمر حصار الافرنج لعكا الى هذه السنة وكانوا قد أحاطوا بها من البحر الى البحر وحفروا عليهم خندقاً فلم يتمكن السلطان من الوصول اليهم وكانوا محاصرين لعكا وهم كالمحصورين من خارجهم من السلطان واشتد حصارهم لعكا وضعف من بها عن حفظ البلد وعجز السلطان عن دفع العدو عنهم فخرج الامير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب وطلب الامان من الافرنج على مال وأسرى يقومون بها للافرنج فأجابوهم الى ذلك وصعدت أعلام الافرنج على عكا ظهر يوم الجمعة سابع عشر جمادي الاخرى من هذه السنة واستولوا على البلد بما فيه وحبسوا المسلمين في أماكن من البلد وقالوا انما نحبسهم ليقوموا بالمال والاسرى وصليب الصلبوت وكتبوا الى السلطان بذلك فحصل ما أمكن تحصيله من ذلك وطلب منهم اطلاق المسلمين فلم يجيبوا الى ذلك فعلم منهم الغدر واستمر أسر المسلمين ثم قتل الافرنج منهم جماعة كثيرة واستمر الباقون في الاسر

وبعد استيلاء الافرنج وتقرير أمرها رحلوا عنها مستهل شعبان نحو قيسارية والمسلمون يسايرونهم ويتخطفون منهم ثم ساروا من قيسارية الى أرسوف ووقع بينهم وبين المسلمين مصاف أزالوا المسلمين عن موقفهم ووصلوا الى سوق المسلمين فقتلوا من السوقة خلقاً كثيراً ثم سار الافرنج الى يافا وقد أخلاها المسلمون فملكوها

ثم رأى السلطان تخريب عسقلان مصلحة لئلا يحصل لها ما حصل لعكا فسار اليها وأخلاها وخربها ورتب الحجارين في تقليع أسوارها وتخريبها فدكها الى الارض ولما فرغ السلطان من تخريب عسقلان رحل ثاني شهر رمضان الى الرملة فخرب حصنها وخرب كنيسة لد ثم سار الى القدس وقرر أموره وعاد الى مخيمه بالنطرون ثامن شهر رمضان ثم تراسل الافرنج والسلطان في الصلح علي أن يتزوج الملك العادل بأخت

ملك الانكتار ويكون للملك العادل القدس ولامرأته عكا فحضر القسيسون وأنكروا عليها ذلك الا أن يتنصر الملك العادل فلم يتفق بينهم حال ثم رحل الافرنج من يافا الى الرملة وقووا كل يوم يقع بين المسلمين وبينهم مناوشات فلقوا من ذلك شدة شديدة وأقبل الشتاء وحالت الاوحال بينهم فلما رأى السلطان ذلك وقد ضجرت العساكر أعطاهم الدستور وسار الى القدس لسبع بقين من ذي القعدة ونزل داخل البلد واستراحوا مما كانوا فيه وأخذ السلطان في تعمير القدس وتحصينه وأمر العسكر بنقل الحجارة وكان السلطان ينقل الحجارة بنفسه على فرسه ليقتدي به العسكر فكان يجتمع عند العمال في اليوم الواحد ما يكفيهم عدة أيام

﴿ ذكر وفاة الملك المظفر تقي الدين عمر ﴾

كان الملك المظفر قد سار الى البلاد المرتجعة من كوكبوري التي زاده اياها عمه السلطان من وراء الفرات وهي حران وغيرها فامتدت عين الملك المظفر الى بلاد مجاوريه واستولى على السويداء وحاني والتقي مع بكتمر صاحب خلاط فكسره وحاصره بخلاط وتملك معظم البلاد ثم رحل عنها ونازل ملاذ كرد وهي لبكتمر وضايقها وكان في صحبته ولده الملك المنصور محمد فعرض للملك المظفر مرض شديد وتزايد عليه حتى توفي به يوم الجمعة لاحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان من هذه السنة وأخفى الملك المنصور وفاته ورحل عن ملاذ كرد ووصل الى حماة ودفنه بظاهرها وبني الى جانب التربة مدرسة وذلك مشهور هناك *

وكان الملك المظفر شجاعاً شديد البأس ركنا عظيما من أركان البيت الايوبي وكان عنده فضل وأدب وله شعر حسن واتفق في ليلة الجمعة التي توفي فيها الملك المظفر أن توفي حسام الدين بن محمد بن لاجين وأمه ست الشام بنت أيوب أخت السلطان فأصيب السلطان في تاريخ واحد بابن أخيه وابن أخته *

ولما مات الملك المظفر راسل ابنه الملك المنصور السلطان واشترط شروطاً نسبه السلطان فيها الى العصيان وكاد أمره يضمحل بالكلية فراسل الملك المنصور عمه الملك العادل في استعطاف خاطر السلطان فما برح العادل بأخيه السلطان يراجع ويشفع في الملك المنصور حتى أجابه السلطان وقرر للملك المنصور حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة

نجم وارتجع السلطان البلاد الشرقية وما معها وأقطعها أخاه العادل بعد ان شرط السلطان ان العادل ينزل عن كل ماله من الاقطاع بالشام خلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء ونصف خاصة بمصر وان يكون عليه في كل سنة ستة آلاف غرارة تحمل من الصلت والبلقاء الى القدس ولما استقر ذلك سار الملك العادل الى البلاد الشرقية لتقرير أمورها وعاد الى خدمة السلطان في آخر جمادي الآخرة من السنة القابلة أعني سنة ثمان وثمانين ولما قدم الملك العادل على السلطان كان الملك المنصور صاحب حماة صحبته فلما رأى السلطان الملك المنصور نهض واعتنقه وغشيه البكاء وأكرمه وأنزله في مقدمة العسكر *

﴿ ذكر غير ذلك من الحوادث ﴾

في هذه السنة في شعبان قتل قزل أرسلان واسمه عثمان بن الدكز وهو الذي ملك أذربيجان وهمذان وأصفهان والري بعد أخيه محمد بن البهلوان وكان قد قوي عليه السلطان طغريل السلجوقي وهزم عسكر بغداد كما تقدم ذكره ثم ان قزل أرسلان تغلب واعتقل السلطان طغريل في بعض البلاد وسار قزل أرسلان بعد ذلك الى أصفهان وتعصب على الشفعوية وأخذ جماعة من أعيانهم فصلبهم وعاد الى همذان وخطب لنفسه بالسلطنة ودخل لينام على فراشه وتفرق عنه أصحابه فدخل اليه من قتله على فراشه ولم يعلم قاتله *

وفيها قدم معز الدين قيصر شاه ابن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم الى صلاح الدين . وسببه ان والده فرق مملكته على أولاده وأعطى ولده هذا ملطية ثم تغلب بعض اخوته على أبيه وألزمه باخذ ملطية من أخيه المذكور فخاف من ذلك وسار الى السلطان ملتجأ اليه فاكرمه السلطان وزوجه بابنة أخيه الملك العادل وعاد معز الدين الى ملطية في ذي القعدة . قال ابن الاثير لما ركب صلاح الدين ليودع معز الدين قيصر شاه ترجل معز الدين وترجل السلطان ولما ركب السلطان عضده قيصر شاه وأركبه وكان علاء الدين بن عز الدين مسعود صاحب الموصل مع السلطان اذ ذاك فسوّى ثياب السلطان أيضاً فقال بعض الحاضرين في نفسه ما بقيت تبالي يا ابن أيوب بأي موتة تموت يركبك ملك سلجوقي ويصلح قماشك ابن أتابك زنكي

وفيها قتل أبو الفتح يحيى الملقب شهاب الدين السهروردي الحكيم الفيلسوف

بقلعة حلب محبوساً أمر بخنقه الملك الظاهر غازي بامر والده السلطان قرأ المذكور الاصولين والحكمة ببراعة على مجد الدين ثم سافر الى حلب وكان علمه اكبر من عقله فنسب الى انحلال العقيدة وانه يعتقد مذهب الفلاسفة فافتى الفقهاء باباحة دمه لما ظهر من سوء مذهبه واشتهر عنه وكان اشدهم في ذلك زين الدين ومجد الدين ابنا جهبل * حكى الشيخ سيف الدين الآمدي قال اجتمعت بالسهروردي في حلب فقال لي لا بد ان أملك الارض فقلت من أين لك هذا قال رأيت في المنام كأني شربت ماء البحر فقلت لعل ذلك يكون اشتهار علمك وما يناسب هذا فرأيته لا يرجع عما وقع في نفسه ووجدته كثير العلم قليل العقل وكان عمره لما قتل ثمانية وثلاثين سنة وله عدة مصنفات في الحكمة منها التلويحات والتنقيحات والمشاوع والمطارحات وكتاب الهياكل وحكمة الاشراق وكان يزعم انه يعرف السيمياء وله نظم حسن *

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة وفيها سارت الافرنج الى عسقلان وشرعوا في عمارتها في محرم والسلطان بالقدس . وفيها قتل المركيس صاحب صور لعنه الله تعالى قتله الباطنية وكانوا قد دخلوا في زي الرهبان الى صور *

﴿ ذكر عقد الهدنة مع الافرنج وعود السلطان الى دمشق ﴾

وسبب ذلك ان ملك الانكتار مرض وطال عليه البيكار فكتب الى الملك العادل يسأله الدخول على السلطان في الصلح فلم يجب السلطان الى ذلك ثم اتفق رأي السلطان على ذلك لطول البيكار وضجر العسكر وكثرة نفقاتهم فأجاب السلطان الى ذلك واستقر أمر الهدنة في يوم السبت ثامن عشر شعبان وتحالفوا على ذلك في يوم الاربعاء الثاني والعشرين من شعبان ولم يحلف ملك الانكتار بل أخذوا يده واعتذر بأن الملوك لا يحلفون وقنع السلطان بذلك وحلف الكندهري ابن أخته وخليفته في الساحل وكذلك حلف غيره من عظماء الافرنج ووصل ابن الهنفري وباليان الى خدمة السلطان ومعهما جماعة من المقدمين وأخذوا يد السلطان واستحلفوا الملك العادل والملكين الأفضل والظاهر والملك المنصور والملك المجاهد شيركوه صاحب حمص والامجد بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك والامير بدر الدين دلدرم الياروقي صاحب تل باشر والامير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر والامير سيف

الدين علي بن احمد المشطوب وغيرهم من المقدمين الكبار وعقدت الهدنة عامة في البحر والبر وجعلت مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر أولها ايلول الموافق للحادي والعشرين من شعبان *

وكانت الهدنة على ان يستقر بيد الافرنج يافا وعملها وقيسارية وعملها وحيفا وعملها وعكا وعملها وان تكون عسقلان خراباً واشترط السلطان دخول بلاد الاسماعيلية في عقد هدنته واشترط الافرنج دخول صاحب انطاكية وطرابلس في عقد هدنتهم وان تكون لد والرملة مناصفة بينهم وبين المسلمين فاستقرت القاعدة على ذلك

ثم رحل السلطان الى القدس في رابع شهر رمضان وتفقد أحواله وأمر بتسديد أسواره وزاد في وقف المدرسة التي عملها بالقدس وهذه المدرسة كانت قبل الاسلام تعرف بصندحنة يذكرون ان فيها قبر حنة أم مريم ثم صارت في الاسلام دار علم قبل أن يتملك الافرنج القدس ثم لما ملك الافرنج القدس أعادوها كنيسة كما كانت قبل الاسلام فلما فتح السلطان القدس أعادها مدرسة وفوّض تدريسها ووقفها الى القاضي بهاء الدين بن شداد

ولما استقر أمر الهدنة أرسل السلطان مائة من الحجارين لتخريب عسقلان وأمر أن يخرج من بها من الافرنج وعزم على الحج والاحرام من القدس وكتب الى أخيه سيف الاسلام صاحب اليمن بذلك ثم ثبطه الامراء وقالوا لا تعتمد على هدنة الافرنج خوفاً من غدرهم فانتقض عزمه عن ذلك

ثم رحل السلطان عن القدس لخمس مضين من شوال الى نابلس ثم الى بيسان ثم الى كوكب فبات بقلعتها ثم رحل الى طبرية ولقيه بها الامير بهاء الدين قراقوش الاسدي وقد خلص من الأسر وكان قد أسر بعكا لما أخذها الافرنج مع من أسر فسار قراقوش مع السلطان الى دمشق ثم سار منها الى مصر

ثم سار السلطان الى بيروت ووصل الى خدمته بيمند صاحب انطاكية يوم السبت الحادي والعشرين من شوال فأكرمه السلطان وفارقه في غد ذلك اليوم وسار السلطان الى دمشق ودخلها يوم الاربعاء لخمس بقين من شوال وفرح الناس به لان غيبته عنهم كانت مدة أربع سنين وأقام العدل والاحسان بدمشق وأعطى السلطان العساكر الدستور فودّعه ولده الملك الظاهر وداعاً لا لقاء بعده وسار الى حلب وبقي

عند السلطان بدمشق ولده الافضل والقاضي الفاضل وكان الملك العادل قد استأذن السلطان وسار من القدس الى الكرك لينظر في مصالحه ثم عاد الى دمشق طالبًا البلاد الشرقية التي صارت له بعد تقي الدين فوصل الى دمشق في الحادي والعشرين من ذي القعدة وخرج السلطان لقائه . وفي يوم الخميس السادس والعشرين من شوال من هذه السنة توفي الامير سيف الدين المشطوب بنابلس وكانت اقطاعه فوقف السلطان ثلث نابلس على مصالح القدس وأقطع الباقي للامير عماد الدين أحمد بن المشطوب وأمير ن معه

﴿ ذكر وفاة السلطان عز الدين قليج ارسلان صاحب بلاد الروم وأخبار الذين تولوا بعده ﴾

في هذه السنة أعني سنه ثمان وثمانين وخمسمائة في منتصف شعبان توفي السلطان عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومس بن أرسلان بيغو بن سلجوق وكان ملكه في سنة احدى وخمسين وخمسمائة وكان ذا سياسة وهيبة عظيمة وعدل وافر وغزوات كثيرة وكان له عشرة بنين قد ولى كل واحد منهم قطرًا من بلاد الروم وأكبرهم قطب الدين ملكشاه بن قليج أرسلان المذكور وكان قد أعطاه أبوه سيواس فسولت له نفسه القبض على أبيه واخوته والانفراد بالسلطنة وساعده على ذلك صاحب ارزنكان فسار قطب الدين ملكشاه وهجم على والده قليج أرسلان بمدينة قونية وقال لوالده وهو في قبضته أنا بين يديك أنفذ أوامرك ثم انه أشهد على والده بأنه جعله ولي عهده ثم سار الى حرب أخيه نور الدين سلطان شاه صاحب قيسارية ووالده في القبضة معه وهو يظهر ان ما يفعله انما هو بأمر والده فخرج عسكر قيسارية لحربه فوجد أبوه عز الدين قليج أرسلان عند اشتغال العسكر بالقتال فرصة فهرب الى ولده سلطان شاه صاحب قيسارية فأكرمه وعظمه كما يجب عليه فرجع قطب الدين ملكشاه الى قونية وخطب لنفسه بالسلطنة وبقي أبوه يتردد في بلاده بين أولاده كلما ضجر منهم واحد ينتقل الى الآخر حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان صاحب برغلو فقوي أباه قليج وأعطاه وجمع له وحشد وسار معه الى قونية فملكها وأخذها من ملكشاه ثم سار الى اقصرا واتفق ان

عز الدين قليج أرسلان مرض ومات في التاريخ المذكور فأخذه ولده كيخسرو وعاد به الى قونية فدفنه بها واتفق موت ملكشاه بعد موت أبيه بقليل فاستقر كيخسرو في ملك قونية اذا ثبت انه ولي عهد أبيه ثم ان ركن الدين سليمان أخا غياث الدين كيخسرو قوي على أخيه كيخسرو وأخذ منه قونية فهرب كيخسرو الى الشام مستجيراً بالملك الظاهر صاحب حلب ثم مات ركن الدين سليمان سنة ستمائة وملك بعده ولده قليج ارسلان بن سليمان فرجع كيخسرو الى بلاد الروم وازال ملك بن سليمان وملك بلاد الروم جميعها واستقرت له السلطنة ببلاد الروم وبقي كذلك الى أن قتل وملك بعده ابنه عز الدين كيكاووس بن كيخسرو ثم توفي كيكاووس وملك بعده أخو السلطان علاء الدين كيقباد بن كيخسرو وتوفي كيقباد سنة أربع وثلاثين وستمائة وملك بعده ولده غياث الدين كيخسرو وكسره التتر سنة احدى وأربعين وستمائة وتضعضع حينئذ ملك السلاطين السلجوقية ببلاد الروم ثم مات غياث الدين كيخسرو وانقضى بموته سلاطين بلاد الروم في الحقيقة لان من صار بعده لم يكن له من السلطنة غير مجرد الاسم وخلف كيخسرو المذكور صبيين هما ركن الدين وعز الدين فملكا مصامدة مديدة ثم انفرد ركن الدين بالسلطنة وهرب اخوه عز الدين الى القسطنطينية وتغلب على ركن الدين معين الدين البرواناه والبلاد في الحقيقة للتتر ثم ان البرواناه قتل ركن الدين وأقام ابناً لركن الدين يخطب له بالسلطنة والحكم للبرواناه وهو نائب التتر على ما نذكره ان شاء الله تعالى

﴿ ذكر غير ذلك من الحوادث ﴾

وفي هذه السنة غزا شهاب الدين الغوري الهند فغنم وقتل ما لا يحصى. وفيها خرج السلطان طغريل من الحبس بعد قتل قزل أرسلان بن الدكز وكان قزل قد اعتقله حسبما تقدم ذكره في سنة سبع وثمانين وخمسمائة. وفيها توفي راشد الدين سليمان بن محمد وكنيته أبو الحشر صاحب دعوة الاسماعيلية بقلاع الشام واصله من البصرة

﴿ ذكر وفاة الملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف ابن أيوب ﴾

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة والسلطان بدمشق على اكمل ما يكون

من المسرة وخرج الى شرقي دمشق متصيدًا وغاب خمسة عشر يومًا وصحبته أخوه الملك العادل ثم عاد الى دمشق وودعه أخوه العادل وداعًا لا لقاء بعده فمضى الى الكرك وأقام به حتي بلغه وفاة السلطان وأقام السلطان بدمشق وركب في يوم الجمعة خامس عشر صفر وتلقى الحجاج وكان عادته ان لا يركب الا وهو لابس كزاغند فركب ذلك اليوم وقد اجتمع بسبب ملتقى الحجاج وركوبه عالم عظيم ولم يلبس الكزاغند ثم ذكره وهو راكب فطلب الكزاغند فلم يجده قد حلوه معه ولما التقى الحجاج استعبرت عيناه كيف فاته الحج ووصل اليه مع الحجاج ولد أخيه سيف الاسلام صاحب اليمن ثم عاد السلطان بين البساتين الى جهة المنيبع ودخل الى القلعة على الجسر وكانت هذه آخر ركباته فلحقه ليلة السبت سادس عشر صفر كسل عظيم وغشيته نصف الليل حمى صفراوية وأخذ المرض في التزايد وفصده الاطباء في الرابع فاشتد مرضه وحدث به في التاسع رعشة وغاب ذهنه وامتنع من تناول المشروب واشتد الارجاف في البلد وغشي الناس من الحزن والبكاء عليه ما لا يمكن حكايته وحقن في العاشر حقنتين فحصل له راحة وتناول من ماء الشعير مقدارًا صالحًا ثم لحقه عرق عظيم حتى نفذ من الفراش واشتد المرض ليلة الثاني عشر من مرضه وهي ليلة السابع والعشرين من صفر وحضر عنده الشيخ أبو جعفر امام الكلاسة ليبيت عنده في القلعة بحيث ان احتضر في الليل ذكره بالشهادة وتوفى السلطان في الليلة المذكورة اعني في الليلة المسفرة عن نهار الاربعاء السابع والعشرين من صفر بعد صلاة الصبح وبادر القاضي الفاضل بعد صلاة الصبح فحضر وفاته ووصل القاضي بهاء الدين بن شداد بعد وفاته وانتقاله الى رحمة الله تعالى وكرامته وغسله الفقيه الدولعي خطيب دمشق وأخرج بعد صلاة الظهر من نهار الاربعاء المذكور في تابوت مسجى بثوب وجميع ما احتاجه من الثياب في تكفينه أحضره القاضي الفاضل من جهة حل عرفها وصلى الناس عليه ودفن في قلعة دمشق في الدار التي كان مريضًا فيها وكان نزوله الى جدثه وقت صلاة العصر من النهار المذكور ·

وكان الملك الافضل ابنه قد حلف الناس له قبل وفاة والده عند ما اشتد مرضه وجلس للعزاء في القلعة وأرسل الملك الافضل الكتب بوفاة والده الى أخيه العزيز عثمان بمصر والى أخيه الظاهر غازي بحلب والى عمه الملك العادل أبي بكر بالكرك

ثم أن الملك الافضل عمل لوالدته تربة قرب الجامع وكانت دار الرجل صالح ونقل اليها السلطان يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ومشي الملك الافضل بين يدي تابوته واخرج من باب القلعة على دار الحديث الى باب البريد وأدخل ووضع قدام المنبر وصلى عليه القاضي محيي الدين ابن القاضي زكي الدين ثم دفن وجلس ابنه الملك الافضل في الجامع للعزاء ثلاثة أيام وأنفقت ست الشام بنت أيوب أخت السلطان في هذه النوبة مالاً عظيماً *

وكان مولد السلطان صلاح الدين بتكريت في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وكان عمره قريباً من سبعة وخمسين سنة وكانت مدة ملكه للديار المصرية نحو أربع وعشرين سنة وملكه للشام قريباً من تسع عشرة سنة وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً وبنتاً واحدة وكان أكبر أولاده الملك الافضل نور الدين علي بن يوسف ولد بمصر سنة خمس وستين وخمسمائة وكان العزيز عثمان اصغر منه بنحو سنتين وكان الظاهر صاحب حلب اصغر منهما وبقيت البنت حتى تزوجها ابن عمها الملك الكامل صاحب مصر

ولم يخلف السلطان صلاح الدين في خزانته غير سبعة وأربعين درهما وجرم واحد صوري وهذا من دخل الديار المصرية والشام وبلاد الشرق واليمن دليل قاطع على فرط كرمه ولم يخلف داراً ولا عقاراً . قال العماد الكاتب حسبت ما أطلقه السلطان في مدة مقامه بمرج عكا من خيل عراب وأكاديش فكان اثنى عشر الف رأس وذلك غير ما أطلقه من أثمان الخيل المصابة في القتال فلم يكن له فرس يركبه الا وهو موهوب أو موعود به *

ولم يؤخر صلاة عن وقتها ولا صلى الا في جماعة وكان اذا عزم على أمر توكل على الله ولا يفضل يوماً على يوم وكان كثير سماع الحديث النبوي وقرأ مختصراً في الفقه تصنيف سليم الرازي وكان حسن الخلق صبوراً على ما يكرهه كثير التغافل عن اصحابه يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه . وكان يوماً جالساً فرمي بعض المماليك بعضاً بسرموزة فأخطأته ووصلت الى السلطان ووقعت بالقرب منه فالتفت الى الجهة الاخري ليتغافل عنها . وكان طاهر المجلس فلا يذكر أحد بمجلسه الا بخير وطاهر اللسان فما ولع بشتم قط . قال العماد الكاتب مات بموت السلطان

الرجال . وفات بفواته الافضال . وغاضت الايادي . وفاضت الاعادي . وانقطعت الارزاق . وادلهمت الآفاق . وفجع الزمان بواحده وسلطانه . ورزئ الاسلام بمشيد اركانه .

﴿ ذكر ما استقر عليه الحال بعد وفاة السلطان ﴾

ولما توفي السلطان الملك الناصر صلاح الدين استقر في الملك بدمشق وبلادها المنسوبة اليها ولده الملك الافضل نور الدين علي وبالديار المصرية الملك العزيز عثمان وبحلب الملك الظاهر غياث الدين غازي وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقية الملك العادل سيف الدين ابو بكر بن ايوب وبحماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر وببعلبك الملك الامجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن ايوب وبحمص والرحبة وتدمر شيركوه ابن محمد بن شيركوه بن شاذي وبيد الملك خضر بن السلطان صلاح الدين بصري وهو في خدمة اخيه الملك الافضل . وبيد جماعة من امراء الدولة بلاد وحصون منهم سابق الدين عثمان ابن الداية بيده شيزر وابو قبيس وناصر الدين بن كورس بن خمارد كين بيده صهيون وحصن برزية وبدر الدين دلدرم ابن بهاء الدين ياورق بيده تل باشر وعز الدين سامه بيده كوكب وعجلون وعز الدين ابراهيم بن شمس الدين المقدم بيده نعراس وكفر طاب وفامية *

والملك الافضل هو الاكبر من اولاد السلطان والمعهود اليه السلطنة واستوزر الملك الافضل ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الاثير مصنف المثل السائر وهو اخو عز الدين بن الاثير مؤلف التاريخ المسمى بالكامل فحسن للملك الافضل طرد امراء ابيه ففارقوه الى اخويه العزيز والظاهر قال اجتمعت اكابر الامراء بمصر وحسنوا للملك العزيز الانفراد بالسلطنة ووقعوا في اخيه الافضل فمال الى ذلك وحصلت الوحشة بين الاخوين الافضل والعزيز

تم بحمد الله وعونه والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام
على سيدنا محمد وآله وصحبه اجمعين